رواية مقتبسة عن قصّة حقيقية

مكتبة

سعاد العامري

بدلة إنكليزية وبقرة يهودية

ترجمتها عن الإنكليزية مع الكاتبة: هلا شروف

المتوسط

بدلة إنكليزية
وبقرة يهودية

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

حقوق النسخ © 2022 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © 2020 سعاد العامري

مكتبة 20 10 2023
t.me/soramnqraa

Mother of Strangers *by* "Suad Amiry"
Copyright © 2020 Suad Amiry
Arabic translation copyright © 2022 by **Almutawassit Books**.

المؤلفة: سعاد العامري / المترجمة: هلا شروف

عنوان الكتاب: بدلة إنـــكليزية وبقرة يهودية / الطبعة الأولى: 2022.

لوحة الغلاف: الفنان الإيطالي أندريا جيرميا (Andrea Geremia)، وصممها خصيصاً للطبعة الإيطالية/ الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-53-0

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.

www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

سعاد العامري

بدلة إنكليزية وبقرة يهودية

ترجمتها عن الإنكليزية مع الكاتبة: هلا شروف

مكتبة
t.me/soramnqraa

المتوسط

إلى أبي،

وإلى اللَّاجئين جميعهم الذين قضوا في الشتات مُنتظرين العودة إلى الوطن.

ملاحظة الكاتبة

هذه الرواية مَبنيَّة على مقابلات شخصية، أجريتُها سنة 2018 مع صبحي (88 عاماً) المقيم الآن في عَمَّان، وشمس (85 عاماً) المقيمة في يافا.

الفصل الأوَّل

صبحي

قصَّة بدلة (يافا، تمُّوز 1947)

1

أشطر ميكانيكي في يافا

مكتبة
t.me/soramnqraa

«صبحي، صبحي، صبحي، ولك صبحي!»، تطلَّب الأمر بضع صرخات متصاعدة قبل أن يبدي صبحي أيَّة إشارة توحي بأنه قد سمع اسمه. رفع رأسه على أقلِّ من مهله، وحدَّق باتِّجاه معلِّمه. على مدخل الكراج، وقف المعلِّم مصطفى، وبجانبه زبون جديد أنيق الملبس. استمرَّ صبحي في عمله لبضع دقائق قبل أن يُسكِتَ الصوت الذي يصمُّ الأُذُنَيْن للمولِّد الكهربائي الذي كان يُصلحه. من بعيد رفع يده في إشارة كأنه يقول لمعلِّمه: «نعم؟ إيش في؟»، وبالمقابل تلقَّى إشارة يدٍ وصرخة: «بقولَّك اترك كلّ شي بإيدك، وتعال هون حالاً».

منزعجاً من مقاطعة معلِّمه لعمله، أشار صبحي بعصبيَّة إلى عشرات قِطَع المولِّد المنثورة على الأرضية الإسمنتية القذرة تحت قدمَيْه. كان هناك صفٌّ طويل من آلات أخرى: مضخَّات مياه، مولِّدات كهربائية، محرِّكات؛ كلُّها بانتظار أن يصلحها الميكانيكيّ البارع ذو الخمسة عشر عاماً. صرخ المعلِّم مصطفى، الذي كان معتاداً على حركات صبحي ولغة جسده التي تشير إلى أنه «عَنَّدَ»، ولن يتحرَّك من مكانه: «صبحي، بقولَّك اترك كلّ شي حالاً، وروح غسِّل إيديك ووجهك، بدِّي ياك تروح مع الخواجا ميخائيل لبَيَّارته، تتفقَّد نظام الريّ، وتفحص مضخَّة المَي في الخزان الكبير».

«الخواجا ميخائيل!»، تمتم صبحي لنفسه، وهو يحدِّق مرَّة أخرى باتِّجاه الزبون الجديد.

في وسط بوَّابة الكراج، وقف رجل طويل القامة متين البنية، يرتدي بدلة من الكتَّان فاتحة اللون، وقبَّعة «فيدورا» الطليانية ذات اللون البنِّيّ الفاتح والشريط البنِّيّ الداكن. كان من الصعب على صبحي أن يرى ملامح الخواجا ميخائيل وهو يقف في ضوء الظهيرة الساطع الذي شكَّل هالة حوله، وهو أحد أهمِّ رجالات يافا وأغناهم.

«خواجا ميخائيل، خواجا ميخائيل ... وين سمعت هالاسم من قبل؟»، سأل صبحي نفسه وهو ينحني فوق الحوض الحجري، ويفرك شحم المحرِّك عن يدَيْه، «آه تذكَّرت، طبعاً من أبوي»، ثمَّ قال بصوت مسموع: «ياه! خواجا ميخائيل بحاله، حَصَلْ لِنَا الشرف!».

وفجأة، تذكَّر الجدال، أو بالأصحِّ الشجار، الذي دار بينه وبين والده، والذي ذُكر فيه اسم الخواجا ميخائيل:

«أنا بَحبّ شغلي، ولو اضطرِّيت رح أشتغله ببلاش»، قال صبحي دفاعاً عن خياره في ترك المدرسة والعمل كميكانيكي في كراج المعلِّم مصطفى.

«طبعاً ببلاش، يا ابن الكلب! شو مفكِّر حالك؟ ابن الخواجا ميخائيل؟».

في هذا السياق، سمع صبحي اسم الخواجا ميخائيل لأوَّل مرَّة في حياته، وتذكَّر أيضاً كيف سخر منه والده، لأنه ظنَّ أن «خواجا» كان الاسم الأوَّل للسيِّد ميخائيل.

«لا يا ابنيِّي، خواجا مش اسمه الأوَّل، الخواجا هو الرجل المسيحي أو اليهودي، لكنْ، أكيد مش كلّ المسيحيِّيْن واليهود خواجات، بس الأغنيا منهم. وفي كثير منهم فقرا مثل أبوك، إذا مش أفقر». بالطبع،

كان صبحي يعرف الكثير من الفقراء المسيحيِّيْن واليهود والمسلمين، مثل جيرانهم المسيحيِّيْن أبو وأُمّ يوسف، وأبو يعقوب، العتَّال اليهودي في سوق الكرمل. ولكنه لم يكن يعرف أيّاً من الخواجات الأغنياء.

«وشو بنسمِّي المسلم الغني، يابا؟»، سأل صبحي والده.

«رِجَّال غني، على ما أظنّ»، أجاب والده مبتسماً.

ورَغْم تشوُّق صبحي لمرافقة أحد أغنى تجَّار البرتقال ومصدِّريه في يافا، إلَّا أنه شعر بالقلق: «طيِّب، وشو بدِّي أعمل لو ما عرفتش أصلِّح نظام الريّ في وحدة من أكبر وأهمّ بَيَّارَات يافا؟»، ولانشغاله، فرك وجهه بالخطأ بخرقة الكاز: «آاااي»، صرخ، بينما صارت وجنتاه العاليتان حمراوَيْن، كأنّهما تحترقان، وكذلك عيناه الغائرتان الشبيهتان بعينَي الثعلب.

أكثر ما حيَّر صبحي وهو يخطو عبر الكراج مسرعاً باتِّجاه المعلِّم مصطفى والخواجا ميخائيل، وهو يرفع باستمرار بنطاله المُبقَّع الواسع، هو مجيء الخواجا بنفسه إلى سوق الحدَّادين، السوق الأكثر فقراً في المدينة، بينما كان بإمكانه أن يرسل سائقه أو أحد الرجال الكُثر الذين يعملون لديه. كان والد صبحي وإخوته يعملون في البَيَّارات، لذا فهو يعرف جيِّداً كيف يمكن لهذا العمل أن يكون مُضنياً لبعضهم، ومُربحاً لبعضهم الآخر. لا بدَّ أن لدى الخواجا ميخائيل عشرات، إن لم يكن مئات، من الرجال الذين يعملون في بَيَّارَاته، وعدد مماثل في شركة تصدير البرتقال التي يملكها. في تلك اللحظة تذكَّر وصف والده للخواجا ميخائيل بأنه رجل «عصامي» صنع نفسه بنفسه، حينها فهم تواضُع الرجال العصاميِّيْن.

على عكس شقيقَيه جمال وأمير اللذَيْن يعملان مع والدهما في زراعة عدد من البَيَّارات ورعايتها، والواقعة إلى الشرق من يافا وإلى جنوبها الشرقي، حقَّق صبحي حُلْمه، أو الأصحّ هَوَسه، فمنذ صغره كان مولَعاً بفَكفَكَة أيّ شيء يقع تحت نظره أو بين يدَيْه وتركيبه، سواء كان راديو زينيث، أو أدوات جَدِّه الزراعية أو حتَّى حنطوره، أو درَّاجات إخوته، وحتَّى درَّاجات أطفال الجيران ذات الثلاث عجلات، أو ألعاب ودمى صغار العائلة. كان يُفَكْفِك تلك الألعاب إلى رؤوس وأذرع وأيدٍ وسيقان وأقدام وأحذية وجوارب وقبَّعات ومراييل. وبينما كان الصغار يصيحون بجنون، كان أفراد العائلة الكبار ينفجرون بالضحك وهم يهنِّئونه على مخلوقاته العجيبة، إذ كان يركِّب سيقان لعبة على جذع لعبة أخرى، أو رأس حيوان على جسم إنسان، أو العكس. وكان صراخ المالكين الصغار للألعاب المُفَكْفَكَة يستمرُّ إلى أن يبدأ صبحي جولة جديدة من الفَكْفَكَة والتركيب، مُعيداً الدمى إلى شكلها الأصلي.

«ليش تشتغل عند المعلِّم مصطفى بدل ما تشتغل مع أبوك؟»، كثيراً ما اعترض والده إسماعيل.

«الجواب على سؤالك بسيط كثير، يابا»، أجاب صبحي بسخرية، «المعلِّم مصطفى بيدفعلي 30 قرش في اليوم، بس انت بتدفعش لإخوتي ولا قرش».

«ولا قرش، يا عرص، يا ولاد الحرام، ولا قرش؟ أنا مش معطيك إنت وإخوتك سقف تعيشوا تحته، وفرشة تناموا عليها؟ مش إِمَّك وستَّك بيقضُّوا الليل والنهار وهُمَّه يغسلوا ويغلوا أواعيكم المزيتة ويطبخولكم؟ بتسمِّي هاد ولا إشي؟ شو بيقدر أب فقير متلي يعمل لولاده أكثر من هيك؟ خلِّينا نشوف شو رح تعملِّك هالثلاثين قرش في اليوم، وهاي دقني إذا ما ضلِّيت عزَّابي مثل عمِّك الهامل».

«شو اللِّي مش عاجبك في عمِّي حبيب؟ مش هَيُّو مبسوط، وبيقضِّي أكثر لياليه في تلّ أبيب؟».

«بدَّك تقولِّي إنه عيشِة عمَّك حبيب هي العيشة اللِّي بتحلم فيها، يا ابنِّي؟».

كان والد صبحي يشير إلى الحياة الليلية لأخيه الأصغر، الذي استطاع أن يعيش حياة صاخبة في بارات تلِّ أبيب ونواديها الليلية، برَغْم عمله القليل ونقوده الأقلّ. كان حبيب يقضي معظم عطلات نهاية الأسبوع في الكراخانات العربية واليهودية الواقعة في شارع يافا تلّ أبيب، والتي يرتادها الجنود الإنكليز واليهود.

«بس مش عمِّي حبيب بيقول إنه عم يستفيد من علاقاته المنيحة مع الجنود الإنكليز في الكراخانات عشان يغيّروا سياسة حكومتهم، بخصوص هجرة اليهود لفلسطين؟».

«شو هالحكي الفاضي؟ هينا شايفين النتيجة! كلّ يوم عم بيزيد عدد السفن المحمَّلة بمهاجرين يهود، واللِّي بتوصل قدَّام عينينا على ميناء تلّ أبيب. إذا كانت الثورة بعظمتها ما قدرت تغيِّر سياسة الهجرة البريطانية، بدَّك تقولِّي إنُّه عمَّك السكران والجنود الإنكليز المسطولين في الكرخانة رح يغيِّروها، لإنهم بشرمطوا مع بعض؟».

«ليش لأ؟»، سأل صبحي الذي كان يستمتع بأوَّل حوار له مع والده، رجلاً لرجل، ويسعى للمزيد.

«بتسألني ليش لأ؟ لإنُّه كلّ الناس بتضرِب ضدَّ تحيُّز الإنكليز لليهود إلَّا هدول الشراميط والعاهرات وكرخاناتهم. حرب ولَّا سلام، عمرهم ما بيسكروا أبوابهم».

«بس مش هديك اليوم الثوّار حرقوا محلّات في شارع شلوش؟».

«والله، يا ابنيِّي، شايفك متبِّع منيح الأخبار السياسية والصراع في هالبلد!».

انفجر صبحي ضاحكاً، ثمَّ أضاف: «بس اليهود كمان بيروحوا هناك».

«شوف، يا ابنيِّي، كلّ مرَّة بيتّفقوا العرب واليهود على إشي بيكون مصيبة: دعارة، تهريب، تجارة سلاح، عصابات، نهب وسرقة، وما تنسى الجواسيس والمخبرين، بس هدول للأسف بيشتغلوا باتِّجاه واحد، بتجسَّسوا على قياداتنا السياسية وثوّارنا، لكنْ، إحنا ما بنتجسَّس على حَدَا».

«بتقولّي كلّ هالحكي، بس لإني قلتلَّك بدِّي أصير ميكانيكي؟».

كان صبحي يناكف والده، الذي لم يفوِّت فرصة ليشتم أخاه الأصغر، ويعطي ابنه محاضرة عن الكفاح والمقاومة:

«أنا قصدي، يا ابنيِّي، أسألك إزا كانت هاي هي العيشة اللِّي بتحلم تعيشها؟ التدخين والسُّكُر كلّ ليلة، وألله أعلم أي بلاوي تانية بيعملها عمَّك في تلّ أبيب. على كلٍّ أظنلَّك إنُّه هاد كلّ اللِّي ممكن تعمله بهالتلاتين قرش اللِّي بتوخدهم. يَلَّا، شو ممكن الواحد يستنَّى من زلزال غير الدمار؟».

صعَّد والد صبحي هجومه على أخيه حبيب، الذي كان يُلقَّب بالزلزال، ذلك لأنه وُلد في 11 تمُّوز 1927، وهو اليوم الذي ضرب فيه الزلزال ودمَّر مدينة أريحا وعدداً من المُدُن والبلدات. في ذلك اليوم كانت جدَّة صبحي تزور أُختها في أريحا، وأنجبت حبيب قبل وقته. «من

شدَّة الرعب، خرج حبيب مسرعاً من رَحِم أُمِّه، ولم يتوقَّف عن الجري إلى أماكن دافئة أخرى منذ ذلك الحين»، كانت هذه نكتة العائلة.

لم يكن حبيب استثناء، فمعظم أفراد العائلة حملوا ألقاباً ترتبط بأحداث مهمَّة: ثورة، حرب، أو كارثة طبيعية، وما أكثرها في فلسطين! فوالد صبحي، إسماعيل، الذي وُلد سنة 1911، لُقِّب بالصخرة، نسبةً إلى قبَّة الصخرة. في ذلك العام شهدت فلسطين ثورة عارمة ومظاهرات ضدَّ الحفريات التي كانت تجري سرَّاً أسفل مسجد قبَّة الصخرة في القدس. وفي حقيقة الأمر، ومع مرور الزمن، أصبح إسماعيل قاسياً مثل صخرة، وخاصَّة عندما كان الأمر يتعلَّق بشقيقه حبيب الذي يصغره بستَّة عشر عاماً، وكان أقرب إلى أن يكون ابنه، وليس أخاه.

لُقِّب أحد أعمام صبحي، الذي وُلد في العام 1915، بالجراد، لأنه كان العام الذي اجتاحت فيه أسراب من الجراد فلسطين، مُلتهمة معظم محاصيل ذلك العام. عَمٌّ آخر من أعمامه كان لقبه ضَو، لأنه وُلد عندما تمَّ ربط مدينة يافا بشبكة الكهرباء سنة 1924، أمَّا عمُّه الأصغر صفوان، فكان لقبه الحيط، لأنه وُلد سنة 1929 في أثناء ثورة البُرَاق. كانت هذه الثورة انتفاضة شعبية ضدَّ الانتداب البريطاني الذي سعى إلى تغيير وضع حائط البُرَاق، الذي يسمِّيه اليهود حائط المَبْكَى، في القدس. ومثل النار في الهشيم، امتدَّت ثورة البُرَاق إلى العديد من المُدُن الأخرى، وأدَّت إلى مجزرة، راح ضحيَّتها 133 فلسطينياً في عدَّة مُدُن، و166 يهودياً في الخليل. ومع الوقت صار اللقب لائقاً بصفوان عندما اتَّضح أنه عنيد مثل حائط.

كان إطلاق الألقاب تقليداً عائلياً وصل إلى صبحي وأشقَّائه، وبما أنه وُلد خلال العاصفة الثلجية الكبرى في العام 1933، فقد لُقِّب بـ

العاصفة، بينما لُقِّب أخوه الأكبر جمال بـ إسراء، لأنه وُلد في ليلة الإسراء من العام 1931 التي عُقد فيها المؤتمر الإسلامي الذي انطلق معلناً عن رفضه لإنشاء كيان صهيوني في فلسطين. أمَّا شقيقه الأصغر، فلُقِّب بـ أمير، لأنه كان خلوقاً وشديد التهذيب. وفيما عدا الكوارث الطبيعية، مثل الزلازل والنيران والعواصف الثلجية والجراد، فإن الكوارث الأخرى جميعها كانت سلسلة من الانتفاضات والثورات ضدَّ إقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

شقيقة صبحي حنان، التي وُلدت في أثناء ثورة 1936، حصلت على لقب فوضى، لأنها كانت أبعد ما تكون عن الترتيب من جهة، ومن جهة أخرى، لأن الفوضى كانت واحدة من سِمات ثورة 1936 والإضراب الكبير، والتي خاضها الفلسطينيون على مدار ثلاث سنوات متتالية بين الأعوام 1936-1939 ضدَّ القوَّات البريطانية والصهيونية في فلسطين.

الوحيدة من بين الأشقَّاء والشقيقات التي لم تكن بحاجة إلى لقب كانت كلثوم، الشقيقة الصغرى، إذ إنها سُمِّيت على اسم المطربة أُمّ كلثوم، التي أقامت حفلاً غنائياً في سينما الحمراء في يافا سنة 1937. كان الجَدُّ علي كلَّما ذُكِرَ اسم كلثوم، يروي قصَّة مجيء أُمّ كلثوم إلى فلسطين:

«والله، يا سيدي، عشان أحضر الحفلة، صرفت تحويشة سنة بحالها، بس، والله، ما ندمت، إنت عارف شو يعني تسمع «السّتّ»، وتشوفها! عليم الله كلّ أهل البلد طلعوا يستقبلوها، من المحافظ لأعضاء المجلس البلدي، والأعيان، وحتَّى الخواجات. والفلَّاحين المصرِيِّينْ المعتَّرين إجوا من الضواحي، وناموا في الشوارع يومين، على أمل يلمحوها لمَّا وصلت المينا في يخت خاصّ. اتِّحاد بَحَّارة

يافا هو اللِّي نظَّم جولتها، ودفعلها ألفين جنيه فلسطيني عن كلّ حفلة، وعِلْمَك، عِمْلِت خمس حفلات، تِنْتِين في القدس وتِنْتِين في حيفا، ووحدة في يافا، يعني باختصار، عملت ثروة من جَيِّتها لفلسطين، عشان هيك أجت أكتر من مرَّة، في سنة 1931 و1935 و1937».

أدرك صبحي أن حديثه عن عمِّه حبيب أدخله في دوَّامة من الجدل، فعاد ليشرح لوالده السبب وراء خياره في أن يصبح ميكانيكياً، وليس عامل بَيَّارَة:

«إنت من بين كلّ الناس لازم تعرف معنى إنّه الواحد يكون ميكانيكي شاطر، بيقدر يصلّح للناس ماكينات ومضخَّات المَي. بدِّي أشوف شو بدُّه يصير لبَيَّارتك إذا خربت مضخَّات المَي فيها بدون ما تلاقي حدا يصلِّحها!».

«طيِّب ماشي، يا شَطُّور، غَلَبْتْني هالمرَّة»، قال إسماعيل بنغمة تصالحيّة أبويّة حتَّى لا يضايق ابنه أكثر من ذلك.

ولكن صبحي واصل:

«إزا إنت مُصرّ إنه الولاد لازم يشتغلوا مع أبوهم، إذاً فسِّرلي ليش إنت ما صرت صيَّاد مثل سيدي علي، مش ترجَّاك، ولسَّاته بترجَّاك إنَّك تروح معه عالبحر كلّ ليلة بيطلع فيها عالصيد؟!».

«ليش الواحد يروح على بحر هايج، طالما بيقدر يشتغل في البَيَّارَة؟ وليش يكون في بحر غدَّار متل بحر يافا طول الليل لمَّا يقدر يستمتع بدفء الشمس في بَيَّارَة البرتقان كلّ النهار؟».

كان إسماعيل متلهِّفاً ليشرح لصبحي ما عَدَّه أمراً بديهياً، لهذا أضاف:

«يا ابنِّي، ليش أنا حاسس إنه ما عندك أيّ فكرة إيش هو برتقان يافا؟! وإيش بيعني؟! الدنيا كلّها بتفتخر ببرتقان مدينتك، وإنت بدَّك تكون ميكانيكي! برتقان يافا ذهب، ذهب صافي! واضح إنَّك لسَّاتك صغير لتفهم الثروة اللِّي بيعملوها التجَّار أمثال الخواجا ميخائيل أو الإخوة زهدي وعلي أبو جبين أو واحد مثل عبد الغني النابلسي من هاد البرتقان. السنة الماضية لحالها تصدَّر ثلاثين مليون صندوق، بتعرف كم مليون جنيه هدول؟ بَيَّارَات البرتقان مناجم ذهب».

كان والد صبحي شديد الانفعال، ولكن صبحي أجابه باستهتار: «والله، يابا، كلّ اللِّي أنا شايفه برتقان، بس مش شايف ذهب».

«وأنا مستنِّي لأشوف مين البنت اللِّي بدها تتجوَّز ولد، بيهلِك حاله عشان تلاتين قرش في اليوم، وحاشرلي حاله في كراج عِتِم ومْزَيِّت!».

تسمَّر صبحي صامتاً، فهو لم يعد يرغب في مواصلة هذا الجدال العقيم، ولكن، والأهمّ، لم يكن يريد أن يبوح بسرٍّ وحُلْم، طالما راوداه، وهو الزواج من شمس. في هذه اللحظة استعاد ابتسامتها الرقيقة. لقد مضت عدَّة أشهر الآن وهو يحتفظ لنفسه بسرٍّ لقائه بها في الصيف الماضي في موسم النبي روبين. لم يُخبِر والده، ولا أيَّ شخص آخر، أنه غارق حتَّى أُذُنَيْه في حُبِّ شمس ابنة الثلاثة عشر عاماً، الابنة الكبرى لخليل السقَّا، مساعد أبيه الذي كانت مسؤوليَّته الرئيسة رَيّ بَيَّارَة البرتقال. شيء ما في تلك الفتاة أفقد صبحي صوابه. لم يفهم أبداً ما الذي جعله يقع في حُبِّها، ويصبح عاشقاً مثل مجنون ليلى، هل هي ابتسامتها أم عيناها العسليَّتان الحزينتان؟ شيء ما في خُصلات شَعْرها الكستنائي جعله يشعر أنه عالق في شبكة من شِبَاك صيد السمك، وكالسمك الذي يتخبَّط في شبكة صيد جَدِّه، كان جسد

صبحي يتقلَّب من جهة إلى أخرى، عاجزاً عن النوم في الليلة التي تَلَتْ رؤيتها على شاطئ مقام النبي روبين. وهل هناك مكان أفضل للوقوع في الحُبِّ من احتفالات هذا الموسم، والذي أُقيم في الهواء الطلق جنوبي يافا، واستمرَّ شهراً كاملاً، من منتصف آب إلى منتصف أيلول؟ وككلِّ الأشياء الجميلة التي أينعت خلال موسم العطلة ذاك، أزهر الحُبُّ بين صبحي وشمس. وعلى عكس بقيَّة أشهر السنة التي لم يلتقيا فيها إلَّا قليلاً، حظي الحبيبان بفرصة اللقاء والركض على رمل الشاطئ، ورعاية حُبِّهما البريء.

مثل مئات من البنات والأولاد الآخرين، كانت شمس تركض على الشاطئ مع شقيقها الأصغر محمَّد، وشقيقتَيْها نظيرة ونوال، وأبناء عمومتها العديدين، عندما لمح صبحي فستانها الأبيض والبرتقالي، قبل أن يقترب منها، ويغرق في ابتسامتها وعينَيْها الحزينتَيْن، وخُصلات شَعْرها الطويل المتموِّج مثل موج البحر. كانت ابتسامة خجولة تطفو على وجهه المتورِّد كلَّما استعاد ذكرى إحساسه الأوَّل عندما حدَّق في وجهها أوَّل مرَّة.

لم يعرف صبحي حينها أن الحزن الذي لمحه في عينَيْها كان يُنبِئ بمأساة، ستقع عليهما في المستقبل القريب. ولكنه ظلَّ حتَّى ذلك الحين ذاك الفتى المفعَم بالحياة، والذي نادراً ما فارقت الابتسامة مُحيَّاه.

2
بدلة الميعاد

ارتسمت على وجه صبحي ابتسامة خجولة عندما وقف إلى جانب المعلِّم مصطفى والخواجا ميخائيل، أبرزتْها وجنتاه العاليتان. لمعت عيناه البنِّيَّتان الصغيرتان وهو يستمع إلى معلِّمه الذي كان يصفه للخواجا ميخائيل: «صغير بس حربوق وشاطر». كانت هذه الكلمات الأخيرة التي سمع معلِّمه يقولها للزبون الأشبه باللورد الإنكليزي، قبل أن ينظر إليه ويقول: «روح افهملي ليش نشفت المَي بدري في أوَّل الموسم، مع إنُّه الخواجا عنده واحد من أكبر آبار المَي في يافا!».

احتار صبحي هل يجلس في المَقْعَد الأمامي أم الخلفي في سيَّارة الخواجا ميخائيل الـ «باكارد»، لذلك انتظر إشارة منه.

«يَلَّا، يا ابني، تفضَّل اركبْ في السيَّارة»، قال الخواجا وهو يشير إلى المَقْعَد الأمامي، بينما جلس هو في مَقْعَد السائق. دخل صبحي إلى السيَّارة، وغطس في مَقْعَده.

تردَّدت في ذهن صبحي كلمات جَدِّه علي: «اقعدْ ساكتْ لمَّا تكون مع اللِّي أكبر مِنَّك».

وجوده الآن بصحبة رجل أكبر سنَّاً، والأهمُّ من ذلك رجل ثري، جعل صبحي يقبع ساهياً وهو ينظر عبر نافذة السيَّارة، وظلَّ صامتاً معظم الطريق إلى البيَّارَة.

بحكم عمله، اعتاد صبحي أن يرافق الزبائن إلى بيوتهم ومكاتبهم

وبَيَّارَاتهم في مختلف مناطق المدينة، إلَّا أنها كانت المرَّة الأولى التي يرافق فيها شخصاً هامَّاً بهذا القَدْر، رجلاً سياسياً، وعضواً في المجلس البلدي، ورئيس الغرفة التجارية في يافا. باختصار، كان بصحبة رجل بالغ النفوذ. بالنظر إلى ثراء الخواجا ميخائيل، فكَّر صبحي بالأجر الذي سيتقاضاه منه المعلِّم مصطفى في حال نجح هو في إصلاح نظام الريّ في بَيَّارَته. ومع أنه مجرَّد أجير، إلَّا أنه كان يعرف أن المعلِّم مصطفى يتقاضى أجراً مختلفاً لقاء العمل ذاته، بناء على مظهر زبائنه ومكانتهم، والمنطقة التي يعيشون أو يعملون فيها.

في نظر صبحي، وكذلك المعلِّم مصطفى، كانت المدينة مقسَّمة جغرافياً واجتماعياً إلى ثلاث مناطق، وكذلك كانت أجور العمل التي يتقاضيانها. الأجر الأعلى كان المعلِّم مصطفى يتقاضاه من قاطني الأجزاء الأكثر ثراء في المدينة، والواقعة إلى الجنوب من برج الساعة، وإلى الجنوب الشرقي منه ، أحد الأبراج التي بناها السلطان عبد الحميد الثاني في عدَّة مُدُن، مثل يافا وعكَّا ونابلس وبيروت ودمشق. من بين هذه المناطق الثريَّة حَيّ العجمي، الذي أُقيمت فيه أفخر الفيلَّات ومعظم المدارس التبشيرية والكنائس، إضافة إلى المستشفيات الفرنسية والحكومية. كذلك كان الحال بالنسبة إلى الأسعار التي يتقاضاها المعلِّم مصطفى من سكَّان حيّ الجبليّة، حيث توجد فيلَّا الخواجا ميخائيل، بين فيلَّات أخرى فخمة وحدائق غنَّاء، وحيّ النزهة، الحيّ الأكثر حداثة بفيلَّاته الفاخرة وبناياته السكنية القائمة على طول شارع الملك جورج، المعروف أيضاً بشارع جمال باشا. أمَّا أرخص الأسعار، فكان يتقاضاها من سكَّان البلدة القديمة التي تسكنها عائلات يافا الأكثر فقراً، كأقارب صبحي، ومن بينهم فريدة، جَدَّته لأُمِّه، وكذلك من سكَّان أحياء الضواحي الشعبية، مثل سكْنة أبو كبير والبصَّة في الشَّمال، وسكْنة درويش وتلّ الريش في

الجنوب. معظم المناطق النائية، إن لم تكن كلّها، كانت على حدود المستوطنات والمُدُن اليهودية، مثل مدينة تلّ أبيب في الشَّمال، وحولون وبيت يام في الجنوب. أمَّا على أطراف المدينة، فقد سكن العمَّال والمهاجرون الذين قدموا للعمل في ميناء المدينة، الذي زاد نشاطه بسبب الازدهار الاقتصادي النسبي في أثناء الانتداب البريطاني بعد الكساد الكبير في العام 1929. وقبل الحرب العالمية الثانية تحديداً تدفَّق الكثير من العمَّال إلى يافا، معظمهم من القرى الفلسطينية، وآخرون من الدول والمُدُن المجاورة، مثل مصر والأردن واليمن ومنطقة حوران ومدينة حماة في سورية. عمل معظم المهاجرين كعمَّال مياومين؛ إمَّا في صناعة البرتقال (من زراعة وقطاف ومراقبة وتغليف وتعبئة ونقل وتصدير)، أو في الاستيراد والتصدير في ميناء المدينة، كما عملوا، أيضاً، في قطاع البناء والإنشاءات المتنامي، وفي الصناعات الخفيفة، وفي مهن صغيرة أخرى. أمَّا الأجور المتوسِّطة، فكانت من نصيب السكَّان وأصحاب المشاريع في حيِّ الرشيديَّة وحيِّ المنشيَّة، حيث تعيش أسرة صبحي، والذي يُعدُّ أكبر أحياء المدينة، إذ يمتدُّ من دوَّار الساعة في وسط المدينة إلى تلِّ أبيب في الشَّمال.

ما إن اقتربت السيَّارة من ميناء المدينة، حتَّى تبادر إلى ذهن صبحي أنه المكان الوحيد الذي تقاضى منه المعلِّم مصطفى أجرَيْن مختلفَيْن، فبينما تقاضى من التجَّار ومصدِّري البرتقال أعلاها، تقاضى من صيَّادي السمك أدناها على الإطلاق، وكانت هذه لفتة تقدير لصبحي، لأن معظم، إن لم يكن الصيَّادون جميعهم في الميناء، هم أصدقاء أو معارف لجَدِّه علي أو عمِّه حبيب.

قطع الخواجا ميخائيل على صبحي حبل أفكاره حول الأجور المتفاوتة عندما بدأ يحدِّثه:

«شو اسمك، يا ابني؟».

«اسمي صبحي إسماعيل حلاوة»، مُعطياً اسمه الكامل على أمل أن يتعرَّف الخواجا ميخايل على اسم والده، ولكنه لم يفعل.

«وكم عُمُركَ؟».

«رح أصير ستطعش في شهر عشرة الجاي». ومع أنه في الخامسة عشرة فقط، إلَّا انه كان يحبُّ أن يتظاهر بأنه أكبر بعام أو عامَيْن.

«مع إِنَّك صغير، لكنْ، يبدو إنُّه في إجماع على إِنَّك أشطر ميكانيكي في يافا!».

«هاد إزا الله وفَّقني، يا خواجا، خلِّينا نستنَّى ونشوف، بكون أشطر ميكانيكي بس إزا قدرت أفهم المشكلة في نظام الريّ عندك، والأهمّ من هيك إزا نجحت في إني أحلّها».

كان صبحي ما يزال متهيِّباً من المهمَّة الصعبة التي تنتظره.

«بتمنَّى تقدر، لإنُّه لَهَلَّأ ما حدا قِدِر يفهم ليش المَي نشفت بدري هيك».

«إن شاء الله، يا خواجا، إذا الله راد، بتأمَّل إني أقدر أصلِّحلك إيَّاه»، أجاب صبحي وقد أصبح أكثر توتُّراً.

«وأنا بوعدك إني أشتريلك أحلى بدلة إنگليزية في البلد، إذا شفت المَي بتدشع في الماسورة الرئيسية كمان مرَّة».

شهق صبحي، واتَّسعت عيناه: «بدلة إنگليزية!»، وأخذ نَفَساً عميقاً، ثمَّ قال: «إنت قلت بدلة إنگليزية، يا خواجا ميخائيل؟».

«نعم، صحيح، بدلة صوف من مانشيستر، بيفصلّك ياها أحسن خيَّاط في البلد، بتختاره إنت بنفسك».

«فكَّرتك قلت بدلة إنكليزية!».

مدرِكاً أن صبحي قد يكون ميكانيكياً عبقرياً، ولكنه ليس بالضرورة مُلمّاً بالجغرافيا، سارع ليُطمئِنَهُ قائلاً: «نعم، نعم، بدلة إنكليزية. مانشيستر هي المدينة اللِّي بتنصنع فيها أفضل الأقمشة الإنكليزية».

حدَّق في بدلة الخواجا ميخائيل المصنوعة من الكتَّان الثمين، ولم يستطع أن يمنع نفسه من طرح سؤال آخر: «تآخذنيش، يا خواجا ميخائيل، بس قدِّيش بتكلِّف بدلة إنكليزية أنيقة متل هاي؟».

«من سبعة إلى ثمان جنيهات، يعني إشي بهالحدود».

ابتلع صبحي ريقه، فهذا المبلغ أكثر من الراتب الشهري لمدير مدرسة، وأكثر بكثير ممَّا يستطيع أن يوفِّره في عام، وهذا لا يعني طبعاً أنه يستطيع أن يوفِّر قرشاً واحداً من الثلاثين قرشاً التي يحصِّلها يومياً.

بهذه الأخبار المفرحة بدأت مخيِّلة صبحي وحساباته بالعمل على الفور: رأى نفسه عريساً أنيقاً، يقف بقامة منتصبة إلى جانب محبوبته شمس، نور حياته، الفتاة الأجمل في هذا العالم، هو ببدلته ذات الثمانية جنيهات، وهي بثوب الزفاف الأبيض، كالأمير والأميرة في صفحة كان قد انتزعها من مجلَّة، وجدها في المكتبة الإسلامية التي كثيراً ما كان يرتادها، ولهذا تجنَّب ولعدة أيَّام الذهاب إلى تلك المكتبة خوفاً من أن يُعاقَب على تمزيق تلك الصفحة، المعلَّقة الآن على جدار الكراج الرمادي فوق صندوق عدَّته: هَوَسٌ معلَّق فوق هَوَسٍ آخر.

يقف العريس والعروس بين جمهور مُحتفل، بينما يتباهى أهل

العريس (أُمِّه وأبوه، إخوته وأخواته وأبناء عمومته وأطفالهم جميعهم، جدوده لأُمِّه وأبيه، وأفراد أسرته الممتدَّة، وضيوفهم) بالغناء والرقص أمام أهل العروس. يستطيع المرء أن يميِّز بسهولة بين لباس أهل يافا المدني واللباس الفلّاحي لأهالي قرية سَلَمِة المجاورة. ومع أن سَلَمِة لا تبعد إلَّا بضعة كيلومترات إلى الشرق من يافا، إلَّا أن أثواب نساء عائلة شمس وضيوفهم، عائلة أبو سعد، تختلف كثيراً عن ملابس أهل يافا المدينيَّة. في هذه اللحظة فكَّر صبحي في رفض أسرته المتوقَّع لزواجه من فتاة قروية، خصوصاً وأن شمس هي ابنة أحد العاملين لدى والده. الأمر الوحيد المطمئن كان كلمات المديح التي اعتاد والده أن يُغدقها على والد شمس كلَّما ورد ذِكْره: «لو كان عندي أكمِّن عامل شغِّيل وعنده ضمير متل خليل، لكنت صاحب بَيَّارتين، أو حتَّى تلات بَيَّارَات». بفضل مثابرة خليل وإخلاصه في عمله، أصبح إسماعيل مشرفاً على بَيَّارَة ضخمة، كما توفَّرت لديه الإمكانيات لشراء البرتقال من بَيَّارَات أخرى. بكلمات أخرى، كان إسماعيل في طريقه إلى أن يصبح تاجر برتقال متواضعاً، إضافة إلى كونه مزارع برتقال.

الآن، وقد وعد الخواجا ميخائيل صبحي ببدلة الزفاف، شريطة أن ينجح في إصلاح نظام الريِّ لديه، فقد بدأ يفكِّر، وللمرَّة الأولى، بالحاجة لأن يبوح لوالده بسرِّ حبِّه لشمس. توقَّع أن يحتاج الأمر إلى أسبوع أو اثنَيْن لإقناع والده وكبار العائلة بنواياه. وربمَّا تطلَّب الأمر شهراً كاملاً لعمل الترتيبات اللا زمة لذهاب كبار رجال عائلته في جاهة لطلب يدها رسمياً. سيكون من الضروري أيضاً أن يتَّفقوا على تفاصيل المهر، ولكن ذلك لن يكون عائقاً، حيث إن مهور بنات القرى أقلُّ بكثير من مهور بنات يافا.

وحتَّى لا يُقلِّل من نشوة البدلة الإنكليزية الموعودة بالتفكير في اعتراضات أسرته على الزواج من شمس، أو حتَّى التفكير بالقلاقل

السياسية في فلسطين، والمناوشات المتكرِّرة بين يافا وتلِّ أبيب التي ازدادت في الأشهر الأخيرة، بدأ صبحي في حساب تكاليف الزفاف: «هَلَّأ، بعد ما أمَّنت البدلة الإنكليزية، يا ترى قدِّيش لازم أشتغل عشان أوفِّر مصاريف العرس، فستان شمس، والمصاغ، والعُقد الدّهب، والمهر؟ وشو بدِّي أعمل لو أبوي وإخوتي ما رضيوش يدفعوا حصِّتهم من المصاريف عشان يضغطوا عليّ إني ما أتجوز شمس؟». تخيَّلهم يقولون له: «من بين كلّ بنات يافا، وكلّ بنات أعمامك، ما عرفت تختار إلَّا وحدة غريبة وفلَّاحة وصغيرة؟ قدِّيش عمرها؟ طنعش؟ تلاطعش؟ بَطِّل حكي فاضي، أصلاً إنت نفسك صغير كتير على الجيزة!». أخذت أنواع الحجج كلُّها تتزاحم في رأس صبحي.

تنهَّد: «آخ بس لو ياخدوا عيوني ويشوفوا شمسي فيهم!».

وماذا لو تبيَّن أن ثمن فستان شمس كان باهظاً مثل ثمن بدلته الإنگليزية؟ في هذه الحالة لن يمانع في أن يكون الفستان أبسط من فستان الأميرة في المجلَّة. لو تُرك الأمر له، لاختار أن ترتدي شمس الفستان الأبيض والبرتقالي الذي رآها فيه في أوَّل لقاء لهما في موسم النبي روبين. كانت تدور وتدور وتضحك وتتطاير مثل فراشة وهي تلعب مع أخواتها وصديقاتها. رأس صبحي أيضاً كان يدور في كلِّ مرَّة يتذكَّر فيها رؤيته لها لأوَّل مرَّة.

بعد التفكير في المدَّخرات التي سيوفِّرها من يوميَّته، توصَّل إلى الاستنتاج الحزين: أنه هو وبدلته الإنگليزية عليهما الانتظار لوقت طويل. وحتَّى لا يُقلِّل من سعادة هذه اللحظة، فكّر: «مثل الخواجا ميخائيل، لازم أشتغل خطوة بخطوة، أنا كمان رجل عصامي!».

3
بَيَّارَات يافا

ازداد قلق صبحي عندما أعلن الخواجا ميخائيل عن وصولهما. أوقف سيَّارته منتظراً أن تفتح البوَّابة المؤدِّية إلى بَيَّارَته. ثلاثة عمَّال جاؤوا مسرعين، اثنان منهم قاما بفتح البوَّابة الحديدية الضخمة، في حين أشار لهما الثالث بالدخول.

«يَلاَّ، يا صبحي، ورجينا قدِّيش إنت ميكانيكي شاطر، هات عِدِّتَك من صندوق السيَّارة، والحقني».

في الوقت الذي خرج فيه صبحي من مَقْعَدِهِ متَّجهاً صوب مؤخِّرة السيَّارة ظهر من الأبواب الثلاثة للمصنع المَبنيِّ من الحجر الرملي، والقائم عند مدخل البَيَّارَة، عدد آخر من العمَّال. وبمجرَّد أن رأوا الخواجا ميخائيل انطلقوا باتِّجاهه مسرعين لتحيَّته، والاستفسار منه عمَّا إذا كانت الدعوة العامَّة للإضراب تشمل مزارعي الحمضيات أم لا.

كان صبحي قد سمع من والده عن الشائعات حول اتِّفاقية ضمنية، اتُّفق على تسميتها بـ «اتِّفاقية الحمضيات»، تدعو العرب واليهود على السواء إلى الامتناع عن القيام بأيَّة أعمال تخريبية ضدَّ بَيَّارَات بعضهم بعضاً. وبينما كان بانتظار أن يرافقه أحد رجال الخواجا ميخائيل إلى البئر، سمع أحد المشرفين يبلغ الخواجا عن قيام اثنَيْن من عمَّاله بتوزيع منشورات، تحرِّض ضدَّ الاتِّفاقية. ولحرصه الشديد على ألَّا تفوته فرصة الحصول على بدلته الإنكليزية، تنحَّى جانباً وكأنما يقول «دعونا ننهي

عملنا قبل أن يبدأ إضراب آخر». ومن البقعة المرتفعة، حيث كان ينتظر، رأى منظراً بانورامياً رائعاً لمدينة يافا، لم يكن قد رآه من قبل.

«يا إلهي، شو هالروعة!»، تمتم صبحي لنفسه، إذ كانت هذه المرَّة الأولى التي يرى فيها مدينته من جهة الشرق، حيث توجد معظم البيَّارات. امتدَّ أمام ناظريه بحر أخضر، عوضاً عن المتوسِّط الأزرق الذي اعتاد رؤيته، وقد طرَّزت حبَّات البرتقال السجَّادة الخضراء الممتدَّة أميالاً أمام عينَيْه، وفي بعض الأماكن، قُسِّمت أشجار النخيل الباسقة وأشجار السرو المخروطية الشكل والداكنة الخضرة المشهد، وشكَّلت له إطاراً، مُبرزِة جماله الأخَّاذ.

ورَغْم معرفته الجيدة ببيَّارَة والده، وبيَّارَات كثيرة أخرى، إلَّا أنه لم يرَ ما يضاهي هذه البيَّارَة في حجمها، ولا في دقَّة تنظيمها. كان التقليم الدقيق لكلِّ واحدة من الأشجار مدهشاً، وأكثر ما أثار إعجابه هو ضخامة نظام الريّ وتعقيده، والصيانة المُتقَنَة للقنوات الخالية من الماء التي رآها أمام عينَيه.

لا بدَّ أنهم جاؤوا بمهندسين زراعيِّيْن مختصِّين لتصميم هذه الشبكة المعقَّدة من قنوات الريِّ الجافَّة، والتي يأمل أن يعيد تدفُّق الماء فيها قريباً، بالإضافة إلى مهندسين معماريِّيْن بارعين لبناء قصر الخواجا ميخائيل، وبيوت العمَّال، والمصنع القائم عند مدخل البيَّارَة.

مُستعيداً حواره مع والده، فهم صبحي الآن فقط لماذا يفضِّل أبوه أن يكون بَيَّاراً يعمل في مثل هذا النعيم، بدل أن يعمل صيَّاد سمك وسط بحر هائج. كان والده مُحقّاً عندما اختار عبير أزهار البرتقال على رائحة البحر اللاذعة. لطالما اعتقد صبحي أنه يحبُّ رائحة البحر، إلى أن امتلأت رئتاه بعطر زهر البرتقال.

في مخيِّلته، قارن صبحي منظر مدينته من البحر بمنظرها من البَيَّارَة: لا عجب بأن لدى تجَّار البرتقال وصيَّادي السمك وجهات نظر مختلفة حول الحياة والسياسة، وأنهم لم يتَّفقوا أبداً، وكأنهم يعيشون في كوكبَيْن مختلفَيْن، ففي حين يقضي الصيَّادون ليلهم في تحصيل قُوْتِهِم من البحر، يقضي تجَّار البرتقال نهارهم في تحصيل قُوْتهم من الأرض. كبُر صبحي وهو يستمع إلى الجدل الدائم بين والده وجَدِّه. فبينما ازدهرت صناعة البرتقال في يافا، هجر المزيد من الصيَّادين البحر مُفضِّلين الأرض. كذلك كان الحال بالنسبة إلى إدارة ميناء يافا، فبينما كان الصيَّادون سادة الميناء لقرون طويلة، أصبح تجَّار البرتقال اليوم ملوكاً له. وعلى الرَّغْم من وضوح هذه الفروقات التي استجدَّت في السنوات الأخيرة، إلَّا أن صبحي، الذي يقضي معظم وقته يصلح المحرِّكات في عَتَمَة كراجه، لم يفكِّر بهذا التناقض من قبل.

اعتاد صبحي، عندما كان يرافق جَدُّه إلى البحر، أن يرى مدينته من الغرب ناظراً باتِّجاه الشرق. الصورة المنطبعة في ذهنه حتَّى الآن كانت صورة البَحَّارة وصيَّادي السمك في عرض البحر، والسفن من مختلف الأحجام: سفناً كبيرة، تخشى الميناء الصخري، فتقف بعيداً بانتظار جوارم صغيرة تتنقَّل جيئة وذهاباً محمَّلة بالبضائع وصناديق البرتقال الخشبية من مستودعات الميناء وإليها. من قارب جَدِّه الصغير كان يرى التلَّة التي تقوم عليها البلدة القديمة، حيث تعيش جَدَّته فريدة، وكذلك القلعة الصليبية التي كانت، بحسب أُستاذه، مقرّ الحاكم أبو نَبُّوت، والملقَّب بأبي يافا الحديثة. وعلى التلَّة أيضاً كان يرى دَيْر الأرمن ودَيْر اليونان، حيث يقيم الحُجَّاج المسيحيُّون الآتون من البحر في طريقهم إلى القدس. ومن البحر أيضاً كان يشاهد البرج المربَّع لكنيسة القدِّيس بطرس، القائمة على رأس التلِّ، ومسجد البحر الصغير المجاور لبيت

جَدَّتِه، والمنارة الحمراء، وأجزاء من مسجد المحمودي، حيث توجد إحدى أفضل المكتبات العامَّة، التي كان كثيراً ما يستعير منها الكُتُب، أو ينتزع صفحات من مجلَّاتها. ومن البحر أيضاً، كان يرى ميناء تلِّ أبيب الحديث، والسفن الكبيرة التي يُهرَّب على متنها المهاجرون اليهود إلى داخل فلسطين، وهو ما كانت تُنكره السلطات البريطانية على الدوام.

لم يكن من السهل على صبحي أن يتعرَّف على معظم البنايات عن ذلك البُعد، ومن جهة الشرق. معتمداً على ذاكرته، خمَّن أن المنطقة البعيدة الواقعة إلى أقصى اليسار، والمحاذية لمدينة بيت يام اليهودية، هي حيّ الجبليَّة، وإلى الشَّمال منها حيّ العجمي الثري. أمَّا سلسلة البنايات الواقعة على طول شارع الملك جورج، فهي حيّ النزهة الأكثر حداثة، حيث توجد أرقى المقاهي وأغلاها، كمقهى فينيسيا، مقهى النخبة، الذي طالما شاهده صبحي عن بُعد دون أن يجرؤ على دخوله. شتَّان ما بين هذا المقهى وبين مقهى «التيوس» المتواضع الواقع في حيِّ المنشيَّة، الذي اعتاد صبحي أن يرتاده. تساءل إن كان سيمتلك الشجاعة للدخول يوماً ما إلى مقهى فينيسيا إذا حصل على بدلته الإنكليزية الموعودة؟ كان يضع في ذهنه قائمة بالأماكن الفاخرة جميعها التي يرغب بزيارتها، إذا حصل يوماً على تلك البدلة، ولكنْ، إلى أن يحدث ذلك، سيواصل جولته المُتخيَّلة في مدينته.

كان أوَّل ما ميَّزه برج الساعة العثماني القائم وسط ساحة الشهداء، المَعلَم الرئيس في المدينة، وحاول أن يخمِّن ما إذا كانت المئذنة إلى يسار برج الساعة هي مئذنة جامع البحر أم الجامع الكبير، عندما سمع اسمه:

«يَلَّا، يا صبحي، إن شاء الله نشوف الخير على وجهك»، قال الخواجا ميخائيل بتحبُّب، ثمَّ أمر أحد مساعديه بمرافقته.

«جبتلَّك أشطر ميكانيكي في يافا عشان يحلّ المشكلة. بأكِّدلَك، يا معلِّم مروان، إزا ما قدرش هاد الشّبّ يلاقي حلّ، رح نكون فعلاً في ورطة!». كان الخواجا ميخائيل يحاول أن يطمئن المعلِّم مروان، الذي بدا متشكِّكاً بقدرات هذا الميكانيكي لصغر سنِّه. ومع أن مديح الخواجا دغدغ مشاعر صبحي، إلَّا أنه أثقله بمسؤولية أكبر.

سأل المعلِّم مروان: «في هاي الحالة، أخلِّيه يفحص كلّ الآبار والبرك، ولَّا آخده مباشرة لخزَّان المَي الرئيسي؟».

«ليش تضييع الوقت؟ طبعاً خُده مباشرة للبير الشرقي الكبير، عند المضخَّة الرئيسية». استاء الخواجا من سؤال المعلِّم مروان. ربَّما كان هو السبب وراء عجزهم عن حلِّ المشكلة إلى الآن، ومع ذلك لم يقُل شيئاً.

سأل صبحي: «قدِّيش عمق الخزان الكبير؟»، آملاً أنه ليس عميقاً. فمع أنه نزل وصَعِدَ أنواع آبار المياه جميعها، إلَّا أنه كان يعاني من فوبيا الأماكن الضيِّقة في الآبار التي يزيد عمقها عن عشرة أمتار. ولأنه كان قد سمع العديد من القصص المأساوية عن الآبار العميقة، فقد كان دائماً يسأل عن شروط السلامة.

«ما تقلق، هاد البير عمقه مش أكتر من تمان أمتار».

«السلّم اللِّي في البير حديدي ثابت، ولَّا سلّم عادي؟».

«واضح إنك كتير غَلَبِة! آسف، قصدي أقول واضح إنَّك حريص جدَّاً. السلّم حطُّوه مهندسين ألمان، عشان هيك ما تخاف، يعني أكيد آمن، ومثبَّت منيح»، أجابه المعلِّم مروان.

«أنا بس بدِّي أتأكَّد إني رح أعيش حتَّى ألبس البدلة الإنگليزية في عرسي».

لم يكن لدى المعلِّم مروان أيَّة فكرة عمَّا يقوله صبحي، ولكنّ الخواجا ميخائيل قال وهو يبتسم: «إن شاء الله خير، يا ابني!».

«إذاً، يَلَّا، خلِّينا نروح نشوف الوضع».

فقط عندما مشى صبحي بين صفوف أشجار البرتقال المنتظمة الطويلة التي كانت تمتدُّ بلا نهاية، أدرك معنى أن يكون المرء خواجا. كذلك أدرك لماذا كان تجَّار البرتقال الكبار، مثل الخواجا ميخائيل، مؤيِّدين لاتِّفاقية الحمضيات، فحتَّى هو نفسه لا يريد أن يرى هذه الجنَّة محترقة أو مدمَّرة. بدأ يدرك أيضاً لماذا كان الخواجا ميخائيل ضدَّ الدعوة إلى الإضراب المفتوح الذي سيتسبَّب بخسائر كبيرة لتجارة البرتقال. في هذه اللحظة بالذات رنَّت في أُذُنَيْه كلمات والده: «برتقان يافا دهب، دهب صافي!».

4
البدلة: أن تكون أو لا تكون

مثل جرَّاح بارع، وقبل أن يختفي في عَتَمَة البئر، دار صبحي حول نظام الريِّ، وتفقَّد أجزاءه جميعها: فحص الأنبوب الرئيس، ليتأكَّد من عدم وجود أيِّ انسداد فيه، ثمَّ وضع ذراعَيْه القويَّتَيْن على الدولاب الفولاذي، ودفعه، فدار كما هو متوقَّع. تفحَّص كذلك الحبل والفلكة: لا يبدو أن فيهما أيّ خلل. بعد أن اطمأنَّ إلى سلامة هذه الأجزاء، أصبح من الضروري أن يغامر بالدخول إلى أعماق البئر، لفحص الأنابيب الصاعدة والبكرات في القاع.

بيدَيْن وقدمَيْن ثابتتَيْن، نزل صبحي، ابن الخمسة عشر عاماً، درجات السلّم المعدني ببطء، حتَّى تعتاد عيناه على عَتَمَة البئر. ورَغْم نحوله وخفَّته، إلَّا أنه أخذ الحيطة، ولم يُسرع. حين أصبح في عمق البئر أشعل مصباحه اليدوي، ليتفحَّص المكان، ولدهشته وحسن حظِّه، رأى انعكاس صورته وضوء مصباحه اليدوي على سطح الماء في الأسفل. شعر بالارتياح لأن الماء لم يجفّ، كما افترض الخواجا ميخائيل، وحينها استنتج أن المشكلة ميكانيكية. الآن تمنَّى صبحي أن تكون المشكلة في الأنابيب الصاعدة فوق مستوى الماء، وليس في الرافعة المغمورة تحت الماء في قاع البئر.

بسرعة وخفَّة أخذ ينزل ويصعد السلَّم، ليفحص الأنبوب الصاعد، ويتأكَّد من أن المشكلة كانت تكمن فعلاً في غلاف الأنبوب. لم يستطع أن يتمالك نفسه، فقهقه وصرخ بنشوة: «آااه، يا شمس، حضري حالك، هيني جايكي ومعي بدلتي الإنگليزية!».

«شو مالك؟ في إشي؟ صارلك إشي؟»، سأل المعلِّم مروان، الذي كان ينتظر صبحي عند باب البئر.

«لأ لأ، ما في شي، بس أظنّ إني عرفت وين المشكلة».

«عن جَد! خبِّرني شو المشكلة»، علَّق المعلِّم مروان دون أن يُخفي دهشته.

«بعدين، بعدين بشرحلك»، أجاب صبحي بثقة المحترف.

وبمجرَّد أن بدأ بصعود السلّم باتِّجاه ضوء النهار، سيطرت البدلة ولونها على تفكيره: «هل من الأجمل أن تكون رمادية أم زرقاء؟ داكنة أم فاتحة؟ هل أتزوَّج في الشتاء، لأن البدلة صوف إنگليزي أم في الصيف كما يفعل معظم الناس؟».

وما إن خرج من البئر حتَّى جاء الخواجا ميخائيل مسرعاً ليسمع الأخبار السعيدة.

«الخبر الحلو إنه المَيّ ما نشفت، البير مليان لأكتر من نصُّه».

«أخبار عظيمة، رَيَّحتْنِي. قدِّيش كنت خايف إنه مشكلة المَيّ والريّ تخسِّرنا محصول السنة كلّه».

«لا سمح الله»، قال صبحي، ثمَّ أضاف: «المشكلة في غلاف الأنبوب الرئيسي، مصدِّي ومهري. عشان هيك لازم أرجع على الورشة، وأعمل قطع جديدة بدل المصدية، لإنها في حالتها هاي بتخلِّي الهوا يدخل للأنبوب، وبتمنع المَي ترتفع وتطلع من المواسير».

«معنى هيك إنَّك رح تقدر تصلِّحها، يا صبحي؟».

«بعون الله، بِقْدِر، يا خواجا».

«رجاء، يا معلِّم مروان، خد صبحي بسيَّارتك لورشة المعلِّم مصطفى، واستنَّى معه لحدِّ ما يصلح القطع الضرورية أو يشتري غيرها. خلِّيك معه حتَّى لو أخد اليوم بطوله».

«حاضر، أكيد، يا خواجا».

ولإدراكه لحجم قلق الخواجا وكلّ مَنْ حوله من عدم تمكُّنهم من ريِّ أشجار البرتقال لأكثر من أسبوعَيْن في هذا الوقت الحرج من العام، كان المعلِّم مروان على استعداد لأن يبقى مع صبحي مهما طال الوقت إلى أن يعود بالأجزاء الجديدة.

وللاستفادة من كلِّ لحظة، توجَّها مُسرعَيْن إلى سيَّارة المعلِّم مروان المتواضعة، وانطلقا على طريق الملك فيصل، الذي بَنَتْهُ حكومة الانتداب البريطاني لتسهيل حركة النقل بين بَيَّارَات البرتقال إلى الشرق من يافا والميناء. سارا على طول طريق القدس، إلى أن وصلا شوارع حيِّ المنشيَّة الضيِّقة.

بفخر واعتزاز بقدراته، شرح صبحي لمعلِّمه تشخيصه للمشكلة، وبإيمان قاطع بقدرات صبيِّه الميكانيكي، سارع المعلِّم مصطفى إلى مساعدته لإنجاز عمله على أكمل وجه، وهكذا كانت القِطَع الجديدة اللازمة جاهزة خلال ساعتَيْن.

بالعودة إلى بَيَّارَة الخواجا ميخائيل، وإلى عَتَمَة البئر، تمكَّن صبحي من استبدال الأجزاء الصدئة والمهترئة أجزاء جديدة، بإشراف الخواجا ومساعدة المعلِّم مروان وعامل آخر. وبعد أن ركَّب كلَّ شيء في مكانه، صَعدَ من عَتَمَة البئر إلى ضوء النهار في الأعلى، وهو يحسُّ بخفَّة وكأنما يحلِّق في السماء السابعة. وما إن أصبح فوق الأرض حتَّى انتشر الخبر

السعيد في أنحاء البَيَّارَة كلِّها، والتفَّ عشرات العمَّال حول الخواجا ميخائيل وصبحي. بدا الجوُّ الاحتفالي مثل حفلة تدشين، كان صبحي فيه ضيف شرف على وشك أن يقصَّ الشريط الأحمر، وكان على قَدْر المناسبة، وبطريقة دراماتيكيَّة، مَدَّ ذراعه، وشغَّل مضخَّة الماء. وبعد عدَّة حشرجات، وبضع اهتزازات قوية، تدفَّق الماء في الأنابيب. «هيي هيييبي، مبروك!»، صاح العمَّال، وصفَّقوا وهم يهنِّئون الخواجا ميخائيل وأنفسهم على عودة الماء.

الآن، وبعد الاحتفال بعودة المياه إلى مجاريها، بقي بعض العمَّال حول الخواجا ميخائيل وصبحي، في حين عاد الآخرون إلى أعمالهم، خصوصاً «السقَّاية»، وهم العمَّال الذين كانت مهمَّتهم الرئيسة سقاية أشجار البرتقال، وهو ما لم يفعلوه خلال أسبوعَيْن كاملَيْن. تذكَّر صبحي خليل، والد شمس، عندما رأى السقَّاية يركضون في كلِّ اتِّجاه للقيام بعملهم.

عندما خلا المكان من العمَّال، وانفرد صبحي بالخواجا ميخائيل والمعلِّم مروان، تأمَّل أن تكون هذه لحظة تعبير الخواجا ميخايل عن امتنانه بذِكْر الشيء الوحيد الذي يشغل باله، ولكن الخواجا اكتفى بالقول:

«بالفعل، يا صبحي، إنت بتستاهل شهرتك، اليوم أثبتت إِنَّك أشطر ميكانيكي في يافا».

«شكراً، يا خواجا».

«قول للمعلِّم مصطفى إِنِّي رح أمرّ عليه في الورشة بُكرا عشان أدفع الحساب».

«حاضر، يا خواجا، رح أحكيله».

«خد هذا البقشيش إلك، وما تخبِّر معلِّمك عنه»، قال الخواجا وهو

يناوله خمسين قرشاً. ومع أن هذا المبلغ أكثر من يوميَّته، إلَّا أنه أخذه وهو خائب الأمل. كان يرغب في أن يستفسر عن البدلة الموعودة، ولكنه شعر بالخجل.

«شكراً، يا خواجا»، أجابه صبحي، ثمَّ انحنى، وحمل صندوق العدَّة، ومشى إلى جانبه باتِّجاه البوَّابة الرئيسة.

«يا معلِّم مروان، تعال وَصِّلْ صبحي بالسيَّارة».

«حاضر، يا خواجا»، أجاب المعلِّم مروان، وأخرج من جيبه مفاتيح السيَّارة.

«طيِّب والبدلة؟»، ظلَّ صبحي يكرِّر لنفسه، ولكنه تردَّد في تذكير الخواجا ميخائيل بها.

بقلب مُثقَل، مشى بجوار القنوات التي أصبحت الآن ممتلئة بالماء المتدفِّق في طريقه لينعش أشجار البرتقال، كما أنعش صاحبها. لوَهْلَة غمرتْهُ السعادة عندما سمع الخواجا ميخائيل يقول: «يا إلهي، كيف نسيت؟»، معتقداً أنه تذكَّر وعده دون أن يضطرَّ صبحي لإحراج نفسه. لكن إحساسه بخيبة الأمل تضاعف عندما أكمل الخواجا قائلاً: «نسيت تماماً إنه عندي اجتماع في غرفة التجارة، عشان هيك رح أوصلك بنفسي، إزا مش للمنشيَّة، على الأقلّ بنزلك قريب، وإنت بتكمل الطريق مشي للورشة».

«طيِّب، شو بالنسبة إلى البدلة؟»، كان هذا كلّ ما فكَّر فيه صبحي.

ظلَّ صامتاً معظم الطريق، على أمل أن يتذكَّر الخواجا ميخائيل بدلته، كما تذكَّر اجتماعه في غرفة التجارة. منعه كبرياؤه عن السؤال، وعزَّى نفسه بنفسه: «صحيح إِنِّي ميكانيكي شاطر، بس أكيد مش شحَّاد».

جلس بهدوء في المَقْعَد الأمامي، وعلى الرَّغْم من خيبة أمله، استمتع بالرحلة في الشوارع الترابية وسط أكبر البَيَّارات في يافا. كان سعيداً بالتعرُّف على أسماء أغنى تجَّار البرتقال الذين كان يذكرهم الخواجا ميخائيل: «هاي بَيَّارَة الإخوة أبو الجبين، وهاي بَيَّارَة عبد الغني النابلسي، أكبر بَيَّارَة في المدينة، مساحتها عشر آلاف دونم». لم يستطع صبحي أن يتخيَّل بَيَّارَة أكبر من بَيَّارَة الخواجا ميخائيل. «وهاي البَيَّارَة ملك لعائلة أبو لبن، وهاي لعائلة أحمد المهتدي من قرية سَلَمِة». قفز قلب صبحي في صدره عندما سمع اسم قرية شمس على لسان الخواجا ميخائيل. فمجرَّد ذِكْر اسم سَلَمِة عنى أنها ليست قرية نكرة.

«إيش قُلت، يا خواجا؟ سَلَمِة؟»، أراد صبحي أن يسمع الاسم مرَّة تلو الأخرى.

«صحيح، قرية سَلَمِة بعد هاد المفرق».

«بعد المفرق؟ أي مفرق؟»، سأل صبحي مع أنه كان يعرف تماماً أين تقع سَلَمِة، قرية معبودته شمس.

«قصدت إنه بَيَّارَات سَلَمِة جنب بَيَّارَات يافا. أكتر العمَّال في بَيَّارتي من أهل سَلَمِة».

أحسَّ صبحي بنبض قلبه يتسارع لذِكْر قرية حبيبته، وشعر أنها أقرب ممَّا يتخيَّل، ولكنه عاد من جديد ليفكِّر بالشيء الوحيد الذي كان يحاول أن ينساه. وعندما وصلا إلى مفرق طريق القدس، استدار الخواجا بالسيَّارة يساراً، بينما أشار بيده في الاتِّجاه المعاكس، قائلاً: «إذا رُحت لليمين بتلاقي حالك في سَلَمِة». كم تمنَّى صبحي لو أنهما يستديران يميناً، وليس يساراً. هذا هو الطريق الذي تمنَّى أن يسلكه،

ولكنْ، فقط إذا تذكَّر الخواجا ميخائيل وعده، أو إذا استجمع هو شجاعته ليذكِّره به.

شيء ما في نبع أبو نَبُّوت ذي القُبَّتَيْن الذي مرُّوا به ذكَّره بجَدَّته فريدة ونظريَّتها في التخاطر: «إذا ركَّزت تفكيرك على إشي أو حدا، فهاد الإشي أو هاد الحدا بالآخر رح يقرا أفكارك، وييجيك، بس لازم تركِّزْ، تركِّزْ منيح»، وهذا ما فعله صبحي طوال بقيَّة الطريق. لانشغاله ببدلته الموعودة، لم ينتبه إلى أن سيَّارة الخواجا ميخائيل كانت قد علقت في أزمة مرور بسبب مظاهرة أخرى ضدَّ السياسة البريطانية. سمع هتافات المتظاهرين، ومن بعيد استطاع أن يقرأ بعض اليافطات الضخمة التي كانوا يحملونها.

«أوقفوا هجرة اليهود إلى فلسطين العربية الآن».

«لا للتقسيم».

«امنحوهم وطناً قومياً في بريطانيا العظمى، وليس في فلسطين الصغرى».

«لا، وألف لا، للاستيلاء على الأرض العربية».

«لا للصهيونية».

رَغْم كثرة اليافطات المرفوعة، إلَّا أن اليافطة الوحيدة التي لفتت انتباه الخواجا ميخائيل كانت «الإضراب المفتوح واجب وطني».

«الله يكون في عوننا، بتمنَّى ما ندخل في دوَّامة الإضراب المفتوح زي ما صار سنة 36»، تذمَّر الخواجا ميخائيل، بينما كان ينتظر أن يشير له الشرطي إلى طريق بديل، فيما كانت مجموعة من الجنود الإنگليز تفرِّق المتظاهرين بوحشية.

فوجئ صبحي من تعليق الخواجا ميخائيل على التظاهرة، وكذلك على إضراب 1936، خاصَّة وأنه كان يشارك في مظاهرات أيَّام الجُمُعة التي كانت تبدأ من جامع يافا الكبير، وتتجمَّع في ساحة برج الساعة، التي تُسمَّى أيضاً ساحة الشهداء. صحيح أنه كان في الثالثة من عُمُره فقط في أثناء ثورة 1936، ولكنه استمع إلى الكثير من قصص البطولات، من والده وجَدِّه، عن الثوَّار الذين تصدَّوا لوعد بلفور والسياسات البريطانية المنحازة للميليشيات الصهيونية، والتي درَّبْتهم، وسمحت لهم بتهريب اليهود والأسلحة إلى فلسطين.

روى له جَدُّه علي مراراً كيف فجَّر سلاح الهندسة المَلَكِيّ البريطاني بيته والعديد من البيوت الأخرى المجاورة: «مش عارف شو المَلَكِي فيهم؟ بتذكَّر هداك اليوم كأنه مبارح. كان يوم 29 حزيران 1936، ويومها رمت علينا طيَّارات القوَّات البريطانية من الجوّ مناشير بتعطينا مُهلة يوم واحد حتَّى نخلي بيوتنا. وقبل ما نعرف شو عم بصير، قامت علينا جهنَّم، ومتل النمل، ألوف مؤلَّفة، وبقول ألوف ومش مئات، من الجنود الإنكليز ملُّوا الشوارع والحارات في البلدة القديمة، وواحد ورا التاني كانت البيوت تنهال متل بيوت الكرتون. بدوا بتفجير البيوت من الشرق، وظلُّوا يفجروا بالديناميت لحد ما وصلوا البحر. عملوا طريق عريض في وسط المدينة. راحت القصبة، راحت البيوت القديمة، راح الجامع، راحت الدكاكين، راحوا الناس، وراح بيت جدّك. ووقتها جينا وسكنّا في المنشيّة».

أخذ جَدُّ صبحي نَفَساً عميقاً، ثمَّ أضاف: «رجعوا الجنود الإنكليز بعد كم يوم مرَّة تانية عشان يهدُّوا كمان منطقة من البلدة القديمة حتَّى يقدروا يسيطروا على مناطق تواجد المقاتلين الفلسطينيِّيْن. ومن هداك

الوقت انطفت البلدة القديمة في يافا، بس البِسَس والكلاب والناس الفقرا والمشكلجيّة ضلُّوا عايشين هناك، وحماتي فريدة طبعاً»، قال الجَدُّ ضاحكاً، ثمَّ أكمل: «سمّيناها مجزرة، لكن الإنگليز سمُّوها «عملية تجميل» وتحسين للبلدة القديمة. وحتَّى مهندس البلدية في حينها سمَّاها «مدينة رومانية» لإنه صار فيها شارعين متقاطعين، واحد سمُّوه دكيومانوس مكسيموس، والتاني كاردو مكسيموس، وما تسأل جدَّك الغلبان إيش بيطلعوا هدول المانوس والإيموس».

قطع صوت الخواجا ميخائيل حبل أفكار صبحي، وأعاده للحاضر: «صدِّقني، يا صبحي، لا الناس ولا الاقتصاد ممكن يتحمَّلوا ستّ أشهر تانية من الإضراب زي ما صار في ثورة 1936، اللِّي انتهت مع بداية الحرب العالمية التانية. الناس اللِّي بدعوا لإضراب مفتوح ما عندهم أيّ فكرة شو هاد بيعني للاقتصاد الفلسطيني، ولا شو بتعني خسارة محصول السنة من البرتقان».

إضراب أو غير إضراب، أرض الميعاد أو غيره، عاد صبحي للهلوسة حول بدلته الإنگليزية الموعودة.

فقط عندما أوقف الخواجا ميخائيل السيَّارة بجانب مبنى البلدية، وصافح صبحي، وشكره على خدماته، وذكَّره بأن يُبلِّغ المعلِّم مصطفى أنه سيمر عليه في الغد لتسوية الحساب، قرَّر صبحي أن يقول ما يجول في خاطره. فتح باب السيَّارة ببطء، وأخرج إحدى ساقَيْه ببطء أيضاً، ثمَّ أخيراً استجمع شجاعته: «وشو بالنسبة إلى البدلة الإنگليزية، يا خواجا؟»، قال ذلك وقد احمرَّ وجهه، وتعرَّق جسده من شدَّة الحرج.

«يا إلهي، طبعاً، البدلة»، قال الخواجا ميخائيل، ثمَّ أضاف: «اعذرني، يا ابني، أرجوك سامحني، نسيت أمر البدلة تماماً! ادخلْ للسيَّارة، ادخلْ».

كان ذلك من المواقف التي يسبق فيها الفعل الكلام. وكما يحدث في السينما في مشهد معكوس، رجعت ساق صبحي إلى السيَّارة، وأُغلق الباب، وانطلقت السيَّارة مسرعة من جديد.

«خَبِّرني، يا ابني، مين الخيَّاط اللِّي عنده قياساتك؟».

«قياساتي!»، احتار صبحي بماذا يجيب، لأنه لم يرغب بالاعتراف للخواجا بأن قياساته لا توجد عند أيِّ خيَّاط، لا في يافا، ولا في غيرها، لأنه لم يملك أبداً، ولم يحلم أبداً، بامتلاك بدلة قبل اليوم.

«ولا خيَّاط»، اعترف صبحي بعد أن استجمع نفسه، آملاً أن هذه الحقيقة قد تنتهي به عند خيَّاط الخواجا ميخائيل، الأمهر والأغنى في حيِّ العجمي أو حيِّ الجبليَّة.

«شو قصدك بولا خيَّاط؟».

أدرك صبحي أن الخواجا كان في عجلة من أمره للذهاب إلى اجتماع الغرفة التجارية التي كان يرأسها، لذلك لم يشأ أن يخاطر أكثر، وفجأة تذكَّر اسم خيَّاط في حَيِّهم.

«شو رأيك بالخيَّاط حسن أبو الجبين في شارع المنشيّة؟».

«ما كنتش أعرف إنُّه في خيَّاط من عائلة أبو الجبين، يا ترى بيقرب للأخوين أبو الجبين؟».

كان زهدي ومحمَّد أبو الجبين من بين أغنى تجَّار يافا، وتمنَّى صبحي ألَّا يكونا من الخصوم أو المنافسين للخواجا ميخائيل. ظلَّ صامتاً بينما يركِّز على الطريق، فقد كان يخشى أن يرتكب خطأً وهو يدلُّ الخواجا على المكان، ولكن لحسن حظّه، كانت المخيطة بيافطتها الحمراء الكبيرة التي كُتب عليها «مخيطة حسن أبو الجبين» أمامهم مباشرة.

5
يافا أُمُّ الغريب

«تفضَّلوا، تفضَّلوا»، رحَّب الخيَّاط حسن بودٍّ مبالغ فيه لحظة دخول صبحي والخواجا ميخائيل إلى مخيطته، كان هذا الترحيب بالزوَّار الغرباء هو ما أعطى يافا لقبها المُستَحَقّ «أُمّ الغريب»، ولعلَّ لُطف الخيَّاط الزائد يعود إلى الظهور غير المتوقَّع لرجل غني وأنيق في محلِّه المتواضع.

لا شكَّ أن لهجة حسن اليافاويَّة المُرحِّبة قد خفَّفت من التوتُّر في جسد صبحي وروحه.

«تحت أمرك، سيدي، كيف بقدر أساعدك؟»، سأل الخيَّاط حسن الخواجا ميخائيل.

«بدِّي ياك تفصِّل لهالشبّ أحسن بدلة مقابل خدماته العظيمة».

«بدلة إنكليزية»، قال صبحي مؤكِّداً على كلمة إنكليزية، ثمَّ أضاف: «قصدي أقول في عندك قماش إنكليزي؟». كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يجعل البدلة إنكليزية في نظر صبحي.

«عندي أحسن قماش صوف من مانشيستر»، أجاب حسن الخيَّاط، وهو يتساءل في نفسه عن طبيعة العلاقة بين الرجل الغني والعامل الشابّ ذي البُنية القويَّة. قطع الخيَّاط تخيُّلاته وعاد إلى موضوع البدلة: «تفرَّجْ وشوف، أيّ قطعة قماش بتفضِّل من بين هدول؟».

«بقدر أشوف هاي القماشة، لو سمحت؟».

«هاي؟».

«لا، لا، القماشة الجوخ اللِّي جنبها، اللِّي لونها رمادي غامق مخطَّطة بالأحمر».

«آه، يا جدع، مبيِّن عليك ذوقك رفيع!»، ولم يكن واضحاً ما إذا كان الخيَّاط حسن يشير إلى اختيار صبحي للخواجا ميخائيل أو لقطعة القماش الثمينة. شيء ما في كلام الخيَّاط أزعج صبحي، وأشعره بعدم الارتياح، وانتابه شعور بأنه كان يستخفُّ به أو يسخر منه.

باهتمام مبالغ فيه، سحب الخيَّاط عدداً من لفَّات أثواب القماش، ووضعها على الطاولة الخشبية، حيث كان يقف الخواجا ميخائيل وصبحي. وبلطف شديد وضع صبحي كفَّه الخشنة على الصوف الإنكليزي الناعم، وكأنه يتحسَّس محبوبته شمس في ليلة زفافهما.

«أعجبتك؟ هاي اللِّي بدَّك ياها؟»، سأل الخواجا ميخائيل مشيراً إلى أنه على عجلة من أمره.

«أيوه، يا خواجا، حبِّيتها كتير، كتير ناعمة وحلوة، شكراً».

«طيِّب، يا سيِّد أبو الجبين، قدِّيش سعر القماشة وتكلفة خياطة البدلة؟».

«ثمان جنيهات، يا سيدي، لا شكّ إنُّه الشَّبّ اللِّي معك ذوقه مكلف ورفيع».

«صحيح»، ردَّ الخواجا وعلى وجهه ابتسامة خفيَّة، «بيستاهل أكيد بعد كلّ اللِّي عملِّي ياه اليوم، مش رح أقدر أوفِّيه حقُّه مهما عملت».

لم يرغب الخيَّاط حسن في الدخول في تفاصيل «العمل»، ولكن خياله لم يتوقف طوال الوقت.

«طيِّب إذاً»، قال الخواجا ميخائيل بمرح، بينما أخرج محفظته، ودفع الجنيهات الثمانية، هذه الجنيهات التي سيتذكَّرها صبحي لبقيَّة عُمُره الطويل: كانت هناك أربع أوراق، واحدة حمراء وثلاث خضراء.

استأذن الخواجا ميخائيل قائلاً: «اعذروني، تأخَّرت على موعدي، لازم أغادر حالاً».

وكأنه في حُلْم، رافق صبحي الخواجا ميخائيل إلى خارج المخيطة، ومشى معه نحو السيَّارة، وانتظر إلى أن اختفت الـ «باكارد» السوداء قبل أن يعود مسرعاً. وبمجرَّد دخوله مرَّة أخرى إلى المخيطة، رمى بنفسه على مَقْعَد في زاوية المحلِّ: «يا إلهي، شو كانت شغلة متعبة وطويلة، بس أنا طاير عقلي على اللِّي حصَّلتُه مقابل خدماتي».

ظلَّ الخيَّاط العاجز عن الكلام واقفاً لا يعرف ماذا عليه أن يفكِّر أو يقول. مرَّت لحظات طويلة ومحرجة قبل أن يقطع الصمت: «خبِّرني لمَّا تكون جاهز عشان آخد قياساتك».

«معلش، ما تآخذني، سيِّد حسن، بس أعطيني دقايق عبال ما ألقط نفسي، وألتم على حالي».

«خُد وقتك، يا ابني، أنا هيني قاعد هون، ما في سبب للعجلة»، أجاب الخيَّاط مبتسماً، بينما ذهب إلى الخلف، ليجلس وراء ماكينة الخياطة ماركة «سينغر». أخذ يفكِّر في العلاقة المشبوهة بين هذا الفتى وذلك الأب الثري الذي ناداه بابني، داعياً الله ألَّا يتورَّط ابنه في مثل هذه العلاقات.

«أنا جاهز»، قال صبحي وهو يقف فارداً طوله بفخر أمام المرآة.

«ما تتحرَّك، لِفّ، اِثنِي دراعك، ارفع إيدِيْك التنتين لفوق، نزِّلهم لتحت، ماشي، خلَّصنا. بدلتك بتكون جاهزة بعد خمس أيَّام، يا ابني».

«الأربعا، الخميس، الجُمُعة، السبت، الأحد، عظيم، بكون عندك يوم الاتنين الصبح بدري».

«مش بدري كتير، لإني بفتحش قبل الساعة عشرة».

«الساعة عشرة؟»، سأل صبحي باستغراب، ثمَّ قال: «آسف، يا سيدي، ما كانش قصدي أتدخَّل في شغلك، بكون عندك الساعة عشرة بالضبط».

«أنا بتأخَّر في الشغل المسا، لإنُّه أكتر زبايني بيجوا بعد ما يخلصوا شغل».

«أنا فاهم، فاهم، بعضنا بيشتغل من الصبح بدري، وبعضنا بيتأخَّر في الشغل في المسا، لكنْ، كل واحد فينا بيحبّ شغله»، أجاب صبحي، وابتسم للخيَّاط ابتسامة واسعة.

غادر صبحي مخيطة أبو الجبين مُغلقاً الباب بحرص، وهو يعدُّ الأيَّام بانتظار يوم الاتنَيْن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

6
ثلاث ورقات خضراء وورقة حمراء

تمّوز 1947

جافى النومُ عينَي صبحي في الليلة التي سبقت موعد استلام البدلة الإنكليزية. لا شكَّ أن أيَّام الانتظار الخمسة كانت بطيئة ومؤلمة مثل الأيَّام التي تسبق موسم النبي روبين. كان ذلك هو الوقت الوحيد في السنة الذي يستطيع فيه، ليس فقط الخروج من ضجيج الكراج وعَتَمَة الآبار، ليرى الشمس وشمسه، بل أن يقضي معها شهراً بأكمله.

أكثر ما أقلَقَ صبحي كانت الدعوات المتواصلة لإضراب مفتوح ضدَّ مشروع التقسيم. فبينما كان الحزب العربي ومعظم الاتِّحادات (بما فيها اتِّحاد العمَّال الذي ينتمي إليه) مع إضراب مفتوح، كان حزب الدفاع المعتدل وحزب النجَّادة مع إضراب قصير، مدّته ثلاثة أيَّام.

«شو هالغبا!»، قال المعلِّم مصطفى معترضاً، «أنا مش فاهم كيف الإضراب المفتوح وتعطيل مصالحنا بدُّه يوقِّف مشروع التقسيم، أو تدفُّق اليهود على بلادنا؟!». كان معظم أصحاب المحلَّات، ليس فقط في المنطقة الصناعية، ولكنْ، أيضاً في أجزاء أخرى من المدينة، يشاركون المعلِّم مصطفى هذا الرأي، فهذه الدعوات إلى إضراب مفتوح أيقظت الخوف والذكريات السيِّئة لثورة 1936. ومع أن صبحي كان يخالف معلِّمه الرأي، إلَّا أنه هذه المرَّة كان يتوق إلى استلام بدلته قبل أن يبدأ أيّ إضراب. الآن فقط فهم كيف تحدِّد مصالحُ الأشخاص مواقفَهم

السياسية. لم يكن يتخيَّل، هو الذي شارك في مسيرات أيَّام الجُمُعة جميعها، أن يتَّخذ يوماً موقفاً ضدَّ الإضرابات. ومثل الخواجا ميخائيل والمعلِّم مصطفى، كانت مصلحة صبحي هذه المرَّة تتطلَّب أن يمسك بدلته في يد، وشمس في اليد الأخرى. خشي من أن التصعيد في الهجمات المتبادَلَة بين العرب واليهود سيُعيق كلَّ إمكانية لرؤية شمس أو اللقاء بها، خصوصاً وأنه سرت شائعات بأن بلدية يافا تفكِّر في إلغاء موسم النبي روبين لهذا العام خوفاً من هجمات الصهاينة على تجمُّعات المدنيِّيْن الفلسطينيِّيْن، وإن صحَّ ذلك، فسيُحرَم من المكان الوحيد الذي يمكنه أن يلتقي فيه شمس بحُرِّيَّة.

لخمسة أيَّام متتالية، ظلَّ صبحي مهووساً بالجنيهات الثمانية التي دفعها الخواجا ميخائيل. كان يستعيد في ذهنه مشهد الخواجا وهو يُخرِج من جيبه محفظة جلدية، ويسحب، من دون تردُّد، ورقة حمراء وثلاث أوراق خضراء. وبذهنه المتوقِّد، استعاد شكل الأوراق ولونها، بالوضوح نفسه الذي استعاد فيه لون ومَلمَس قماش بدلته. كُتب على الورقة الحمراء بحروف كبيرة «خمسة جنيهات فلسطينية»، بينما كُتب على الأوراق الخضراء المائلة للصُّفْرَة «جنيه فلسطيني واحد». وعلى رأس كلِّ ورقة نقديَّة، قرأ بحروف كبيرة Palestine Currency Board « مجلس فلسطين للنقد». مُحملقاً في الأوراق وهي تنتقل من يدَي الخواجا إلى يدَي الخيَّاط، لاحظ أن ورقة الجنيه الواحد تحمل صورة قبَّة الصخرة، في حين تحمل ورقة الخمسة جنيهات صورة برج، لم يستطع تمييزه. ولأنه فتى فصيح، خصوصاً في الرياضيات، فقد حاول أن يحفظ الأرقام المكتوبة على ورقات الجنيه ذات اللونَيْن الأخضر والأصفر: Y637760 ،Y637759 ،Y637758، والرَّقْم A877125 المكتوب على ورقة الخمسة جنيهات ذات اللونَيْن الأحمر والأبيض. ولأنه كان

يتقاضى أجرته يومياً، كان معتاداً على عِملة المئة ملّيم التي يدفعها له معلِّمه، والخمسة أو عشرة قروش التي كان يدفعها ثمناً لقهوته، والشِّلن أو الشِّلنين التي كان ينفقها في مقهى التيوس، حيث كان هو وأصحابه يقضون معظم أُمسيَّاتهم يلعبون الورق ويتجادلون في السياسة. كان يُنفق الشِّلنات أيضاً على أشياء بدأ يشتريها سرَّاً عن أفراد عائلته، وخاصَّة والده: السجائر وهدايا شمس التي كان يخبِّئها في جاروره.

على طول الثلاثة كيلومترات التي تفصل بين بيته والمخيطة، أو بينه وبين بدلته الإنكليزية، ولأوَّل مرَّة في حياته، أعار صبحي انتباهه إلى ما يرتديه الرجال الآخرون العابرون في الشارع.

القليل فقط من الرجال الأكبر سنَّاً ارتدوا البدلات، وهؤلاء لم يتجاوز عددهم الخمسة، بينما لم يرَ أحداً يرتديها من الشبَّان في مثل سنِّه. كانت ملابس معظم الرجال مثل ملابس والده وجَدِّه: القمباز التقليدي المفتوح من الأمام، بعضهم يلبس فوقه «جاكيت» داكن اللون، والآخرون يكتفون به. لاحظ أيضاً الجلَّابية المصرية التقليدية الطويلة، بحزام على الخصر، التي كان يرتديها العديد من العمَّال، ولكنْ، لم يبدُ أيٌّ من المارِّين في الشارع بأناقة الخواجا ميخائيل، أو بأناقته هو عندما سيلبس بدلته الإنكليزية خلال ساعات.

تمشّى لعدَّة دقائق جيئة وذهاباً أمام المحلِّ قبل أن يصل الخيَّاط حسن.

«إيش؟ الهيئة إنُّه في واحد ما نام مبارح!»، قال حسن بتودُّد، ممَّا يعني أنه تجاوز قصَّة التاجر الغني والعامل، أو أنه على الأغلب سمع، كما سمع الكثيرون في يافا، عن قدرات هذا الميكانيكي الشابّ الذكي والجدير بالثناء.

«آه، طمنِّي، إن شاء الله بدلتي جاهزة؟»، تساءل صبحي بقلق.

«طبعاً جاهزة»، أجابه الخيَّاط حسن، وأضاف: «الموعد موعد، الواحد ما بيصير يتأخَّر على زباينُه». وافق صبحي الخيَّاط على مبدأ الالتزام بالوقت وعدم التأخُّر على الزبائن، فقد كان دائماً يصل إلى الكراج في الصباح الباكر، أي قبل وصول معلِّمه أو أيٍّ من زبائنه بساعات. وتقديراً لأهمِّيَّة البدلة، ولإعطائها الاهتمام الذي تستحقُّه، أراد صبحي أخذ اليوم بأكمله إجازة، ليتسنَّى له أن يجرِّبها في المخيطة، ويتركها عند الخيَّاط حسن، إذ قيل له إن الخيَّاطين يحتاجون عادة إلى «بروفة» أو اثنتَيْن. أمَّا إذا حالفه الحظُّ وكانت جاهزة، فسيأخذها إلى البيت، ويُريها لأُمِّه وجَدَّته قبل أن يُعلِّقها في الخزانة.

ولكونه ميكانيكياً ملتزماً وصاحب ضمير، فقد أبلغ معلِّمه أنه يحتاج إلى إجازة هذا اليوم، دون أن يُخبره بالسبب.

«شايفك متحمِّم ومهفهف اليوم!»، علَّق حسن وكأنه يذكِّره بكم كان مُتَّسخاً ومُتعرِّقاً عندما جاء مع الخواجا. ولتلهُّفه على قياس البدلة، قرَّر صبحي أن يتغاضى عن الإهانة ويمتنع عن الردِّ. لم يشأ أن يدخل في نقاش مُفصَّل، ويخبر حسن أنه، احتفاء ببدلته، استيقظ مُبكِّراً اليوم، وحلق شَعْره، وأخذ «حمَّام أبو سبع زوام» في الحمَّام التركي. وعوضاً عن حلقة عمِّه حبيب المجَّانيَّة، قرَّر الذهاب إلى بلال، أشطر حلَّاق في المنشيَّة، وعلى الرَّغْم من شهرته لم يتردَّد صبحي في إعطاء الحلَّاق المعلِّم تعليمات دقيقة: «بدِّي ياك تحلقلي حلقة على آخر موضة».

عندما دقَّق الحلَّاق في بشاعة قَصَّة شَعْر صبحي، أجابه بازدراء: «طيِّب، طيِّب، تفضَّل اقعدْ».

وبدل أن تكون حلاقة على الموضة، بدا صبحي بقَصَّة الشَّعْر القصير مثل جندي بريطاني، وأبعد ما يكون عن صورة العريس التي تمنَّاها في هذا اليوم. ومع ذلك، فإن هذه القَصَّة كانت أفضل بكثير من قَصَّة عمِّه السكِّير حبيب في المرَّة الماضية.

بعد أن حلق شَعْره، جاء الوقت لكي يهتمَّ ببقيَّة جسده، فانطلق من صالون الحلَّاق إلى الحمَّام التركي القريب من بيت جَدَّته في البلدة القديمة. وبينما اعتاد بعض الرجال الذهاب إلى الحمَّام العامِّ بشكل منتظم، إلَّا أن معظمهم، مثل صبحي، اكتفوا بالذهاب في عيدَي الفطر والأضحى، أي مرَّتَيْن فقط في السنة، ولكن الأهمَّ بالنسبة إلى صبحي أن الشباب الذين يكبرونه ببضعة أعوام كانوا يذهبون إلى الحمَّام استعداداً لليلة زفافهم. «هات لك كمان لَفِّة دعِك»، رجا صبحي الرجل نصف العاري، الذي دعكه بكيس أسود خشن بالصابون النابلسي.

«ما عندك صابون غار حلبي؟».

«إذا بدَّك صابون غار حلبي صنف أوَّل في، بس بدَّك تدفع قرش زيادة».

«ماشي، بدفعلك القرش الزيادة. بدِّي ريحة الغار، هاد اليوم أهمّ يوم في حياتي».

«إيييش، كنَّك ناوي على خير تصير عريس وأنا مش داري؟! ولَّا هيئتك ناوي تقابل حبيبتك، مش هيك؟».

«مش بالضبط، بس يعني تقريباً».

وما إن ذكر الرجل حبيبته، بينما يفرك ظهره بالماء الدافئ وصابون الغار، حتَّى سرت رعشة في جسد صبحي، وثارت رغبته.

«تستحيش، بتحصل مع أكتر الرجال وأنا بفركلهم ضهورهم أو الأجزاء الداخلية من أفخادهم. أهمّ إشي إنك ما تهجم علي!»، قال الرجل السمين قبل أن يطلق ضحكة تردَّد صداها في أرجاء غرف الحمَّام التركي الضبابيَّة.

«ما تقلق، أنا مش واحد من هدولاك»، ردَّ صبحي وهو يضحك.

«بس أنا واحد منهم»، أجاب الرجل مُطلِقاً ضحكة، انطلق صداها عبر الكُوى الزجاجية الزرقاء للقباب التي تُدخِل الضوء الرومانسي إلى الحمَّام.

بالعودة إلى المخيطة.

تبعت عينا صبحي البرّاقتان الخيَّاط حسن وهو يذهب لإحضار بدلته. أضاء قلبه ووجهه عندما رأى البدلة الرمادية ذات الخطوط الحمراء الرفيعة.

«روعة!»، صرخ صبحي.

«عن جَد اختيارك ممتاز، هاد القماش ناعم وسهل الشغل فيه، متل العجين».

«متل العجين!». لم يرُق لصبحي تشبيه بدلته الإنگليزية الساحرة بالعجين، ولكنه هذه المرَّة أيضاً امتنع عن التعليق. وباهتمام كبير، فَرَدَ حسن البدلة على الطاولة العريضة أمام صبحي. مسح صبحي كفَّيْه الكبيرتَيْن على بنطاله قبل أن يتحسَّس الجاكيت بلطف عدَّة مرَّات، ثمَّ ابتسم.

«شايف ما أحلاها!».

«بتجنِّن!».

«طيِّب، اترك الجاكيت على الطاولة، وخُد البنطلون، وروح على غرفة القياس هناك، البسُه، وارجعلي. لازم أشوفُه عليك».

تبع صبحي تعليمات الخيَّاط، وبعد وقت قصير، خرج من غرفة القياس، ومشى باتِّجاه الخيَّاط وهو ينظر إلى الأسفل مُعجباً ببنطاله الجديد، ومُتحسِّساً مؤخِّرته البارزة بكفَّيْه الكبيرتَيْن.

«قرِّب عليّ، ولِفّ».

ومن جديد تبع صبحي تعليمات الخيَّاط.

«عظيم، عظيم. شايف، لمَّا الواحد يكون نحيف وطويل، بيكون سهل إنُّه القياس يزبط من أوَّل بروفة».

أسعدت كلمات حسن صبحي، الذي استمرَّ في تحسُّس بنطاله من الخلف.

«طيِّب، خَلِّينا هلأ نجرِّب الجاكيت»، قال حسن وهو يساعده في ارتدائه.

«ممتاز. دِيْر حالك، وخلِّينا نشوف كيف وضع الأكتاف من ورا».

أدار صبحي جسمه، بينما كان ينظر إلى المرآة.

«لأ، مش هيك! دِيْر جسمك كلُّه مع راسَك، ووقِّفْ دغري، بدِّي أشوف كيف بتدلَّى من ورا».

«بتدلَّى؟ وين؟»، سأل صبحي بذعر، جعل الخيَّاط يضحك.

«يتدلَّى بلغة الخيَّاطين معناها يهدل بدون طعجات».

«مرَّة بيقولِّي متل العجين، وهَلَّأ بيقولي يتدلَّى، شو هاي التعابير؟».

الآن، وقد أصبحت البدلة شبه جاهزة، تضاءل قلق صبحي، وارتاحت أعصابه، وبدأ يتبادل الحديث مع الخيَّاط.

«الحقيقة إنه البدلة لابستَكْ لِبِسْ، تمام التمام. طيِّب، هلأ لِفّ، واتطلَّع عليّ».

وكطبيب محترف، تفحَّص حسن أجزاء البدلة كلَّها، وهو يطلب من صبحي أن يثني ذراعَيه، ويرفع يدَيْه، ثمَّ يجلس، يقف، ينحني إلى الأمام، ويسأله إن كان مرتاحاً. وبعد أن فحص البدلة، وكذلك فحص صبحي، بدأ حسن يدرك سرَّ انجذاب الخواجا ميخائيل إليه، ولكن ذهن صبحي كان سارحا في مكان آخر تماماً.

بعد أن اجتاز الفحص، تجمَّد أمام المرآة، وذُهل من أناقة البدلة، وأذهله أكثر كم بدا مختلفاً. وللمرَة الأولى لاحظ أنه كان فعلاً صبيَّاً وسيماً، كما كانت أُمُّه تكرِّر باستمرار: «صبحي أحلى واحد في ولادي، ولاد وبنات». انتبه كم كتفاه عريضتان، بما يكفي لتضع شمس رأسها، وتفرد خُصلات شَعْرها الطويلة عليهما. رأى في المرآة شمس تقف إلى جواره بفستانها الأبيض، ولكنَّ كلمات الخيَّاط أعادتْهُ إلى الواقع: «طيِّب، يا ابني، بما إنُّه البدلة ما بدها أيّ تعديل، اِشلَحْها، وخلِّيني أكمِّلها. لازم أخيِّط الأطراف، وأكويها شوي، وأعلِّلقك ياها على علَّاقة. ارجعْ بعد ساعة زمان، بتكون جاهزة».

«بِقْدِر أستنَّاها هون؟»، سأل صبحي.

«بدَّك تستنَّاها هون؟»، أجاب الخيَّاط مندهشاً، ثمَّ أضاف: «طبعاً، بتِقْدِر تستنَّاها».

شعر صبحي بعدم الارتياح وهو يمشي جيئة وذهاباً داخل المخيطة، فخرج يمشي على الرصيف، إلى أن أشار له حسن إشارة تدلُّ على أن البدلة أصبحت جاهزة.

«مبروك، أنا كتير مبسوط لإنِّي فصَّلتِلَّك بدلتك الأولى. رح أخلِّي مقاساتك عندي عشان البدلة التانية والتالتة، وعقبال ما أفصِّلَّك بدلة عرسك بعد أكَمَّن سنة. قدِّيش عمرك؟».

«خمسطعش، ورح أصير ستطعش قريب».

«لسَّاتك صغير، عنَّا وقت كتير لسَّه».

لم يخطر على بال صبحي والخيّاط حينها أن الغد الذي ينتظر مدينتهما سيجعل من المستحيل أن يلتقيا مُجدَّداً لخياطة بدلة ثانية أو ثالثة، ناهيكَ عن تفصيل بدلة زفاف.

7
الخواجا صبحي

حمل صبحي بدلته الإنكليزية الجديدة، وخرج إلى شارع المحطَّة المزدحم متسائلاً ماذا سيفعل الآن؟ وأين سيذهب؟ إذ لا يمكن لهذا اليوم أن يمضي عادياً مثل أيِّ يوم آخر. ومن شدَّة خوفه من أن تلامس بدلته الأرض، كان يرفع العلَّاقة الخشبية عالياً، وينقلها من يد إلى يد، وهو يفكِّر كيف يقضي هذا اليوم الذي أصبح فيه الحُلْم حقيقة.

وما إن اقترب من محطَّة قطارات يافا حتَّى تذكَّر أن ركوب القطار من يافا إلى القدس كان أحد أُمنيَّاته العديدة التي لم تتحقَّق بعد. سأل نفسه عمَّا إذا كانت هذه هي الطريقة التي سيحتفي بها ببدلته اليوم؟!

آه، لو أن الظروف كانت مختلفة، لو أنه لم يكن يخشى من اعتراض عائلته على زواجه من فتاة قروية، أو لو أن شمس كانت في مثل عُمُره، لكان تزوَّجها فوراً، ولكنها لا تزال في الثالثة عشرة من عُمُرها، أي أن عليه أن ينتظر ثلاث سنوات أخرى قبل أن يسمح له القانون بالزواج منها. لولا هذه التعقيدات كلُّها، لَقَفَزَ إلى باص، يأخذه من وسط يافا إلى سَلَمِة. كم تمنَّى لو يستطيع زيارة شمس في بيتها أو مدرستها ليُريَها بدلة زفافه.

وهو يعبر شارع المحطَّة بحذر، خطر له سيناريو آخر: لو أن أحياء يافا الغنية والفقيرة لم تكن منفصلة إلى هذا الحَدِّ، لكان من الطبيعي أن يذهب إلى حَيِّ الجبليَّة، حيث يسكن الخواجا ميخائيل، ليُرِيَهُ بدلته الرائعة ذات الثمانية جنيهات، ولكن هذا غير ممكن. ولمَّا تيقَّن من أنه

لن يستطيع أن يذهب ببدلته إلى شمس أو الخواجا ميخائيل، اختار أن يذهب إلى البيت، هناك سيرتديها، ويتبختر بها مثل عارض أزياء أمام أُمِّه خديجة، وجَدَّته لأبيه صبحيَّة، ثمَّ يعلِّقها في خزانته، ويذهب لإصلاح المزيد من مضخَّات المياه في الكراج. ولكنَّ العمل كان آخر ما يريد أن يفعله في ذلك اليوم.

في طريقه إلى البيت مرَّ بجوار سوق اليهود، أكثر أسواق الخضار والفواكه في يافا شعبية وازدحاماً، حيث كان هو وعائلته وجيرانهم يتسوَّقون. ابتسم وهو يتذكَّر كيف اعترض عمِّه حبيب بشدة على سبب تسميته بسوق اليهود، عندما قال له صبحي: «الأستاذ حكالنا إنه هاد السوق اللِّي انبنى في سنة 1928 على الحدّ بين يافا وتلّ أبيب، تسمَّى هيك لإنُّه اليهود بيملكوا كتير من المحلَّات فيه، أو لإنُّه جنب نيفيه تسيدك (الحيّ اليهودي شرق المنشيّة)، وعشان هيك كتير من زباينه يهود».

«أيِ خَلِّصنا!»، صاح عمُّه حبيب، «شو هالمدرسة اللِّي بتروح عليها؟ ومين الأستاذ الغبي اللِّي بحكيلكم هالحكي الفاضي؟ تعال معي مشان أفرجيك شو الإشي اليهودي فيه: احكي لأستاذك الفصيح إنه اسمه سوق اليهود، لإنُّه بينغل نغل بالشراميط اليهوديات، ومش لإنُّه في تجَّار يهود. فهمت ليش اسمه هيك؟».

غمرت الحُمْرَة وجه صبحي، وانتابه الفضول وهو يتخيَّل نفسه ذاهباً مع عمِّه لرؤية العاهرات في ذلك السوق. كان هذا أيضاً أحد الأشياء التي أراد أن يفعلها، ولكنه لم يملك الجرأة بعد.

«يا ريت أبقى أروح معك شي يوم عشان أشوفهم»، قال دون أن يجرؤ على التلفُّظ بكلمة شراميط.

«بدَّك تروح معي عشان تشوفهم؟ إنت ما بتروح عشان تشوفهم، إنت بتروح عشان تركبهم، وبرضُه يركبوك، وين مُخَّك، يا صبي؟».

«واللهِ، إذا بروح هناك أبوي ليدبحني!».

«أبوك رح يدبحنا إحنا الجوز إزا باخد ابنه اللِّي عمره لسه خمسطعشر سنة عشان يدق بالشراميط، يَلَّا طوِّلْ بالك، بلكي من هون لسنة سنتين بتقوِّي قلبك، وبتروح هناك مع صاحب بعمرك. على كلّ حال، أقولّك وين بتلاقي أحسن شرموطتين في البلد؟ بتروح على الجزء الشرقي من السوق في المنطقة القريبة على نيفيه تسيدك، ورا دكَّان ياكوف، وبتسأل عن ليا أو شوشانا. أي وحدة من هدول التنتين بليلة وحدة بتعلمك إيش معنى الحياة والمتعة. ووقتها بس بتفهم، يا صبحي، إيش اللِّي رايح عليك وعلى غيرك. وكل اللِّي بقْدِر أقولّك ياه، يا ابن أخوي العزيز، إنّه المدارس الحقيقية اللِّي بتخلِّيك تفهم الحياة هي الشوارع والكراخانات، مش المدارس اللِّي بتضيِّع عمرك فيها. وإذا بدَك تتعلَّم كيف تصير رِجَّال وتِقْدِر تدافع عن بلدك، بدَّك تتعلَّم من الزُّعران في الشوارع، والشراميط بالذات هُمَّه اللِّي بيعلموك كيف تمارس الحبّ والسلام مع عدوَّك. وهيك رح تكتشف على بكِّير إنُّه النسوان بس هُمَّه اللِّي بيعطوا الحياة معناها ومتعتها».

على عكس معظم أفراد أسرته، وخصوصاً والده، كان صبحي يحبُّ عمَّه حبيب، وأحد أسباب ذلك وقوفه إلى جانبه ودفاعه عن خياره في ترك المدرسة لتحقيق حُلْمه في أن يصبح ميكانيكياً. كان صبحي يأمل أن يكون عمُّه حبيب في صفِّه هذه المرَّة أيضاً، وأن يدافع عن خياره في أن يتبع قلبه، ويتزوَّج شمس. ورَغْم أنه كان مخموراً أغلب الأحيان، إلَّا أن صبحي كان معجباً بروحه الحُرَّة، وبخفَّة دمه، وسرعة بديهته وانفتاحه وحبِّه للحياة، وبأنه لم يأبه في حياته بأيِّ قانون أو تقليد، ولم يتردَّد يوماً

في أن يقول للآخرين ما يريد في وجوههم، وهو ما كان يزعج الكثيرين من حوله، خصوصاً أخاه الأكبر إسماعيل، والد صبحي، الذي كان يقول: «والله ما أنا قادر أفهم كيف بطن وحدة ملاك متل إِمِّي قِدِر يتحمَّل شيطان متلك تسع شهور بحالها؟! لو إنها عارفة بدَّك تطلع هيك كان طَرَّحِت حالها قبل ما تشرِّف عالدنيا!».

«يقطع لسانك، يا إسماعيل! شو هالحكي اللِّي بتقوله؟ الأُمّ بتحبّ ولادها قَد بعض، مشكلة حبيب إنه بيشرب، وغير هيك عنده قلب من دهب، دهب صافي»، تردُّ صبحيَّة، جَدَّة صبحي، بغضب، فهي، أيضاً، لديها قلب يفيض بمحبَّة ابنها حبيب.

«الشرب، والتدخين، والشراميط، والتهريب، والمشاكل، والطُّوش اللِّي ما بتخلص، هاد غير البارودة اللِّي لقيوها الإنكليز تحت تختُه، والله بيعلم إيش كمان! آه، وكمان الصحبة وشغل الجلَا جَلَا مع أصحابه اليهود والإنكليز، وكمان، وكمان ...». وكما في كلّ مرَّة ينفلت فيها إسماعيل بمثل هذا الكلام، كان حبيب يغادر المكان، بينما تستميت أُمُّه صبحية في الدفاع عنه أو إنهاء النقاش.

بالعودة إلى سوق اليهود.

بغضِّ النظر عن السبب الحقيقي وراء تسمية سوق اليهود باسمه هذا، إلَّا أن المرور فيه جعل صبحي يفكِّر بالتوتُّرات المتصاعدة والمناوشات والقتال بين العرب واليهود في الأشهر الأخيرة، فمنذ أن أعلن الإنكليز عن نِيَّتهم إنهاء الانتداب على فلسطين وسحب قوَّاتهم منها خلال العام، صعَّدت العصابات اليهودية المسلَّحة، مثل الهاغاناه وإيتسل وليحي، هجماتها على الأماكن التي يتجمَّع فيها الفلسطينيون،

كالمقاهي ودُوْر السينما، والأحياء العربية المحاذية للمستوطنات اليهودية، مثل سكْنة أبو كبير في الشَّمال، وسكْنة درويش وتلّ الريش في الجنوب، وأيضاً في الأجزاء الشَّمالية الشرقية من حيّ المنشيّة، حيث تعيش أسرة صبحي.

وهو يمشي في شارع المحطَّة بالقرب من مركز الشرطة مرَّ صبحي بالنادي الإسلامي، حيث يلعب كرة القدم أيَّام الجُمُعة، ويتلقَّى التدريب على استخدام البندقية. فكَّر بالسياسة البريطانية غير المتوازنة تجاه الميليشيات اليهودية والعربية، والتي أدَّت إلى تفوُّق الميليشيات الصهيونية بطبيعة الحال، فبينما سمح الإنگليز للمقاتلين الصهاينة بالانضمام إلى قوَّات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وغضُّوا النظر عن تهريبهم للسلاح إلى فلسطين، كان الفلسطيني يتلقَّى حُكْماً بالسجن لعامَيْن في حال عُثر بحوزته على رصاصة واحدة، ناهيكَ عن بندقية أو قنبلة يدوية. لكنْ، رَغْم الإحباط، فقد انضمَّ صبحي وأخوه جمال والعديد من أصدقائهما إلى ميليشيا الحيِّ التي أسَّسها حزب النجَّادة، ولكنهم لم يحصلوا إلَّا على القليل من التدريب بسبب ندرة السلاح والذخيرة.

لم يفهم صبحي لماذا خطرت في باله هذه المشكلات كلّها، في حين من المفترض أن يكون سعيداً في هذا اليوم! صار يخشى من أن يكون الوضع السياسي المتدهور عائقاً آخر أمام زواجه من شمس. آه، كم يتمنَّى أن يتزوَّج بها الآن فوراً! سعيداً بوصوله إلى البيت، استرخى قليلاً مُبعِداً الأفكار كلَّها التي تذكِّره بصعوبة حصوله على شمس، ونادى فور دخوله بصوت عالٍ: «يمَّا، ستِّي، إنتو في الدار؟». أراد أن يحظى باهتمام أُمِّه وجَدَّته اللتَيْن لا بدَّ وأنهما في البيت في هذا الوقت من النهار، ولكنْ، بدل ذلك أجابه صوت أجشّ: «صبحي، شو جايبك عالدار

بدري هيك؟ في إشي، يا سيدي؟»، كان هذا جَدّه علي، الذي كثيراً ما كان ينام في النهار، ويذهب إلى الصيد في الليل.

«فش إشي، يا سيدي، بس إجيت أفرجي إِمِّي بدلتي الجديدة».

«شو قلت؟ إخخخ إخخ إخخخخ»، كان الشخير هو كلّ ما حصل عليه صبحي من جَدِّه.

«بشوفك رجعت ومعك بدلتك الجديدة! ما كان بدها أيّ تعديل؟ ما أحلاها يمَّا، جَرِّبْها، جَرِّبْها، خلِّيني أشوفها عليك»، قالت خديجة، أُمُّ صبحي، وهي تخرج من المطبخ إلى غرفة المعيشة حاملة أحشاء الخروف التي كانت تحشوها باللحم والأرز لإعداد الكرشات والفوارغ.

«يا سلام، طبختي المفضَّلة، بدُّه ييجينا ضيوف؟».

«أيّ ضيوف يمَّا؟! إحنا محتفلين ببدلتك الإنكليزية، روح ارمح يمَّا، غيِّر، مش قادرة أستنى تأشوفك بهالبدلة! لو كنت أكبر بأكَمَّنْ سنة كان دَوِّرتلك على عروس، أصلاً في براسي وحدة إلك».

لم يرغب صبحي بالدخول مع أُمِّه في نقاش عقيم حول العروس التي تفكِّر فيها، فانطلق إلى غرفته، وعاد فارداً طوله بفخر بينما كان يتعرَّق. الآن فقط أدرك أن بدلته الصوف الإنكليزية لم تكن مناسبة أبداً لصيف يافا الحارّ والرطب. مع ذلك، ومن أجل خاطر شمس، وكذلك من أجل الجولة الكبرى التي كان يخطِّط لها حول المدينة، فقد ظلَّ مُرتدياً البدلة، في حين جعله تفكيره في شمس يتعرَّق أكثر.

«الله يرضى عليك، يمَّا، يا حبيبي، والله شكلك متل أمير أو عريس، يَلَّا اكبر خلِّيني أجوزك، أو عِيْر بدلتك لأخوك جمال، هَيُّو بدُّه يتجوَّز في الصيف الجاي».

«لأ، يمَّا ولا يمكن، هاي بدلة عرسي!».

«بتمنَّى، يمَّا، استنَّالك أكَمَّنْ سنة، وعندي إلك أحلى عروس يافاويَّة»، عادت أُمُّه إلى الموضوع نفسه من جديد.

«ليش يافاويَّة؟»، كان صبحي يحاول أن يوحي لأُمِّه أنه قد ينتهي بالزواج من فتاة غير يافاويَّة.

«ولَّا مِنْ وين بدها تكون، يا حبيبي؟ من الشام ولا بيروت؟».

«لأ، من مطرح أقرب بكتير».

«والله، يمَّا، إنت شبّ حليوة وزيّ القمر، وأي بنت بتشوفك من يافا ولَّا غير يافا، صغيرة ولَّا كبيرة، رح تقتل حالها عشان تتجوَّزك»، ثمَّ اقتربت منه، وقبَّلتْهُ بين عينَيْه. «طيِّب، يَلَّا حبيبي، شو رأيك تشلح البدلة، وتخبِّها، لإنِّي براهنك إنه كلّ إخوتك وولاد عمامك وحتَّى أبوك رح يصيروا بدهم يستعيروا هالبدلة الرائعة منَّك في أيّ مناسبة بتمرق عليهم».

«على جثتي، مش رح أعيرها، وكمان مش رح أشلحها، بدِّي أضل لابسها لآخر النهار».

«لآخر النهار، يمَّا؟»، سألتْهُ أُمُّه وهي تختفي مع الفوارغ في المطبخ، «ما تتأخَّر، يمَّا، ما إنت عارف إنه بصير طخ وانفجارات كتير بالليل، والناس بتقول إنه الإنكليز ممكن يرجعوا يفرضوا منع التجوُّل في الليل على يافا».

«عشان خاطرك وعشان خاطر الكرشات رح أروِّح المسا بدري».

«يا عرص، إنت رح ترجع بدري عشان الكرشات مش عشاني»، صاحت أُمُّه من المطبخ تمازحه.

8

كبرياء إنكليزي

شيء ما في البدلة الإنكليزية منح صبحي إحساساً بالثقة واعتداداً بالنفس. هذه المشاعر الجميلة لم تراوده من قبل رَغْم أنه لم يكن يفتقر أيٍّ منها. كان يدرك أنه يملك الكثير: فهو بارع في عمله، ذكي، مهذَّب، لطيف المعشر، وذلك كلُّه إضافة إلى كونه شابّاً وسيماً.

هل هذا ما يشعر به الأغنياء أمثال الخواجا ميخائيل عندما يرتدون بدلاتهم الإنكليزية، أنيقين وواثقين من أنفسهم؟ تساءل صبحي وهو يتذكَّر كيف أخرج الخواجا ميخائيل محفظته الجلدية اللامعة من جيبه، ودفع الجنيهات الثمانية. «صحيح أنا ما عندي محفظة مليانة جنيهات خضرا وحمرا، بس بهيك بدلة أنا متأكِّد إنُّه الناس رح يفترضوا إنُّه معي محفظة مليانة مصاري».

شعر صبحي وكأنه رجل إنكليزي، بطوله الفارع وكبريائه، والآن فقط فهم السرَّ وراء سلوك الإنكليز، غرورهم واعتدادهم بأنفسهم. تذكَّر المحاضرة السياسية التي كان يُلقيها عمُّه حبيب كلَّما كان يثمل، الأمر الذي كان يحدث دائماً: «ملعون أبو الإنكليز اللِّي أعطوا فلسطين للصهاينة، لو أنهم ما استعمروش العالم وعملوا سياسة فَرِّقْ تَسُدْ كان العالم بيكون بألف خير اليوم. خُد منِّي، الإنكليز ما عندهم قلب، يعني فكرك الناس اللِّي استعبدوا وباعوا ملايين من الأفارقة للأمريكان بدهمّش يبيعونا ويبيعوا أرضنا للشيطان؟ ما هم باعونا وخلَّصوا، بس إحنا العرب اللِّي خُنَّا العثمانيِّينْ لصالحهم، وشو أخدنا بالمقابل؟ وعد بلفور! وبعدين مين

هُوَّه اللورد بلفور اللِّي ما حدا بعرف أصله ولا فصله عشان يعطي بلادنا للمهاجرين اليهود اللِّي وصلوا مبارح، وليش؟ أنا بقولَّك الإنگليز بيعتبروا العالم كرخانة كبيرة، بنيكوا عرضنا في النهار، وبنيكوا الشراميط في الليل. أنا بشوفهم في الكراخانات العربية واليهودية طول الوقت».

«بيكفِّي، سِدّ بوزَك، وما في داعي تتفشخر بالزنى اللِّي بتزنيه، إنت أسوأ منهم كلّهم على بعض»، قال إسماعيل الذي لم يكن يفوِّت أيَّة فرصة لقول كلمات جارحة لأخيه الأصغر حبيب.

كان آخر ما أراده صبحي في هذا اليوم أن ينشغل بالوضع السياسي المضطرب، أو حتَّى أن يتحدَّث في السياسة، ولكنَّ ما ذكَّره بذلك كان البدلة وشعوره بالثقة وهو يرتديها. **مكتبة سُر مَن قرأ**

أخيراً صفا ذهنه. الشيء الوحيد الذي أحبَّ أن يفعله اليوم هو أن يستمتع بهيئته الجديدة، وهكذا قرَّر أن يذهب في رحلة عرض أزياء كبرى في أرجاء المدينة. فكَّر في الذهاب إلى أماكن يعرفها، وأماكن أخرى لا يعرفها. استعرض في ذهنه الأماكن الفاخرة والراقية كلَّها في شارع الملك جورج وحيّ النزهة الجديد، أماكن كانت كثيراً ما تشعره بالرهبة، ولم يملك الجرأة أبداً للذهاب إليها. عَدَّ هذه الأماكن على أصابعه: مقهى فينيسيا، قاعة فندق إنتركونتيننتال، حيث يأمل أن يصادف أحد المشاهير العرب من المغنِّين والممثِّلين والكتَّاب والشعراء الذين يأتون إلى الفندق لإجراء مقابلات مع إذاعة الشرق الأدنى، وسينما الحمراء. فكَّر أيضاً بزيارة النادي الأرثوذكسي، الفريق المنافس لناديه «الإسلامي»، حيث لم يكن الأولاد المسلمون الفقراء مثله موضع ترحيب، ولم يُسمَح لهم بالدخول إليه. أراد أن يتفرَّج على الڤترينات على طول شارع إسكندر عوض الشيك، أراد أن يحلم بـ «شمسه» في ثوب الزفاف الأبيض. خطر له أيضاً أن يتمشَّى في شوارع حيِّ العجمي وحيِّ الجبليَّة. صحيح أنه

كميكانيكي كان قد سبق له أن ذهب إلى العديد من الفيلَّات الفخمة، حيث أصلح أنواع مضخَّات المياه والمحرِّكات جميعها، ولكنْ، دائماً بيدَيْن ملوَّثتَيْن وبنطال «ساحِل»، ومعه صندوق عدّته. وأراد أخيراً، إذا سمح له الوقت، أن يختم جولته الكبرى في مكتبة الاستقلال الجديدة الواقعة بجانب مبنى البلدية الجديد في شارع الملك جورج. كان يحبُّ الكُتُب كثيراً، إلَّا أنه لم يملك أبداً المال الكافي ليشتريها، ولهذا كثيراً ما كان يقضي ساعات طويلة وهو يقرأ الكُتُب التي ينتقيها عن رفوف المكتبة الإسلامية، أو يستعير بعضها، عندما كان يذهب إليها بعد صلاة الجُمُعة، أو بعد مظاهرات يوم الجُمُعة التي كانت تنطلق بالقرب من المكتبة العامَّة. ومع أنه ترك المدرسة في عُمُر مبكِّر، ليصبح ميكانيكياً، إلَّا أن الكُتُب ظلَّت رفيقته وشَغَفَه الثالث، بعد شمس والماكينات.

شعر صبحي بأن البدلة الإنگليزية كانت أقرب ما تكون إلى جواز سفر إنگليزي، أتاح له الدخول إلى أماكن محرَّمة عليه في مدينته، أماكن كان يراها من بعيد ولكنه لم يجرؤ أبداً على الذهاب إليها.

لكي يستمتع بجولته الاستعراضية إلى أقصى حدٍّ، احتاج صبحي إلى استدانة بضعة جنيهات، يضيفها إلى النصف جنيه الذي أعطاه له الخواجا ميخائيل.

لم يخطر في باله لهذه المهمَّة سوى المعلِّم مصطفى وعمِّه حبيب. كان واثقاً من أن معلِّمه سيُقرِضه المبلغ، أوَّلاً لأنه يحبُّه، وأيضاً، وهو الأهمُّ، لأنه كان يقدِّر جيِّداً كفاءته، وبراعته التي حقَّقت له سمعة طيِّبة وزبائن أثرياء. كان يقول له: «رَحْ أزعل كتير إزا بتتركني وبتروح تشتغل عند حدا غيري، أوعى تعملها، يا صبحي». كان المعلِّم مصطفى يمدحه دائماً في وجهه، ولكنه كان يزيد أجره فقط بقَدْر ما يسمح به الوضع السياسي المضطرب والوضع الاقتصادي المتردِّي في زمن الحرب. كان صبحي على يقين أيضاً

من أن عمَّه حبيب سيفعل أقصى ما يستطيع ليساعده: «ولو، طبعاً، يا رجل! حتَّى لو معيش مصاري برضو رح أداينك ياهم، ولو بتداينهم من الشراميط. قدِّيش بدَّك؟»، تردَّد صدى استجابة عمِّه حبيب في أُذُنَيْه حتَّى قبل أن يذهب إلى الميناء، ليجده في مقهى المدفع، حيث كان يقضي ساعات العصر، قبل أن تسرقه الخمر والنساء من يافا، وتأخذاه إلى تلِّ أبيب، ليقضي فيها معظم الليل. وقد أشاع إسماعيل، والد صبحي، أن أخاه حبيب كان ينفق معظم نقوده على راشيل اليهودية «العاهرة»، التي استأجر لها شقَّة في عمارة أبو خضرا على طريق يافا تلّ أبيب. ولكنْ، برَغْم هذه الشائعات، لم يكن حبيب يتردَّد في مَدِّ يد العون لأيٍّ من أفراد أسرته وأصدقائه، بمَنْ فيهم شقيقه إسماعيل.

الأرملة الشابَّة: أُمُّ زهرة

بعد أن أكمل صبحي التخطيط لجولته الاستعراضية الكبرى، بدأ بالسير في الزقاق الضيِّق الذي يربط حيَّه، المنشيّة الشَّمالية، بشارع حسن بيك. مدرِكاً لأناقته وحسن مظهره، أخذ يحيِّي كلَّ شخص يعرفه، وأيضاً كلَّ شخص حدَّق فيه محاوِلاً أن يعرف مَنْ هو.

«ولك صبحي، هاد إنت! يااه، شو هالأناقة؟ شو صاير معك؟ ما تقلِّي إنَّك بدَّك تتجوَّز غيري!»، صرخت أُمُّ زهرة بأعلى صوتها وهي تتدلَّى من شرفتها في الطابق الأوَّل. صمتت لبُرْهَة حتَّى تصدِّق ما تراه عيناها من جمال وأناقة، ثمَّ أضافت: «يا ريت لو زهرة مش في المدرسة عشان تشوف قدِّيش البدلة لابقتلَّك، يخزي العين، وما شاء الله!». كانت تقف على حافَّة الشرفة المليئة بنباتات مزهرة، مثل نبتة المجنونة أو البوغنفيليا والخبِّيزة وإبرة الراعي والورد الجوري الأحمر. ومع أنها توقَّفت عن شدِّ حبل الغسيل المعلَّق على عرض

الزقاق، إلَّا أن جسدها ظلَّ منحنياً فوق «الدرابزين» المعدني حتَّى كادت تفقد توازنها.

«صباح الخير، أُمّ زهرة»، أجابها صبحي وهو يبتعد بأسرع ما يستطيع عن مدخل بيتها، متجنِّباً النظر في عينَي جارته الأرملة.

لم ينسَ، ولن ينسى طوال حياته، كيف أخذته أُمُّ زهرة من يده قبل بضعة أشهر، ودفعتْهُ إلى جدار المطبخ، وضغطت بجسدها الفائر على جسده، وقبَّلتْهُ قُبلة فرنسية، ثمَّ لمست أعضاءه. ركض خارجاً من شُقَّتها، ونزل درجات البناية مسرعاً باتِّجاه الشارع وهو يحاول أن يغطِّي انتصابه بكفَّيْه ويخفيَهُ تحت قميصه الفضفاض. لم يغمض له جفن في تلك الليلة بسبب مزيج من الإحساس بالصدمة والإثارة، وظلَّ يمارس العادة السرِّيَّة مرَّة تلو الأخرى، إلى أن صاح به أخوه الأكبر جمال الذي يشاركه غرفته: «اصحى، يا صبحي، مين هاي اللِّي عم تحلم فيها؟»، ومع أن جمال أدرك أن صبحي لم يكن يحلم، إلَّا أنه لم يحبّ أن يُحرِج أخاه الأصغر. بعدها، كلَّما زارت أُمُّ زهرة والدة صبحي كانت تعبِّر عن رغبتها في أن يتزوَّج صبحي من ابنتها زهرة، ولكنها لم تكن تعرف أن قلب زهرة وقلب صبحي كانا ملتهبَيْن بحبِّ أشخاص آخرين. «إن شاء الله خير»، تجيب أُمُّ صبحي مُشفِقة على جارتها الأرملة التي أعدم الإنگليز زوجها في أثناء ثورة 1936، عندما كانت زهرة لا تزيد عن العام.

هاني

كان من النادر مرور السيَّارات في زقاق حيِّه الضيِّق، إلَّا أنه سمع واحدة من ورائه، فوقف ملاصقاً للجدار، ليسمح لها بالمرور، مع حرصه الشديد على ألّا تتَّسخ بدلته. انتظر مرور السيَّارة، ولكنها لسبب ما توقَّفت، ثمَّ سمع صفير هاني اللعوب قبل أن يرى رأسه يطلُّ من نافذتها:

«يا إلهي، هاد إنت، يا صبحي؟ خير إن شاء الله، شو صاير بالدنيا؟ شفتك من بعيد، وسألت حالي شو بيعمل هالشب الحليوة في حارتنا؟ خَبِّرني شو مناسبة كلّ هالأناقة، ما تقولِّيش رايح تتجوَّز بعزّ الضهر!».

«لأ، أنا مش رح أتجوَّز لا الضهر ولا العصر. أنا رايح عالشغل، بتقدر توصِّلْني؟».

«بدَّك تقلِّي إنَّك رايح عالكراج بهالبدلة، ولَّا غيَّرت شغلك؟ يَلَّا، خلِّصنا، احكيلي شو القصَّة. اركبْ اركبْ، خلِّيني أفهم شو صاير معك».

سار صبحي حول السيَّارة وهو يعدِّل جاكيت البدلة قبل أن يجلس في المَقْعَد الأمامي. كان حريصاً على أن يجلس مستقيماً حتَّى لا «تتجعلك».

«يبي خسارة؟ فكَّرت حالي محظوظ اليوم!».

«محظوظ؟»، أجاب صبحي دون أن يفهم قصد هاني.

«شو مالك، يا رجل! خَلِّصنا عاد، هو أنا لازم أشرحلك كلّ شي؟».

وبعد صمت قصير، بدأ هاني يندب حظَّه: «أقسم بالله، تمنِّيت إنَّك واحد بيدوِّرله على صيدة وعامل حاله تايه في حارتنا. إنت عارف، كتير من الرجال الأغنيا بيشتهوا ولاد متلنا. يا خسارة، كان ممكن تكون لُقطة منيحة».

«لُقطة؟ شو قصدك؟».

«خلصْ، اسكتْ، يا رجل، بِدِّيش أحكي في الموضوع أكتر من هيك، بصراحة أنا مش عارف إنت غبي أو بريء زيادة عن اللزوم! أحسن آخدك

عالكراج عشان تصلِّح حدايد وتلغمط إيديك بالزيت، هاد كلّ همَّك في الدنيا، ما أنا عرفت إنَّك مهووس بهالقصص من يوم ما فَكْفَكْتِ بسكليتّي لتلاتة وخمسين قطعة».

صحيح أن المحرِّكات كانت شَغَف صبحي، ولكنها، بالتأكيد، لم تكن شَغَفَهُ الوحيد، على الأقلّ ليس اليوم.

ما إن وصل شارع المحطَّة ورأى ستوديو تصوير صابونجيان حتَّى راودتْهُ فكرة جهنَّميَّة، ولأنه كان يعرف أنه لن يرى شمس قبل منتصف آب عندما يبدأ موسم النبي روبين، فقد فكَّر ببديل: ليش ما أفوت عالاستوديو، وأطلب منه ياخدلي صورة ببدلتي الإنكليزية، وأودِّيها لشمس؟ أمَّا كيف ومع مَنْ سيرسل الصورة؟! فهذا ما سيفكِّر فيه لاحقاً.

«نَزِّلني عند ستوديو صابونجيان، بدِّي أتصوَّر».

«هاد الحكي المزبوط، هاد كلام معقول، مش إني آخدك عالكراج بهيك بدلة».

«شكراً كتير هاني»، قال صبحي، ثمَّ تذكَّر كيف كان الجميع يقولون عن هاني «بنُّوتة» منذ أن كان طفلاً، وبتردُّد أدخل رأسه من نافذة السيَّارة، وقال: «إن شاء الله تلاقيلك لُقطة منيحة».

«وإنت كمان، يا صبحي».

وافترقا وهما يضحكان بصوت عالٍ.

في طريقه إلى الاستوديو تساءل صبحي إن كانت بدلته ستثير في شمس الرغبات نفسها التي أثارتْها في امرأة أرملة ورَجُل مِثْلِيٍّ، ثمَّ أطلق تنهيدة، وأكمل طريقه.

9
ستوديو صابونجيان

بثقة لامتناهية لم يعهدها في نفسه من قبل، فتح صبحي باب ستوديو التصوير، وحيَّا المصوّر الأرمني رافي صابونجيان الذي ردَّ التحيَّة مخاطِباً صبحي بصيغة المؤنَّث كما يفعل الأرمن جميعهم عندما يتحدَّثون العربية، مستخدمين ضمير المخاطب أنتِ بدل أنتَ للأولاد والرجال. ابتسم صبحي، ولكنه تذكَّر كم شعر بالإهانة عندما خاطبه زبون أرمني بصيغة المؤنَّث «إنتِ». حينها قال له صبحي: «شايفني بنت قدَّامَك؟ ولَّا عمرك شفت بنت بتشتغل ميكانيكي في كراج؟». لاحقاً أصبح هو وهذا الزبون صديقَيْن حميمَيْن، بعد أن شرح له أن اللغة الأرمنية لا تميِّز بين المذكَّر والمؤنَّث، وتحوَّل الموضوع إلى نكتة بينهما، تذكَّراها كلَّما التقيا. ومنذ ذلك الوقت، بدأ صبحي يخاطب زبائنه الأرمن بالضمير «إنتِ» لكسر الجليد، وهذا ما أراد أن يفعله مع المصوِّر صابونجيان، فخاطبه بالضمير «إنتِ»، ولكن المصوِّر انزعج لاعتقاده بأن صبحي كان يسخر منه، فقال مستخدِماً «إنتِ»: «لمَّا إنتِ تحكي أرمني زَي ما أنا بحكي عربي، وقتها بتقدري تتمسخري على لهجتي العربية».

«أنا متأسف، سيِّد صابونجيان، ما كانش قصدي».

«إزاً، خَلِّينا رسمي، وقوليلي إيش بدِّك».

«لو تكرَّمت بدِّي أتصوَّر».

حاول صبحي جاهداً أن يكون بالغ التهذيب حتَّى يلطِّف الجوَّ المتوتِّر الذي تسبَّبت به نكتته غير الموفَّقة، أو، كما كانت تقول جَدَّته صبحية: «رفع التكليف بيقلِّل الهيبة».

«كم لقطة بدِّك؟ وكم نسخة من كلّ وحدة؟ وبدِّك الصور أسود وأبيض ولَّا ملوَّنة؟».

«لقطة وحدة بالأسود والأبيض»، قال صبحي قلقاً من التكلفة، ثمَّ غيَّر رأيه: «بتقدر تعملِّي نسختين ملوَّنات من نفس اللقطة؟». نسخة يرسلها الى شمس، وأخرى يحتفظ بها لنفسه ذكرى لليوم الذي لا يُنسَى.

«هادا بيكلفك تلاتين قرش».

كانت الثلاثون قرشاً هي يوميَّة صبحي، ولكنه وافق دون تردُّد: «طيِّب، اتَّفقنا».

«في الغرفة اللِّي ورا بتلاقي مراية ومشط، روحي جهزي حالك».

لأن هذه كانت صورته الأولى، ولأنه لم يكن يعرف تحضيرات ما قبل التصوير، فقد ظنَّ أن رافي يعترض على قَصَّة شَعْره الجديدة.

«طيِّب، رح أروح أزبِّط شَعْري وأستعدّ، بس إيمتى بتكون صورتي جاهزة؟».

«بكره بعد الضهر».

انفرجت أساريره عندما رأى نفسه في المرآة الطويلة. حينها فقط أدرك ما الذي أثار مشاعر أُمّ زهرة الأرملة والبنُّوتة هاني.

«شو الخلفيَّة اللِّي بدِّك ياها؟ في عندك بحر وقصر فرساي

وإسطنبول وساعة بيغ بن في لندن، مين بدِّك فيهم؟». ومع أن صبحي لم يرَ أيّاً من هذه الأماكن، إلّا أنه اختار إسطنبول.

«بدِّك تتصوَّري واقفة، ولا قاعدة على كرسي، ولا كنباية؟».

«واقف طبعاً»، أجاب دون تردُّد.

«متل ما بدِّك، مع إنه أكتر الناس بيفضلوا يتصوَّروا قاعدين، خصوصاً العائلات».

«بوعدك آجي قريب، إن شاء الله، مع مرتي وولادي».

«إنتِ خاطبة؟».

«يعني بتقدر تقول هيك».

«شو يعني؟».

بينما كان صبحي يفكِّر بإجابة مناسبة، كان رافي قد اختفى تحت قماش الكاميرا الأسود الحاجب للضوء.

«وقفي ثابتة، ما تتحرّكي، ابتسمي»، تلاحقت تعليمات رافي من تحت القماش قبل أن يباغت عينَي صبحي بومضتَينْ متتاليتَينْ من ضوء الفلاش الساطع.

الآن وقد ضمن الحصول على صورة لشمس وأخرى لنفسه، خرج صبحي من الاستوديو مبتهجاً، وقد غمرتْهُ النشوة لطبع وتوثيق صورة بدلته الإنكليزية على الورق. عاودتْهُ فكرة الذهاب إلى الخواجا ميخائيل ليشكره على كرمه، وأيضاً ليريَهُ كم أصبح مظهره مختلفاً في بدلته الإنكليزية. ولكنْ، قبل الظهور على بوَّابة فيلَّا ميخائيل في حيّ الجبليَّة، خطر له أن

يمرَّ من أمام مقهى الانشراح في شارع المحطَّة، حيث يلتقي العديد من خواجات يافا وشخصيَّاتها السياسية ومثقَّفيها، أو ربَّما من أمام قهوة داود الواقعة في أسفل الشارع في سوق الصلاحي، حيث يلتقي معظم تجَّار البرتقال لشرب قهوتهم الصباحية، وأيضاً لعقد صفقاتهم التجارية. ولكنه فكَّر بأن من الأفضل أن ينتظر حتَّى يقترض بضعة جنيهات، تمكِّنه من دفع ثمن الحلويات الشهية وبوظة الفستق الحلبي والمستكة العربية التي كان كثيراً ما يشاهدها في المقاهي الفاخرة التي يعتزم أن يذهب إليها بعد الظهر، ولكنه لم يكن يملك ثمنها. كان بحاجة لهذه الجنيهات الإضافية أيضاً لحضور الفيلم المصري الذي خطَّط لمشاهدته في سينما الحمراء الشهيرة في شارع الملك جورج، بدلاً من الذهاب إلى سينما نبيل المتواضعة، حيث كان يذهب عادة مع رفاقه.

فكَّر صبحي في الأمر طويلاً قبل أن يأخذ قراره بأن يستدين الجنيهات التي يحتاجها في جولته من عمِّه حبيب، وليس من المعلِّم مصطفى، فمن الأفضل أن يكون مَديناً لأحد أفراد عائلته، وليس لمعلِّمه. في واقع الأمر، لم يكن صبحي متأكِّداً من ردَّة فعل المعلِّم مصطفى على قبوله لهدية ثمينة كهذه من زبون، خاصَّة وأنه زبون جديد، ومختلف عن باقي الزبائن. آخر ما كان يريده هو تنغيص يومه بإثارة غَيْرَة لا ضرورة لها لدى معلِّمه، فهو، بالتأكيد، في غنى عن أن يشعر بالذنب، أو الأسوأ من هذا أن يتلقَّى درساً في الأخلاق في هذا اليوم بالذات.

نظر صبحي إلى ساعته قبل أن يتوجَّه إلى الميناء، وبالتحديد إلى قهوة البَحَّارة المعروفة بقهوة المدفع، حيث توقَّع أن يجد عمَّه حبيب. عَلَت وجهه ابتسامة خفيَّة وهو يتذكَّر طريقة والده الساخرة إذا سُئل عن أماكن تواجد أخيه الأصغر: «أخوي الدِّيْن اللِّي بقطعش فرض، برجع من

بارات وملاهي تلّ أبيب مع صلاة الفجر، وبينام من صلاة الفجر لصلاة الضهر، وفي موعد صلاة العصر بتلاقيه في المينا بلعب قمار مع البَحّارة والصيَّادين في قهوة المدفع، وعند صلاة المغرب بتلاقيه سكران في قهوة لورانس عطريق تلّ أبيب لحدّ صلاة العشا، وبعدها لحدّ نصاص الليالي بتلاقيه في أحضان وحدة من شراميط شارع شلوش. هاد هو برنامج أوقات أخوي الدَّيِّن». حسب نظرية والده، ولأن الوقت كان قريباً من صلاة العصر، توقَّع صبحي أن يجد عمَّه حبيب في قهوة المدفع، أو في مكان ما في الميناء.

كان صبحي معجباً بطريقة والده في توقيت نشاطات أخيه الأصغر اليومية. من الواضح أنه لم يكن فقط يعبِّر عن استيائه من أسلوب حبيب في الحياة، ولكنه أيضاً أراد أن يؤكِّد كم كان هو نفسه تقيَّاً. ولكنه كان معجباً أكثر بردِّ عمِّه حبيب اللامبالي على إهانات واتِّهامات أخيه الأكبر المتكرِّرة: «السلطان عبد الحميد عم بتقلَّب في قبره لإنُّه شايف وسامع قدِّيش لسَّاتكم متخلّفين بتوقّتوا أشغالكم وأعمالكم على مواعيد الصلوات الخمسة بدل ما تستعملوا ساعة البرج الضخمة اللِّي حطلّكم اياها في نُصّ البلد، مش بس حطّ ساعة في يافا، كمان حطّ في القدس وعكَّا ونابلس وبيروت ودمشق أبراج ساعات متلها، مسكين هالسلطان، عمل جهده عشان الناس اللِّي زيَّك يتحضَّروا، بس عالفاضي». ولكن الشيء الذي تجاهل والد صبحي عامداً أن يذكره هو أن حبيب كثيراً ما كان يذهب إلى الميناء ليعمل على القوارب الصغيرة التي تنقل صناديق البرتقال من الميناء إلى السفن الكبيرة الراسية على بُعد كيلومتر أو اثنَيْن في عرض البحر، بسبب طبيعة مياه الميناء الصخرية الضحلة. كان حبيب، مثل والده علي، صيَّاداً ماهراً، وكثيراً ما كان يذهب إلى البحر، ليعود مُحمَّلاً بمختلف أنواع السمك: اللُّقُّز والقاروص والبريم

والسلطان إبراهيم والسردين والمشط والملّيط، الذي كان يوزِّعه على عائلته وأصدقائه في الميناء. وعلى عكس والد صبحي إسماعيل، كان حبيب يحبُّ البحر، ويجد نفسه فيه ومع الصيَّادين والبَحَّارة أكثر ممَّا كان يحبُّ بَيَّارَات البرتقال، وكان يشعر بالفخر، مثل الكثيرين من بَحَّارة يافا، لأن اتِّحاد البَحَّارة وليس اتِّحاد مصدِّري البرتقال هو الذي رعا رحلة أُمِّ كلثوم وحفلاتها، ليس فقط في يافا، بل أيضاً في مُدُن أخرى.

في طريقة إلى الميناء كان صبحي يفكِّر كم كان والده وعمُّه شخصيَّتَيْن مختلفتَيْن. فبينما كان والده جِدِّيّاً محافظاً دائم التذمُّر، كان عمُّه حبيب مرحاً وكأنه خالٍ من الهموم، يعيش حياة مليئة بالتناقضات. كان الأخوان مختلفَيْن أيضاً في آرائهما السياسية، فمثل معظم التجَّار، وخصوصاً تجَّار البرتقال الأغنياء، كان والد صبحي مؤيِّداً لحزب الدفاع المعتدل «المعارض»، الذي تقوده عائلة النشاشيبي المقدسيَّة المتحالفة مع الملك عبد الله، ملك الأردن، في حين أيَّد حبيب وصيَّادو السمك الآخرون الحزب العربي الفلسطيني (المجلسيُّون) بقيادة الحاجّ أمين الحسيني، الذي تبنَّى سياسة تصادمية ضدَّ العصابات الصهيونية والجيش البريطاني، وبالتالي كان مؤيِّداً لجيش الجهاد المقدَّس بقيادة عبد القادر الحسيني، الذراع العسكرية للحزب العربي الفلسطيني. كان الخلاف بين حزب الدفاع والحزب العربي الفلسطيني، أو بين العائلتَيْن المقدسيَّتَيْن، آل النشاشيبي وآل الحسيني، مماثلاً لخلافهما بشأن ثورة 1936 والإضراب الكبير الذي استمرَّ ستَّة أشهر. ففي حين دعا حزب الدفاع الذي تقوده عائلة النشاشيبي إلى إنهاء الإضراب، أيَّد الحاج أمين الحسيني الإضراب المفتوح. وحتَّى لا ينحاز لأحد الطرفَيْن، اختار صبحي، مثل العديد من الشباب الأعضاء في النادي الرياضي الإسلامي، الانضمام إلى حزب «النجَّادة» الذي كان يقوده في يافا محمَّد

نمر الهوَّاري. وتحت غطاء النشاطات الرياضية، بدأ النادي الإسلامي الرياضي، أو حزب «النجَّادة»، بتدريب الشبَّان مثل صبحي سرَّاً على استخدام السلاح لحماية أحيائهم، ولاحقاً مدينتهم إذا اضطرَّ الأمر، من اعتداءات العصابات الصهيونية المتصاعدة، خصوصاً عصابات الهاغاناه وليحي.

بينما كان صبحي يمشي متمهِّلاً في شارع بسترس الشهير، كان يتوقَّف، بين الفينة والأخرى، أمام إحدى ڤترينات ملابس النساء الأنيقة، ويفكِّر بشمسه. ومع أنه لم يكن يملك ما يشتري به أيَّاً من الفساتين الفاخرة التي رآها، ولكن هذا لم يمنع مخيِّلته الخصبة من انتقاء أجمل ما رأى لجهاز عروسه. ومن جديد تاه في شوارع يافا، وتاه فكره في شمس وتفاصيل يوم الزفاف.

10
مقهى التيوس

بعد طول تفكير، ارتأى صبحي أنه من الأفضل أن يختبر ردود الفعل على بدلته بين أصدقائه ومعارفه في مقهى «التيوس»، مقهى الفقراء الذي يملكه التَّوْءَم عيسى وموسى، وذلك قبل أن يذهب لاستدانة بعض الجنيهات من عمِّه حبيب، وقبل أن يغامر بالذهاب إلى المقاهي الراقية وسينما الحمراء.

كان الخلط بين الأخوَيْن التَّوْءَم عيسى وموسى أحد مصادر التسلية لزبائن المقهى، فكلَّما تأخَّر عيسى في تلبية طلب أحد الزبائن بفنجان من القهوة أو أرجيلة، كان يبتسم ويقول: «أكيد إنت طلبتُه من أخوي ومش منِّي». ورَغْم أنهما تَوْءَم متطابقان، إلَّا أن الفارق الوحيد بينهما كانت له تداعيات كبيرة. فأحدهما، عيسى أو موسى، كان أحول العينَيْن، وكلَّما صبَّ فنجاناً من القهوة أو كأساً من الشاي، وهو ما كان يحدث مئات المرَّات في اليوم، كان الزبائن يصرخون ويقفزون إلى الخلف خشية أن تنسكب القهوة أو الشاي الساخن عليهم.

لم يبدُ أن أحداً يعرف، أو كان يهمُّه أن يعرف، سبب تسميته بمقهى التيوس، ومَنْ هم، يا ترى، هؤلاء التيوس؟ أهم صاحبا المقهى التَّوْءَم عيسى وموسى أم زبائن المقهى الفقراء المعتَّرون؟! ولكنْ، في الأحوال كلِّها، كان الاسم سبباً آخر لتسلية المالكين والزبائن على حَدٍّ سواء. كان مقهى التيوس المكان المفضَّل الذي يلتقي فيه صبحي بشلَّته بعد

العمل مباشرة أو في ساعات المساء المتأخِّرة، حيث يقضون وقتهم يلعبون الورق أو طاولة الزهر وسط دخان الأراجيل الذي يملأ المكان، ويحجب الرؤية. ولكونه من أرخص المقاهي وأكثرها تواضعاً، كان مقهى «التيوس» ملتقى العمَّال المصريِّيْن الذين كان معظمهم من العريش، والعمَّال السوريِّيْن «الحوارنة»، إضافة إلى العمَّال الفلسطينيِّيْن القادمين من غَزَّة والقرى المجاورة.

وكالبلدات القديمة المقسَّمة إلى حارات عِرْقِيَّة أو دينية (كحارة النصارى وحارة اليهود وحارة الأرمن)، كان المقهى مقسَّماً إلى أربع مجموعات عِرْقِيَّة، تتميَّز كلٌّ منها بلهجتها الخاصَّة وملابسها التقليدية المختلفة عن ملابس صبحي وأبناء يافا الآخرين.

من مسافة بعيدة، وقبل أن يقترب صبحي من الرصيف حيث كان يجلس عمَّال المياومة على كراسي القهوة القشّ، يدخِّنون الأرجيلة، سمع صوت أُمِّ كلثوم يصدح من غرامافون نحاسي، وُضع على طاولة خشبية بقرب المدخل، وبجانبه عدد كبير من الأسطوانات المغبرَّة لمغنِّين مصريِّيْن آخرين، مثل سيِّد درويش، ومحمَّد عبد الوهاب، وليلى مراد، وأسمهان، والمغنِّية اللبنانية صباح. ولأن معظم الأسطوانات كانت مشروخة، كان يكفي تشغيل أسطوانة واحدة فقط، لتظلَّ تتكرَّر طوال النهار.

ولأن العمَّال المصريِّيْن كانوا أكثر عدداً من «الحوارنة» و«الغزازوة» وأبناء القرى الفلسطينية، فقد طغت الأصوات المصرية والوجود المصري، ليس فقط على مقهى «التيوس»، ولكنْ، أيضاً على أحياء يافا الفقيرة. كان هذا هو الوضع منذ أن احتلَّ إبراهيم باشا المصري فلسطين سنة 1831. ومع أنه هُزم لاحقاً في سنة 1840، وفرَّ عائداً إلى مصر، إلَّا

أن العديد من عساكره اختاروا البقاء في فلسطين، وبنوا لأنفسهم مناطق سكنية خارج أسوار يافا، من بينها أحياء الرشيديَّة والمنشيَّة وسكْنة أبو كبير إلى الشَّمال، وأحياء أصغر مثل سكْنة درويش إلى الشرق، وجميعها تحمل أسماء القرى المصرية التي جاء منها هؤلاء العمَّال. ومع أن معظم سكَّان هذه الأحياء كانوا عمَّال مياومة في الصناعات المتعلِّقة بتسويق الحمضيات وتصديرها، إلَّا أن بعضهم كان يعمل في قطاعَي الإنشاءات والخدمات.

«تفضَّل، تفضَّل، شرِّفْ، يا خواجا»، قال أحد التَّوْءَم مرحِّباً بصبحي، ظنَّاً منه أنه زبون غني جديد.

«ومين إنتَ؟ موسى ولَّا عيسى؟»، سأله صبحي وهو يمازحه، كما كان يفعل كلَّما وصل إلى المقهى.

نكتة صبحي جعلت أحد التوءَم يحدِّق في وجهه، ويقهقه بصوت عالٍ، ويصيح: «يا ملعون، أبو ديكك! هادا إنت؟ شو هالأناقة، يا رجل؟ والله العظيم ما عرفتَكْ».

«ولا أنا عرفتك، إنت مين موسى ولا عيسى؟»، كرَّر صبحي السؤال ضاحكاً.

« والله العظيم فكَّرتك خواجا عن حقّ وحقيق، خواجا مضيِّع طريقه، وجاي على قهوتنا بالغلط بدل ما يروح على قهوة الانشراح».

ملاحظة موسى رسمت ابتسامة على وجه صبحي، وطمأنتْهُ إلى أنه يمكن أن يعتقد الآخرون أنه خواجا أباً عن جَدٍّ، فقد كان قلقاً من أن يبدو للمثقَّفين والتجَّار الأغنياء الذين يرتادون مقهى الانشراح كزبون فقير، أو كفلَّاح يأتي المدينة لأوَّل مرَّة.

«وأنا، صدِّق أو لا تصدِّق، يا موسى، رايح هناك بعد شوي»، وجَّه كلامه إلى المالك، ولكنه حرص على أن يسمعه زبائن القهوة جميعهم الذين كانوا يتابعون الحوار باهتمام بالغ.

«أوَّل إشي أنا عيسى مش موسى، وتاني إشي، بس فهِّمني ليش الناس تيوس بيدفعوا أربع قروش حقّ فنجان قهوة لمَّا بقدروا يدفعوا قرش واحد في قهوتي؟».

«بس قهوة التيوس اسم قهوتك، مش اسم قهوة الانشراح»، قال صبحي ضاحكاً.

«سَمُّونا قهوة التيوس من ورا الزباين أمثالك، يا صبحي. وبالمناسبة، أنا موسى مش عيسى»، قال أحد التَّوْءَم قبل أن تصدح ضحكته في أرجاء القهوة، وقبل أن يضيف: «لسَّاتك بتحبّ القهوة حلوة زيِّ العسل ولا غيَّرت زوقك متل ما غيَّرت شكلك؟».

«صحيح إنه صار عندي بدلة إنگليزية، بس لسَّه ما صار عندي زوق اللوردات الإنگليز. بس كمان الخواجات الحقيقيِّيْن بيشربوا قهوتهم مرَّة».

«أربع قروش على فنجان قهوة بدون سكَّر؟ والله كُفر!»، علَّق موسى أو عيسى، ثمَّ اختفى في المطبخ، ليحضِّر فنجان القهوة الحلوة «للخواجا صبحي».

ومع أن موسى أو عيسى لم يغبْ إلَّا قليلاً قبل أن يعود وفي يده صينية نحاسية مستديرة، عليها إبريق نحاسي، وكأس من الماء وفنجان من البورسلان الأبيض، إلَّا أنه اضطرَّ أن يشقَّ طريقه بين جمهور كبير من العمَّال الذين تجمَّعوا حول صبحي، ليعبِّروا عن إعجابهم ببدلته الإنگليزية، ليس فقط بكلمات الإطراء، بل أيضاً باللمس. ولخوفه من

أن تترك أيديهم الخشنة والقذرة بقعاً عليها، قرَّر أن يُسلِّيهم، فقام وبدأ يتمايل يميناً ويساراً بضع خطوات، مثل عارض أزياء محترف، ثمَّ استدار بحركة سريعة مبالغ فيها نالت إعجاب الجمهور: «يا عين، يا عين! وااو، يااااه، تفرَّج وشوف! يا عين يا ليل!»، صاح الحاضرون بانبهار ودهشة.

ورَغْم أنه اكتسب ثقة بمظهره الجديد في مقهى «التيوس»، إلَّا أنه ما يزال متخوِّفاً من أن يبدو دخيلاً في مقهى الانشراح الذي كان على وشك أن يذهب إليه بحثاً عن الخواجا ميخائيل. فكَّر بالمرور أيضاً من أمام مقهى داود، المعروف بمقهى تجَّار البرتقال، الواقع أسفل شارع الصلاحي، على أمل أن يلتقي الخواجا ميخائيل، أو إذا لزم الأمر، أن يصعد شارع إسكندر عوض باتِّجاه مقهى احميّد في شارع العجمي أمام المستشفى الحكومي.

إن مثَّل مقهى التيوس ومقهى الانشراح شيئاً، فقد مثَّلا الطرفَيْن النقيضَيْن في المنظومة الاجتماعية، وعكسا الفروقات الاقتصادية والاجتماعية الحادَّة في المجتمع اليافاوي.

11
مقهى المثقَّفين

ما إن داست قدما صبحي مقهى الانشراح، المكان الذي يتجمَّع فيه مثقَّفو يافا وتجَّارها الأغنياء وسياسيُّوها، بمَنْ فيهم رئيس البلدية وأعضاء مجلسها البلدي، حتَّى انتابه شعور عارم بالرهبة.

كان صبحي متلهِّفاً لِلِقاء بعض الصحفيِّينْ الذين يكتبون للصحف العديدة التي تُنشَر في يافا، وخصوصاً صحيفتَي فلسطين والدفاع اللتَيْن كان يقرؤهما يومياً. كما كان يرغب في التعرُّف إلى أو، الأصحّ، رؤية بعض شخصيات يافا السياسية، وخصوصاً يوسف هيكل، رئيس بلدية يافا، وأن يسمع توقُّعات هؤلاء المثقَّفين والسياسيِّيْن حول مستقبل مدينتهم، وبالتالي مستقبله مع شمس.

الآن وقد أعلنت الحكومة البريطانية نِيَّتها لإنهاء الانتداب على فلسطين خلال بضعة أشهر، فقد خشي صبحي، مثله مثل العديدين، أن يُترَك أهل يافا، ليخوضوا معركتهم وحيدين ضدَّ العصابات الصهيونية في تلِّ أبيب والمستوطنات اليهودية المحيطة، والمجهَّزة بأنواع العتاد كلِّه، ولكنه، مثل آخرين أيضاً، كان ضدَّ مشروع التقسيم المقدَّم من الإنكليز إلى الأمم المتَّحدة، لأن هذا المشروع يقترح منح أكثر من نصف مساحة فلسطين التاريخية إلى المهاجرين اليهود الذين طالما حاول والده وجَدُّه أن يُوقِفا تدفُّقهم عبر ميناء يافا، ولكنْ، دون جدوى. ومع أن يافا، أغنى وأكبر المُدُن الفلسطينية، بتعداد سكَّان يصل إلى 100

ألف، كانت في مشروع التقسيم جزءاً من الدولة العربية، إلَّا أن أهلها، مع ذلك، كانوا يخشون على مستقبلهم. وقد اختلفت الآراء حول كيفيَّة حماية يافا من الاعتداءات والهجمات الصهيونية المتصاعدة، ففي حين رأى بعضهم أن القوَّات الصهيونية سترِكِّز هجماتها على البلدات والقرى الفلسطينية الواقعة داخل الدولة اليهودية المقترحة، رأى آخرون أنه لا تجوز الثقة بنوايا الحركة الصهيونية التوسُّعيَّة. وكما كان يكرِّر علي جَدّ صبحي: «ما تأمنوش أبداً للصهاينة، لأنهم رح ياخدوا اللِّي مخصَّص إلهم، ويلاحقونا عاللِّي إلنا».

وهو يتذكَّر كلمات جَدِّه، وَجَدَ صبحي نفسه وجهاً لوجه مع أحد نُدُل مقهى الانشراح. فبينما كان مقهى «التيوس» ملكاً لتوءَم، كانا يخدمان الزبائن بنفسَيْهما، كان لدى مقهى الانشراح عدد كبير من النُّدُل، يلبسون زيَّاً موحَّداً: قميصاً أبيض، ناصع البياض، وبنطالاً أسود مَكوِيَّاً بإتقان. وما إن جلس إلى واحدة من الطاولات المستديرة المصنوعة من رخام كارارا الإيطالي الأبيض، حتَّى ظهر إلى جانبه نادل طويل وأنيق وفي يده قائمة الطعام. استغرب صبحي عندما أعطاه النادل كُتيِّباً مغلَّفاً بجلْد بنِّيٍّ، وذُهل عندما فتحه من كَمِّ خيارات المشروبات والمأكولات، والأَهمُّ من هذا وذاك الأسعار الجنونيَّة. تذكَّر ما قاله موسى أو عيسى: «بس الهُبُل بيدفعوا أربع قروش حقّ فنجان قهوة بدون سُكَّر»، ولكنه اكتشف أن الثمن، في الواقع، هو ضعف ذلك. وجد نفسه مضطرَّاً إلى إنفاق ثمانية قروش على الأقلِّ في انتظار ظهور الخواجا ميخائيل، هذا إن ظهر.

الآن، وقد أصبح واحداً من لابسي البدلات العديدين في المقهى، انشدَّ صبحي باهتمام إلى النقاشات الحامية من حوله:

«على رئيس بلدية يافا أن يلتقيَ برئيس بلدية تلِّ أبيب، ويوقِّع معه اتِّفاقية عدم الاعتداء».

«إن تصعيد هجماتنا على المستوطنات والأحياء اليهودية سيكون غلطة كبرى، صدِّقوني، نحن لن نستطيع مواجهة تفوُّقهم العسكري».

«لم يكتفِ الإنكليز بمساعدتهم على تهريب أحدث الأسلحة، ولكنهم، أيضاً، سمحوا لهم بالانضمام إلى قوَّات الحلفاء».

«الضغط العسكري اليهودي يتصاعد كلّ يوم، وسيهاجمون يافا قبل انسحاب القوَّات البريطانية، تذكَّروا كلامي هذا جيِّداً».

«ليس هذا فقط، ولكنهم سيفجِّرون يافا على رؤوسنا، ويطردوننا جميعاً منها».

«كُفُّوا عن هذا الكلام، فهذه الشائعات وأمثالها هي التي تُحبِط معنويات أهالي يافا، أنا ألتقي كلّ يوم بأشخاصٍ، يريدون أن يغادروا المدينة خوفاً من هذه الشائعات».

«الخوف من ماذا؟ صدِّقوني، اليهود جبناء، ولا يملكون أيَّ فرصة لهزيمة يافا».

«ومع ذلك، يجب أن نكون مستعدِّين للدفاع عن أنفسنا. يجب أن نشتري مزيداً من السلاح، وعلينا أيضاً أن نطلب من الدول العربية إرسال جيوشها قبل فوات الأوان».

«سواء أحببنا أم لا، فإنه لا يوجد أمامنا مخرج إلَّا الدخول في إضراب مفتوح ضدَّ مشروع التقسيم».

«هو هووو علينا، رجعنا!»، فكَّر صبحي، وهو الذي أمضى سنوات عُمُره يستمع إلى الجدل الدائم بين والده الذي كان ضدَّ الإضراب المفتوح، وعمِّه حبيب الذي كان مؤيِّداً له. فالرجلان لم يختلفا، فقط، حول التاريخ، وحول فوائد ومساوئ إضراب سنة 1936، ولكنْ، أيضاً

حول الدعوة الحالية للإضراب، الذي دعا إليه، أيضاً، المفتي الحاج أمين الحسيني وحزبه العربي الفلسطيني.

«إحنا عم نضرب ضدّ مين؟ ورح نضرّ مين؟ مين اللِّي اقتصاده بدُّه يتضرَّر، هُمَّه ولَّا إحنا؟ اقتصادنا إحنا اللِّي عم بيعاني، واقتصاد الصهاينة عم ينتعش. أي دخيل الله، شو اللِّي حصَّلناه من الإضراب غير تدمير الواردات والصادرات من مينا يافا؟ ما بتتذكَّروا قرارنا الغبي بمنع اليهود من استخدام مينا يافا، اللِّي خلَّى الإنكليز يوافقوا إنه ينبنى مينا يهودي في تلّ أبيب؟ وكانت النتيجة إنهم أخدوا كلّ الشغل من بين إيدينا. إن شاء الله كنتوا مفكّرين إنُّه التجَّار اليهود بدهم يستنُّوا تلت سنين لحدّ ما يخلص إضرابكم؟ طبعاً هُمَّه بنوا مينا إلهم، وسرقوا رزقنا، عيني عينك».

«إيش بدَّك يانا نعمل؟ نضلنا ساكتين نتفرَّج على المهاجرين اليهود وهُمَّه بينزلوا في المينا تاعنا وبيستوطنوا أرضنا؟ إحنا ما عنَّا أيّ خيار غير إنَّا نواجههم».

«بنواجههم، بس بطريقة ذكية، مش بطريقة بتئذينا».

«إنت بس احكيلي كيف، بنقول إضراب مفتوح بتقولوا لأ، بنقول نقاوم بالسلاح بتقولوا لأ، بنقول نهاجمهم بتقولوا لأ، كيف بالله عليك بدنا نقدر نمنعهم من إنهم يوخدوا بلدنا؟».

«كلّ اللِّي بقدر أقولَّك إياه إنه دعوة الحاج أمين الحسيني للإضراب المفتوح تسبَّبت في تدمير اقتصادنا، وهَلَّأ رح تدمّره مرَّة تانية. الإضراب كان غلط زمان، ولسَّاتُه غلط هَلَّأ، إحنا مش لازم نصعِّد مع اليهود، بالعكس، لازم نسمع كلام الأستاذ يوسف هيكل وكلام الأستاذ محمَّد نمر الهواري، ونلتقي مع رئيس بلدية تلّ أبيب، ونوقِّع اتِّفاقية عدم الاعتداء».

«حتَّى لو وقَّعنا الاتِّفاقية الزفت، وحتَّى لو كانت يافا جزء من الدولة العربية، صدِّقني اليهود مش رح يتركونا في حالنا. ومش سرّ إنه مناحيم بيغن، زعيم عصابات الهاغاناه، كان واضح لمَّا قال إنه بدهم يتخلَّصوا من المناطق العربية. إحنا في وسط بحر من اليهود، إذا ما كنتش ملاحظ. صحيح اللِّي بتقوله بس هُمَّه اللِّي أجوا واستوطنوا حوالينا، مش إحنا اللِّي إجينا وقعدنا في وسطهم، ما قدَّامنا غير إنُّه نكون مستعدِّين عشان نقاتلهم».

«نقاتلهم بإيش؟ بإيدينا الفاضية؟».

«عشان هيك لازم نشتري سلاح».

«نشتري سلاح من وين؟ اسمحلي، بس إنت بتحكي كلام مش منطقي».

بينما كان صبحي يستمع إلى المناقشات الحادَّة ووجهات النظر المختلفة، انتبه إلى أن الآراء المتضاربة كانت تأتي من الجانبَيْن المتقابلَيْن في المقهى. وبينما كان مقهاه المُعتاد مقسَّماً إلى أربع مجموعات عِرْقِيَّة مختلفة، كان مقهى الانشراح مقسَّماً بحسب الأحزاب، فأولئك الذين يؤيِّدون مفتي القدس الحاجّ أمين الحسيني وحزبه العربي الفلسطيني كانوا يجلسون إلى يمينه، بينما يجلس مؤيِّدو رئيس البلدية هيكل وحزب الدفاع، حزب آل النشاشيبي المعارض، وحزب النجَّادة بقيادة محمَّد نمر الهواري، إلى يساره.

«تفضَّلْ قهوتك»، قال له النادل وهو يضع أمامه فنجان قهوة من البورسلان الأبيض بحافَّة مذهَّبة، وقطعتَيْن من البسكويت على طبق مماثل، وفاتورة بثمانية قروش.

«من فضلك، سيدي، بتعرف الخواجا ميخائيل؟ ممكن يكون واحد من زباينكم؟ بتعرف وين ممكن ألاقيه؟».

«ولو، طبعاً، مين ما بعرف الخواجا ميخائيل؟ ممكن تلاقيه في مقهى داود في سوق الصلاحي مع تجّار البرتقان الكبار اللِّي متله. بتعرف وين بالضبط، مش هيك؟».

«طبعاً بعرف، مع إني عمري ما رحت هناك، بس رح أندل عليه أكيد».

«أنا أوَّل مرَّة بشوفك هون، يا أستاذ، إنت جاي زيارة على يافا؟».

شعر صبحي بالإطراء لمناداته بالأستاذ، فأجاب بابتسامة: «صحيح، هاي أوَّل مرَّة باجي هون»، ثمَّ وضع قروشه الثمانية العزيزة على الطاولة الرخام، وغادر المكان قائلاً لنفسه: «هاد أكيد رح يكون مقهاي إذا عمري صرت غني، مش بس بالمنظر، لكنْ، غني عن حقّ وحقيق. إن شاء الله قريب».

بعد أن ترك خلفه القروش الثمانية، فكَّر صبحي بضرورة المرور بمقهى عمِّه في الميناء، قبل المغامرة بالذهاب إلى مزيد من الأماكن الفاخرة، مثل مقهى داود، بحثاً عن الخواجا ميخائيل. تساءل بينه وبين نفسه عن مدى غنى هؤلاء الناس الذين يستطيعون قضاء ساعات وهم يأكلون ويشربون في مثل هذه الأماكن المُكلفة.

على عكس ما اعتقد صبحي، فعلى الرَّغْم من ازدهار زراعة البرتقال وتجارته في يافا أواخر القرن التاسع عشر، فإن يافا لم تمتلك أبداً أرستقراطيَّة إقطاعية، بسبب الحملات العسكرية والغزوات المتكرِّرة، مثل غزوات نابليون وإبراهيم باشا ونزوح السكَّان عنها، فالعديد من عائلاتها

الثريَّة جاءت من مُدُن مثل بيروت ودمشق وحلب ونابلس والقدس. كانت أكبر بَيَّارَة برتقال في يافا، بمساحة ألف دونم، ملكاً للحاج عبد الغني النابلسي، الذي جاء من نابلس، كما يدلُّ على ذلك اسمه، كذلك جاءت عائلات غنية، مثل عائلة بُسترس والعرقتنجي والجبجي من بيروت. كانت في يافا، أيضاً، جاليات أرمنية وإيطالية ويونانية صغيرة، سكن معظمها في حيِّ العجمي والجبليَّة، إضافة إلى سكَّان يهود محلِّيِّينْ قطنوا في البلدة القديمة والأجزاء الشَّمالية من المنشيَّة.

ما إن وصل صبحي إلى ساحة برج الساعة حتَّى لاحظ أنه تعوَّد على ارتداء البدلة، فقد منحه القبول الذي حظي به في مقهى الانشراح الثقة التي احتاجها لمواصلة جولته الكبرى في المدينة.

12
من عالم الصبا إلى عالم الرجولة

ما إن وقعت عينا حبيب على الشابِّ الوسيم بالبدلة الأنيقة حتَّى سقطت أوراق اللعب من بين يدَيْه وتبعثرت على الطاولة الخشبية أمامه. انتفض عن كرسيِّه واقفاً، وأطلق تصفيرة طويلة حين أدرك أن الشابَّ كان ابن أخيه.

«يا إلهي! ولك شو هاد، يا صبحي! كَنَّك ناوي تتجوَّز من ورا ضهرنا؟».

حدَّق البَحَّارة والصيَّادون في صبحي أوَّلاً، ثمَّ أخذوا يُنقِّلون نظراتهم بينه وبين عمِّه.

«برضاك ومساعدتك، يا عمِّي، ممكن أتجوَّز عن قريب».

«هَلَّأ عن جَد شو الحكاية، يا صبحي؟ اقعد جنبي هون، خلِّيني أفهم شو صاير»، قال حبيب وهو يسحب كرسيَّاً لصبحي، بينما ظلَّ اللاعبون الثلاثة الآخرون يراقبون المشهد. «ارتاحْ، خلِّيني أطلبلك فنجان قهوة. معلِّم عطا، جيب للخواجا صبحي أحلى فنجان قهوة عندك».

أشرق وجه صبحي بابتسامة واسعة وقد ملأتْهُ الغبطة لمخاطبته مرَّة بخواجا ومرَّة بأستاذ خلال جولته هذا النهار. اقترب بكرسيِّه من عمِّه حبيب، وهمس قائلاً: «رح أحكيلك كل إشي عن البدلة، بس نروِّح عالدار. بس قبل، بدِّي تداينِّي شويِّة مصاري ...»، وقبل أن يُنهيَ كلامه

ردَّ عليه حبيب: «طبعاً، طبعاً من عيوني، بس قولِّي قدِّيش بدَّك؟»، ثمَّ وقف وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقديَّة الخضراء، وبعض القِطَع المعدنية.

«جنيهين أو تلاتة، إذا ممكن»، أجاب صبحي متردِّداً.

«خُد هاي أربعة، بس قبل لازم تقولِّي عشو ناوي».

«زي ما إنت شايف، عم بحتفل ببدلتي الإنكليزية الجديدة، وبدِّي أعمل جولة كبيرة عشان أستمتع بالمدينة، وأعمل كلّ الأشياء اللِّي ما عملتهاش في حياتي لحدّ هَلَّأ: بدِّي أروح على مقهى فينيسيا وأوتيل الإنتركونتيننتال، وأحضر فيلم في سينما الحمرا».

«وبتسمِّي هاي متعة؟ تعال معي على شارع شلوش أو على طريق يافا تلّ أبيب عشان أفرجيك شو معنى المتعة الحقيقية».

أطلق أحد الصيَّادين ضحكة عالية، وقال: «ليش توخده على تلّ أبيب، خُده عند نجمة في البلدة القديمة».

«اليهود أشطر منَّا في كلّ إشي، حتَّى في الشرمطة»، أجاب حبيب وهو يقهقه بصوت عالٍ.

احمرَّ وجه صبحي خجلاً وهو يستمع إلى الحوار الدائر بين عمِّه والبَحَّارة والصيَّادين وهم يتفاخرون بمغامراتهم.

«خُده عند أبو شلهوب، عنده أحسن شراميط في البلد، وكمان أحسن أسعار».

«والله جرَّبتهم كلّهم، بس ما لقيت وحدة متل شوشانا. شرموطات

أبو شلهوب بيكونوا مستعجلات، وبس بدهم يخلصوا، ما بيضيّعوا وقتهم باللعب، تِك تُك، تِك تُك وخلَّصنا».

«هاد إنت، يا حبيب، اللِّي تِك تُك وخلص، مش النسوان المسخَّمات».

«أي خَلِّصنا، يا رجل، إنت عارف شو بقصد، هُمَّه بيكونوا مستعجلات عشان يلحقوا الزبون اللِّي بعده، وبتحس حالك إنَّك واقف عالدور في خطّ إنتاج. شوشانا بتعطي الإشي حقُّه، وبتعطيك كلّ شي بتحتاجه عشان تنبسط».

«اللِّي بيحكيه حبيب صحيح، بنات أبو شلهوب بيكونوا كأنهم بيأدُّوا واجب أو عليهم وظيفة بدهم يخلصوها، وما بيعطوك وقت عشان تنبسط».

«يا رجل، خُد منِّي، كلّ الخطايا والشرور أجتنا من الإنگليز واليهود، بما فيها الشراميط».

«إنت أكيد بتمزح، واضح إنَّك ما بتعرف تاريخك ولا تاريخ مدينتك، الدعارة طول عمرها موجودة هون من أوَّل الدنيا، قبل ما ييجوا اليهود وحتَّى قبل ما يجوا الفلسطينيِّيْن على هاي البلاد».

«مملكة الدعارة كانت أوَّل مملكة في فلسطين».

«قصدك إمبراطوريَّة الدعارة».

«أيوه، إمبراطوريَّة الدعارة سبقت الإمبراطورية الرومانية».

«اسأل أبوك ورح يقولَّك إنُّه أوَّل بيوت دعارة مرخَّصة كانت في البلدة

القديمة في يافا، وبعدها في حيّ المنشيّة. بس في زمن الانتداب البريطاني انتقلوا للشَّمال، لطريق يافا تلّ أبيب، ولحيّ نيفيه شالوم والأحياء اليهودية التانية».

«بتعرف، اسمع، يا ابنيِّي، أنا أكبر واحد في كلّ هدول اللِّي قاعدين، وأنا اللِّي بعرف، أرخص شرموطات في البلد هُمَّه «عرايس الليل»، اسأل جدّك علي وهُوّه اللِّي بيقولَّك. إنت بس امشي في الزواريب الضيقة في البلدة القديمة في الليل، ورح يطلعولك من كلّ زاوية، وإنت بتنقِّي ببلاش».

«ببلاش! بلا حكي فاضي، عروس الليل رح تعطيه سفلس»، صاح حبيب بأعلى صوته.

«عروس الليل؟ شو بتطلع هاي عروس الليل، يا عمّ؟»، تساءل صبحي وقد اختلط عليه الأمر تماماً.

«عروس الليل كانت تطلع في الزواريب الضيقة في البلدة القديمة في يافا، وهي، أو بالأصحّ هُمَّه، بنات حلوات لابسين أبيض، بيطلعوا في آخر الليل، بيمسكوا الزلام من إيديهم وبيغازلوهم، وبيحاولوا يغروهم بالزواج، لكن إزا الرِّجَّال ما استجاب لإغرائهم، بيبنوا حيطان من حجر حتَّى يمنعوه يهرب، وبعدين بيخطفوه، وبيخلّوه عندهم ساعات قبل ما يفلتوه، ولمَّا يوصلوا الرجال على بيوتهم متأخّرين كان دايماً في عندهم عزُر مقنع، لإنُّه حتَّى نسوانهم كانوا بيعرفوا عن عرايس الليل وقلَّة أدبهم».

«شو هاد، يا عمّ، إنت دايماً بتحكي عالمشكوف هيك مع صحابك؟».

«أيوه، حبيبي، إحنا صيَّادين وبَحَّارة، مش تجَّار برتقان ولا راهبات. وإنت كمان رح تتعلَّم إنُّه اللعب مع الشراميط هُوِّي أحسن إشي في

الحياة في يافا وتلّ أبيب. بس إنت استنَّى لمَّا تشوف شوشانا، رح تعلمك كلّ إشي بتحتاج تعرفه عن الجنس وأكتر».

«والله صحيح، و«الأكتر» اللِّي بحكي عنه عمَّك حبيب هُوِّي أحسن حشيش في البلد»، قال أحد اللاعبين الثلاثة على الطاولة ضاحكاً، وهو يدخِّن سيجارة حشيش.

«عن جَد؟»، سأل صبحي، وهو يستمع، فاتحاً فمه، إلى كلِّ ما كان يقوله البَحَّارة والصيَّادون حول الموضوع.

مُدرِكاً كم كان ابن أخيه بريئاً وجاهلاً بحقائق الحياة، وضع حبيب يده حول كتفَي صبحي قائلاً: «تعال، يا ابن أخوي، خلِّينا نروح نتمشَّى في الميناء، ونحكي عن أمور الحياة والدنيا بينَّا بدون ما حدا يسمع».

تساءل صبحي: «شو ضل يحكي عمِّي حبيب بعد اللِّي قاله هُوِّي والبَحَّارة والصيَّادين؟»، ولكن اقتراح عمِّه أسعده، لأنه وجد فيه فرصة ليخبره عن شمس، وعن أمله في أن يساعده في إقناع والده وإخوته الأكبر بالقبول بزواجه منها. وبعد كلّ الذي سمعه عن حياة الليل في المدينة، أراد أن يسأل عمَّه ماذا يعني بالذهاب إلى كرخانة للتنفيس عن نفسه بينما هو يحبُّ شمس.

«يا ابن أخوي، ربّنا خلق الكراخانات مش بس عشان تنفِّس عن حالك، لإنُّه هاد بتقدر تعمله لحالك، لكنْ، عشان تتعلَّم كيف تستمتع بالجنس بدون مسؤوليات، وبدون ارتباط عاطفي، بدون حمل وولاد ووجع راس، بس جنس، لا حبّ ولا كلام فاضي. مش الموضوع إنَّك تنام مع مرَّة كم مرَّة وتخلِّص في خمس دقايق، الأهمّ إنَّك تاخد وقتك وتلاعبها وتستمتع، وتحسّ بالحُرِّيَّة لمَّا تجرِّب كلّ الوضعيات. ما تستغرب أبداً إذا شوشانا ركبت فوقك مش إنت اللِّي ركبت فوقها. وأكيد رح

تعيدوا الكرَّة مرَّات ومرَّات، إنت بتركبها مرَّة، وهي بتركبك مرَّة، وهيك. إنت بتلاعبها وهي بتلاعبك، بس عشان تعمل كلّ هاد، بدَّك تشربلك كاس أو كاسين بيرة عشان تسترخي وتتخلَّص من خجلك».

«طيِّب، وشمس؟».

«مين شمس؟! وشو مالها؟!».

«شمس بنت حلوة من سَلَمِة، وهي حبّ حياتي».

«طيِّب، شوشانا رح تعلمك كيف تستمتع بالجنس، وكمان كيف تبسط مرتك أو شمسك في المستقبل».

«عن جَد؟»، قال صبحي وهو يتساءل إن كانت شوشانا ستعلِّمه فعلاً كلّ ما يحتاج أن يعرفه ليُسعد شمس.

«صدِّقني، يا ابن أخوي، شوشانا رح تعلمك كيف تبسِط هالبنت الفلَّاحة. وزي ما انت عارف بنات القرى خجولات، وانت لازم تتعلَّم كيف تخلِّيهم يتخلُّوا عن برودهم».

لم يفهم صبحي ماذا يعني البرود، ولكنه قرَّر أن يكتفي بهذا القَدْر بعد أن أخذ اليوم جرعة كافية عن الحياة والجنس.

«بس سؤال أخير، يا عمِّي».

«اسأل، هات أشوف».

ظلَّ صبحي صامتاً لإحساسه بالحرج من هذا الحديث كلِّه، وتردَّد في مشاركة عمِّه أفكاره.

«يلَّا، قول».

«ليش بيسمُّوا الصيَّادين والبَحَّارة أشاوس، مع إنه كلّ اللّي بيعملوه إنهم يروحوا عند الشراميط أو يحكوا عنهم؟».

«صدِّقني، يا ابن أخوي، إنك تروح عند شرموطة وتنام معها بدُّه شجاعة أكتر من إنَّك تواجه يهودي مسلَّح أو جندي بريطاني. شوف قدِّيش إنت مرعوب من فكرة إنَّك تروح على كرخانة. وعكل حال، المفتي الحاجّ أمين الحسيني هُوّه اللِّي سمَّى صيَّادين يافا أشاوس، مش إحنا. إحنا أبطال، لإنُّه إحنا اللِّي اكتشفنا إنُّه كتير من السفن اللِّي جابت المهاجرين اليهود عشان يستوطنوا في أرضنا كانت تهرِّب سلاح للعصابات الصهيونية، وكمان لإنُّه كلّ انتفاضات يافا بتبدا من هاد المينا، وبعدين بتنتقل لكلّ فلسطين، ومن هادا المينا بالذات بتبدا كلّ المسيرات والمظاهرات ضدَّ الإنكليز والصهاينة».

ومع أن حبيب كان رجلاً مُحبّاً لمتع الحياة، إلَّا أن صبحي لم يستغرب أنه كان واحداً من أولئك الأشاوس.

«طيِّب، يا صبحي، أنا عندي لعبة شَدِّة، لازم أخلّصها. روح استمتعْ بالمدينة على طريقتك لساعة أو ساعتين، وبعدين لاقيني في قهوة لورانس على طريق يافا تلّ أبيب. أنا ويَّاك لازم نشربلنا كاس أو كاسين بيرة قبل ما آخدك عند شوشانا اللِّي رح تعلمك شو معنى المتعة».

تاركاً البحر والميناء خلفه، أدرك صبحي، ولأول مرَّة في حياته، كم تختلف ثقافة البحر عن ثقافة الأرض والزراعة، وفهم أخيراً أنه إذا أراد أن يصبح أحد الأشاوس، فعليه أن يذهب ويواجه شوشانا.

استعرض في ذهنه كلَّ ما سمعه وتعلَّمه في ذلك اليوم، وانتابه شعور بأن بدلته الإنكليزية هي التي كانت تنقله من عالم الصبا إلى عالم الرجولة.

13
في الكرخانة

ترنَّح صبحي، وارتعشت قدماه، وخفق قلبه وهو يصعد خلف عمِّه حبيب درجات السُّلَّم المؤدِّي إلى كرخانة شوشانا. كان شعوره بالقلق والإثارة شبيهاً بشعوره في يومه الأوَّل في المدرسة قبل نحو عشرة أعوام. تذكَّر بوضوح اليوم الذي أخذه فيه والده من يده، وسلَّمه للآنسة أميرة، التي سيظلُّ يحبُّها حتَّى آخر يوم في حياته. شعر بصوت دقَّات عمِّه حبيب على الباب وكأنما تقرع في صدره.

بعد لحظات، فتحت الباب امرأة ضخمة تشبه الغجريات. كلّ شيء في تقاطيع هذه المرأة كان مُبالَغاً فيه: حجمها، فخذاها، وركاها، شَعْرها الأسود المرفوع على شكل شنيون، عيناها الواسعتان اللتان زادتهما خطوط الكحل الكثيفة اتِّساعاً، وشفتاها الشهوانيَّتان المرسومتان بأحمر الشفاه. رحَّبت بحبيب بصوت عميق، وكأنه ابن عمٍّ مفقود.

«أخلاً وسخلاً خبيبي خبيب، تفضَّلْ ادخلْ، تفضَّلْ»، قالت مرحِّبة، وفتحت الباب على اتِّساعه.

لم يستطع صبحي أن يمنع نفسه من الابتسام وهو يسمع «القهرمانة» صاحبة الكرخانة وهي تنطق الحاء خاءً، على طريقة اليهود الأشكناز عندما يتحدَّثون العربية. أمعن النظر في المرأة الضخمة، وشعر بالقلق ظنَّاً منه أنها شوشانا، ولكنْ، لدهشته، رأى خلفها خمس نساء شابَّات،

لفتت انتباهه من بينهنَّ شابَّة شقراء، أدارت كرسيَّها الخشبي باتِّجاههما، وقد جلست فاتحة ساقَيْها، وواضعة ذراعَيْها على ظهر الكرسي.

«ليا، هذا صبحي ابن أخوي، هاي أوَّل مرَّة بيجي على كرخانة، خبري شوشانا تدير بالها عليه، بس بشويش».

«وإنت خبيب؟».

«أنا باجي الليلة متأخِّر، بدِّي ابن أخوي ياخد راحته بدوني».

«أوَّل مرَّة، ها؟ أنا بِقْدِر أدير بالي عليه»، قالت الشابَّة التي لاحظت أن عينَي صبحي وقعتا عليها بمجرَّد دخوله.

«خلِّيكي في خالك، يا روشيل»، أجابتها ليا القهرمانة.

«تفضَّلْ، ارتاحْ، يا ولد، شوشانا راخ تيجيلك بعد شوي».

ومثل تلميذ مطيع جلس صبحي على كرسي، وانتظر لما بدت له أطول لحظات حياته وأكثرها إرباكاً.

«هيها إجت»، قالت القهرمانة عندما ظهرت امرأة سمراء نحيلة طويلة القامة، ترتدي فستاناً بنفسجياً مكشوف الصدر أبرز ثديَيْها العامرَيْن.

«شوشانا، هاد الشبّ الخلو ابن أخو خبيب، وخبيب بدُّه منِّك تعلميه».

«بسيطة، تعال معي»، قالت شوشانا وهي تمدُّ يدها لصبحي، الذي لم يأخذها خجلاً، ولكنه تبعها عبر الممرِّ الضيِّق.

أدخلتْهُ شوشانا إلى غرفتها، وأغلقت الباب: «أوَّل مرَّة بتيجي على كرخانة؟».

«صحيح».

«بفهم من هيك إنَّك ما عرفت نسوان قبل هيك؟».

«صحيح»، أجاب صبحي شوشانا التي كانت تسأله عن عذريَّته، مع أنه لم يكن يعرف أن مفهوم العذريَة ينطبق على الذكور أيضاً.

«خايف؟»، سألتْهُ وهي تهمس في أُذُنه.

«شوي».

«قَرِّبْ عندي، واحكيلي من إيش خايف»، قالت وهي تقف إلى جانب سريرها الضخم بعد أن خلعت ثوبها البنفسجي.

«ما بعرف».

«شو حاسس؟»، سألتْهُ شوشانا وهي تتحسَّس أعضاءه، وتفركها برقَّة، بينما أخذت تضغط ثدييْها بلطف على صدره. كانت يدها ما تزال تداعبه عندما اقتربت وطبعت قُبلة فوق شفتَيْه.

«شايف! ما في إشي يخلِّيك تخاف أو تستحي. تعال، امسكْ صدري، واعصره بين إيديك»، وأخرجت ثديَيْها من حمَّالة الصدر، ووضعت يدَيْه عليهما: «إحساس حلو، صح؟».

مع الوقت بدأ صبحي يتهيَّج، وصار قضيبه صلباً جدَّاً تحت بنطاله.

«خلِّينا نطيِّر هالعصفور الحلو من القفص قبل ما يكسره»، قالت شوشانا ممازحة وهي تنزل إلى الأسفل على ركبتَيْها.

«بدها تشلِّحني بنطلوني؟»، تساءل صبحي، ثمَّ مدَّ يده، وأنزل سحابه.

«يَلَّا حبيبي، اشلحْ».

رَغْم أنه كان مستثاراً بالكامل، إلَّا أنه لم يرغب في رمي بنطاله على الأرض حرصاً على بدلته الجديدة.

«يَلَّا، اشلح بنطلونك وأواعيك الداخلية»، فخلعها على الفور.

«استرخي، خُد وقتك، استمتعْ وامسكْ حالكْ ما تقذف بسرعة. كلّ ما طوَّلت أكتر، رح تستمتع أكتر، النسوان بيحبُّوا الرجال اللِّي بيمسكوا حالهم، فاهم؟».

كانت شوشانا تعطي صبحي التعليمات، ثمَّ أمسكت عضوه، ووضعتْهُ في فمها.

ضائعاً في شهوته، ظلَّ صبحي يتأوَّه ويتأوَّه، إلى أن وصل إلى النشوة.

وقفت شوشانا، ثمَّ استلقت على ظهرها في السرير.

«اشلحْ كلّ شي، وتعال تمدَّدْ جنب شوشانا».

خلع صبحي جاكيت بدلته، ورماه على الأرض كيفما اتَّفق، وتبع تعليمات شوشانا حرفياً.

«قَرِّبْ أكتر»، وأعطتْهُ قبلة فرنسية، خطفت أنفاسه، ولكنها أثارتْهُ من جديد. كان آخر ما يذكره شوشانا وهي تركب فوقه.

«إذا بدَّك مرَّة تالتة، بتِقْدِر تيجي إنت فوقي»، ففعل على الفور.

بعد الجولة الثالثة، فهم صبحي كيف يمكن للمرء أن يشعر بأنه «شبع من الجنس» لدرجة أنه لم يعد يطلب المزيد.

«لمَّا تيجي عندي المرَّة الجاية، رح نلعب ألعاب غير هاي».

كان صبحي قلقاً جدَّاً من ثمن هذه المتعة العظيمة، ولكنه وصل إلى محفظته، وسأل: «قدِّيش؟».

«عمَّك دفع عنَّك. بتمنَّى إنَّك استمتعت بخدماتنا، وما تنسى ترجع قريب».

«أكيد رح أرجع»، أجاب صبحي وهو يحاول أن يفهم كلمة «خدماتنا».

14
موسم النبي روبين

آب - أيلول 1947

لم ينَم صبحي تلك الليلة. كأسطوانة مشروخة ظلَّ يتردَّد في ذهنه صدى مقولة نساء يافا: «يا بتروبِنّي، يا بتطلِّقني!». ومع أنها التهديد الأكثر شيوعاً الذي طالما سمعه، مثل غيره من أطفال يافا، في حوالي ذلك الوقت من العام، إلَّا أنها المرَّة الأولى التي يدرك فيها حقيقة شعور والدته وهي تهدِّد والده بالطلاق مازحة، أو ربَّما جادَّة.

كان كلُّ ما يحلم به صبحي هو أن يمضي مع شمس شهراً كاملاً، ولهذا بدت تلك التهديدات وكأنها تتحدَّث بلسانه: «هَلَّأ فهمت ليش ممكن مرَّة تهدِّد جوزها بالطلاق إذا ما أخدهاش على موسم النبي روبين. والله أنا مستعدّ أقتل عشان أكون مع شمس طول شهر بحاله»، كان يتمتم لنفسه وهو يقفز من السرير استعداداً لاحتفالات رايات أو بيارق موسم النبي روبين، الافتتاح الرسمي للموسم. كانت احتفالات البيارق تُقام على ثلاثة أيَّام متتالية: يوم الاثنين في اللِّدّ، والثلاثاء في الرملة، والأربعاء في يافا. منذ كان طفلاً، كان يذهب مع الصغار الآخرين في حيِّه مرتدياً أفضل ملابسه إلى الجامع الكبير الواقع قرب ساحة برج الساعة (المُسمَّاة أيضاً ساحة الشهداء) لحضور مراسم رفع بيرق يافا. داخل المسجد وحوله كان يتجمَّع كبار المسؤولين في المدينة: مسؤولو الأوقاف الإسلامية، محافظ يافا وأعضاء المجلس البلدي

جميعهم، زعماء الأحزاب السياسية، التجَّار، زعماء الاتِّحادات، تتبعهم الشخصيات الدينية: الشيوخ والدراويش والصوفيُّون من مختلف الطُّرُق، كبار المسؤولين والموظَّفين الحكوميِّيْن، يتبعهم جميعاً نصف سكَّان يافا، وبالطبع صبحي وشلَّته.

في يوم الافتتاح يخرج سكَّان يافا من الجامع باتِّجاه ميناء المدينة وهم يحملون بيرق النبي روبين الأصفر، بينما يركض صبحي والصِّبْيَة الآخرون من بوَّابة الجامع، ليشاهدوا كيف كان صيَّادو السمك والبَحَّارة، ومن بينهم عليّ جَدُّ صبحي وعمُّه حبيب، يستعرضون قوَّتهم السياسية بحمل بيارقهم الخاصَّة، والمشاركة بأعداد كبيرة.

كان صبحي ينضمُّ إلى الصِّبْيَة الآخرين المنتشرين على جوانب الشوارع الضيِّقة، يتسلَّقون الأشجار أو الجدران العالية لمشاهدة الموكب الرسمي وهو يجوب الأزقَّة والأسواق في البلدة القديمة بمرافقة الفِرَق الموسيقية واستعراضات الخيَّالة. ومن وسط البلدة القديمة كان الموكب يصعد طريق العجمي، ثمَّ يلتفُّ من جديد عائداً إلى الجامع الكبير.

وما إن يُعلَن عن بدء الاحتفال رسمياً في يوم الجُمُعة عندما يصير البدر مكتملاً، كما جرت العادة، حتَّى تبدو المدينة وكأنها أُصيبت بجنون ضربة قمر، وقد استعدَّ أهلها للابتعاد عن حَرِّ المدينة الخانق تاركين وراءهم العمل الشَّاقَّ في موسم البرتقال، والذهاب للاستمتاع بأربعة أسابيع من العطلة على شاطئ البحر. وفي لمح البصر تُنشأ مدينة من الخيام في موقع النبي روبين، القائم على بُعد أربعة عشر كيلومتراً إلى الجنوب من يافا، بين شاطئ البحر المتوسِّط ونهر روبين، وهذا كلُّه تحضيراً للاحتفاء بالنبي الذي يرقد في مقامه المُقبَّب.

«لكنْ، مين روبين؟»، سأل صبحي جَدَّه عليّ ذات مرَّة.

«يقطع لسانك؛ يا ولد! هادا نبي، واسمه النبي روبين، مش روبين حاف».

«متأسِّف، يا سيدي، لكنْ، برضو مين هُوّه النبي روبين؟».

«النبي روبين هوّه ابن يعقوب».

«يعني هوّه يهودي؟».

«لأ، هوّه مش يهودي، مسلم».

«كيف ممكن ابن يعقوب أبو الإسرائيليِّيْن يكون مسلم؟»، سأل صبحي وقد اختلط عليه الأمر، محاوِلاً أن يجد تفسيراً منطقياً.

«يا ابني، إنت ما بتعرف إنُّه المسلمين بيآمنوا بكلّ الأنبياء اللِّي أجوا قبلهم، حتَّى لو كانوا يهود أو مسيحيِّيْن! موسى، عيسى، إسحق، إسماعيل، كلّهم. في مقامات كتيرة مقدَّسة عند التلات ديانات أو ديانتين عالأقلّ، متل الحرم الإبراهيمي في الخليل، وقبَّة راحيل في بيت لحم، ومقام الخضر في قرية الخضر، وغيرهم كتير، وكمان قبر يوسف جنب نابلس».

«بس أنا عمري ما شفت يهودي في موسم النبي روبين!».

«هاد مش صحيح، على أيَّامي لمَّا كانوا العرب واليهود عايشين بسلام مع بعض قبل ما ييجوا الإنگليز الأشرار على فلسطين، وقبل بكتير ما ييجوا الصهاينة، وقبل الشواشر اللِّي بدت بين العرب واليهود، كانوا كتير يهود ييجوا عالنبي روبين، لكنْ، بطَّلوا من بعد ثورة 1936، ويا خوفي إذا ضلَّت الشواشر تزيد إنُّه ما نقدر نحتفل بالموسم إحنا كمان».

«أدِّيش بتمنَّى، يا سيدي، لو إنِّي عشت على أيَّامك»، أجاب صبحي، رَغْم أن قلبه كاد يتوقَّف لمجرَّد التفكير بأنه في يوم قريب قد يُحرَم هو وشمس من قضاء العطلة الصيفية قريبَيْن من بعضهما بعضاً، إن لم يستطيعا أن يكونا معاً تماماً.

تابع صبحي تساؤلاته قائلاً: «صحيح، يا سيدي، إنُّه، قصدي النبي روبين، اندفن في تلات أماكن مختلفة؟ كيف بتصير؟».

«طبعاً، في إلُه قبر في جبل المقطَّم في القاهرة، وواحد تاني في كابول، وتالت في ...».

«كابول أفغانستان؟».

«لأ، كابول مش في أفغانستان، في كابول هون في الجليل. بس طبعاً القبر الحقيقي هوّي الموجود في يافا، عشان هيك الحجّ الحقيقي بيكون هون، بس زي ما إنت شايف، يا سيدي، الحجّ تحوَّل لمهرجان ثقافي، فَقْش ورَقْص وغُنَا وهِيْصَة، وبطَّل في حجّ، ولا ما يحزنون في آخر سنين».

لم يعرف صبحي موسم النبي روبين إلَّا بعَدِّه أكبر مهرجان ثقافي في المنطقة، لهذا أدهشه أن يسمِّي جَدُّه هذا الموسم بالحجّ، وبابتسامة واسعة تذكَّر تعليق والده عندما أعطى رجال الأمن تعليمات صارمة للمقاهي جميعها في مدينة الخيام: «ممنوع القمار، ممنوع الشرب، وممنوع المخدِّرات»، قائلاً: «والله، لو ودُّوا حبيب على الحجّ في مكَّة إلَّا يندل على أماكن الفحش».

عندها ردَّ حبيب ضاحكاً: «بس ما قالوا ممنوع الدعارة، مش هيك؟».

15
مدينة الخيام

مكتبة
t.me/soramnqraa

مثل أهل مدينته، استيقظ صبحي مبكِّراً في ذلك الصباح، وبهمَّة واندفاع، فزَّ من سريره للمشاركة في المهمَّة الكبرى التي تنتظرهم جميعاً، ألَا وهي نقل يافا بأسرها إلى موقع النبي روبين، فإقامة مدينة خيام مؤقَّتة لإيواء ما يقارب أربعين أو خمسين ألفاً تتطلَّب جهود الجميع وتعاونهم، ليس فقط أهالي يافا ومؤسَّساتها، وإنما أيضاً أهالي مدينتَي اللِّدّ والرملة ومؤسَّساتهما.

ورَغْم أن بناء المدينة كان من مسؤولية الأوقاف الإسلامية، التي تملك الموقع وتديره، إلَّا أن المهمَّة كانت تتطلَّب مشاركة قيادات المُدُن الثلاث والجمعيات الأهلية والنوادي الرياضية والمؤسَّسات الثقافية وغرف التجارة، واتِّحاد البَحَّارة والصيَّادين المتنفِّذ، الذي كان يدير، بالتعاون مع الأوقاف، مطبخاً خيريَّاً، يوفِّر وجبات ساخنة لعشرات الآلاف من المشاركين لمدَّة عشرين يوماً. كانت مدينة الخيام تقسَّم إلى تجمُّعات أو شبه حارات على أساس هَرَمِيٍّ: الموقع الأفضل كان مخصَّصاً بالطبع لأهل يافا، الذين كانت لديهم أيضاً أكبر الخيم وأجملها، يليه موقع مخصَّص لأهالي الرملة، ثمَّ اللِّدّ، ثمَّ المجدل والقرى.

في وسط مدينة الخيام تُقام خمسة شوارع تجارية متوازية، تضمُّ العديد من المتاجر والمقاهي، تجمع سكَّان الأحياء المختلفة، كما تجمعهم الفعاليات الثقافية العديدة التي تقام غالباً في الهواء الطلق

على مدى الشهر بأكمله، والأكثر شعبية من بينها هي سينما الهواء الطلق، والمسارح، والحفلات الموسيقية، ومسارح الدُّمى، وسباق الخيول، وحفلات الزفاف، وحفلات الطُّهور، إضافة إلى حلقات الذِّكْر التي يقيمها الصوفيُّون والدراويش.

لم يصدِّق صبحي أُذنَيْه عندما قال له والده: «لا أنا ولا خليل عنَّا وقت عشان نعمل الترتيبات لموسم السنة، لإنُّه لسَّه في شغل كتير لازم نخلصُه في البَيَّارَة، عشان هيك روح شوف محمَّد بن خليل، واوصلوا عند أبو الزُّلُف اللي بيأجِّر الجمال، وجيبوا خيمتين حجمهم متوسِّط وأربع جمال، تنين إلنا، وتنين لدار خليل».

الذِّكْر المفاجئ لعائلة خليل، والأهمُّ من ذلك النبرة العادية التي تحدَّث بها والده، رفع آمال صبحي في أن العائلتَيْن قد تصبحان يوماً ما «نسايب»، لكنه أراد أن يتأكَّد ممَّا سمعه، فسأل: «أيّ محمَّد، يابا؟».

«شو قصتك، يا ولد؟ قلتلك محمَّد بن خليل».

«آه، فهمت، بس طوِّل بالك عليّ، يابا، ولا في أكتر من اسم محمَّد حوالينا»، ثمَّ أضاف: «أروح أجيبه من دارهم في سَلَمِة؟». ومع أنه يعرف أنه سيقضي شهراً كاملاً بالقرب من شمس، إلَّا أنه كان يبحث عن أيِّ عُذر ليذهب إلى سَلَمِة، ويريها بدلته الإنكليزية.

«فش داعي تروح ع سَلَمِة، بتلتقي معه في خان أبو الزُّلُف، بيجوز إنه صار واصل هناك».

سرح صبحي متخيِّلاً شمس وهي تركب الجمل مع بقية نساء عائلتها وفتياتها وأطفالها، فسأل: «أستأجر جِمَال مزيَّنة، ولا بدون زينة، يابا؟».

«إنت انجنِّيت؟ إنت بتعرف قدِّيش الجِمَال المزيَّنة بتكلِّف؟ ولإيش؟ إحنا مش حاملين معنا عروس ولا ولد مطهَّر عالنبي روبين».

تمنَّى صبحي أن يجرؤ على الإفصاح لوالده: «أيوه، يابا، إحنا رح نحمل معنا عروسة المستقبل»، ولكنه ظلَّ صامتاً.

«يعني برأيك إنُّه حماتي الكركوبة ولَّا إمَّك بستاهلوا إنُّه ندفع أجرة جَمَل مزيَّن»، قال ضاحكاً، «إحنا عم نحمِّل معنا أغراض البيت ونسوان عجايز وصغار دارنا ودار خليل».

«إذا بتجوَّز السنة الجاي، يابا، بتستأجر لعروستي جَمَل مزيَّن؟»، سأل وهو يجسُّ نبض والده.

«طبعاً، يا ابنيِّي، يا حبيبي، جمل عرسك رح يكون مزيَّن من راسه لدنبه، بس بدَّك تستنَّى عالدور، قبل ما نجوِّز كبدنا نجوِّز أخوك جمال، وبعدين بيجي دورك».

لم يعجبه ردّ والده كثيراً، فحاول من جديد: «خيمتنا وخيمة دار خليل رح يكونوا جنب بعض، يابا؟».

«بَطِّلْ أسئلة سخيفة، يا صبحي، خيام يافا رح تكون على تلَّة قريبة من البحر، أمَّا خيام سَلَمِة والقرى التانية رح تكون بعيدة عن البحر، وقريبة على نهر روبين».

«يعني قريب من المخاصة، مطرح ما بنسبح؟».

«بالضبط، وهَلَّأ خلِّصني من أسئلتك، وروح شوف محمَّد».

لم يرغب صبحي في إطالة الحديث مع أبيه، فانطلق كالبرق إلى

خان أبو الزُّلُف لتأجير الجِمَال، وكان كلُّ ما يفكِّر فيه هو بناء صداقة استراتيجية مع شقيق شمس الذي يصغرها بعام واحد. وما إن التقى الفَتَيَان أمام الخان حتَّى أخذا يتبادلان الحديث وسط الجموع، ليكتشف صبحي هَوَس محمَّد بالطيَّارات الورقية والقوس والنشَّاب. كان هذا مدخلاً مهمَّاً، ولم يتردَّد صبحي كثيراً قبل أن يعطيَ لمحمَّد وعداً: «أوَّل ما نوصل عالنبي روبين رح أعملَّك أكبر وأحلى طيَّارة ورق، وكمان رح أعلمك كيف تعمل أحسن قوس ونشَّاب».

«عن جَد؟».

عندما رأى صبحي السعادة في عينَي محمَّد اللامعتَيْن ووجهه المضيء، تأكَّد من أنه وجد لنفسه حليفاً. وحين جاء دورهما في الخان، أعطى كلٌّ منهما اسم عائلته وعنوانها، ودفع أجر خيمة متوسِّطة الحجم وجَمَلَيْن.

استكمالاً لخُطَّته في بناء صداقة مع شقيق شمس، قال صبحي: «تعال، خلِّينا نشتري ورق ملوَّن وعيدان خيزران وخيطان للطيَّارات، وكمان عُصي للقوس والنشَّاب، عشان ناخدهم معنا، ونعملهم في النبي روبين».

«بس أنا ما بقي معي مصاري».

قاطعه صبحي قبل أن يكمل جملته: «ما تقلق عشان المصاري، هاي هديتي إلك».

وبعد شراء كلِّ ما يلزم للطيَّارة والقوس والنشَّاب لمحمَّد قال صبحي: «تعال، خلِّيني أعزمك على حلويات، بتفضِّل الكنافة ولَّا المطبَّق»، وقبل أن يتمكَّن محمَّد من الإجابة قال له: «ليش ما أشتريلك التنتين؟»، وهو يفكِّر بالمَثَل: «طعمي التُّم، بتستحي العين».

16

صباح الجُمُعة:
احتفالات الكسوة من يافا إلى النبي روبين

مدينة هائجة مائجة

مثل آلاف من الرجال والصِّبْيَة، ساعد صبحي أُمَّه وجَدَّتَهُ وشقيقتَيْه في تحميل الجِمَال الواقفة أمام البيت بالبُسُط والفرشات والمخدَّات والأغطية وأدوات المطبخ والملابس، وكلّ ما يحتاجونه خلال شهر عطلتهم في النبي روبين.

استغلَّ صبحي حالة الفوضى في البيت، وتسلَّل إلى غرفته، وأخرج بدلته الإنكليزية من الخزانة، ووضعها بحرص في الحقيبة التي كان قد اشتراها خصِّيصاً لهذا الغرض في اليوم السابق.

وبسبب الكثبان الرملية التي تُقام فوقها مدينة الخيام، وحرارة آب اللهَّاب ورطوبته العالية، فقد ارتدى معظم الرجال ملابس خفيفة، مثل الجلَّابيَّات القطنيَّة، وقلَّما كان يُرى شابّ في عُمُر صبحي مرتدياً بدلة، لذا سيكون من اللافت للنظر ومن المضحك أن يتجوَّل مرتدياً بدلته الإنكليزية في حَرِّ موسم النبي روبين. ولكنه لم يتردَّد ولو للحظة واحدة، إذ كان موقناً أنه سيحظى بفرصة ارتدائها في واحدة من الفعاليات الثقافية العديدة التي كانت تقام كلّ ليلة، كان على ثقة تامَّة بأنه سيجد الوقت المناسب ليُريَها لشمس. بعد أن اطمأنَّ على بدلته في الحقيبة، ركض إلى الشارع، ليساعد نساء العائلة في الركوب على الجِمَال التي ستحملهنَّ من يافا إلى النبي روبين، وناول والدته وشقيقتَيْه الشماس

البيضاء لتحميهنَّ من شمس آب الحارقة. أمَّا الرجال، فبعد أن ينتهوا من تأمين النساء فوق ظهور الجِمَال التي يقودها شبَّان يرسلهم أبو الزُّلُف، فقد كانوا عادة يذهبون بوسائل مختلفة. فالشبَّان مثل صبحي ومحمَّد يذهبون سيراً على الأقدام، بينما يمتطي الرجال الخيول أو الحمير، أو يستخدمون أحد الباصات العديدة التي كانت تتنقَّل بين يافا والنبي روبين، وهو الخطُّ الذي أنشأتْهُ في العام 1937 شركة بامية للباصات لتسهيل حركة رجال الأعمال بين يافا والنبي روبين.

كان صبحي ومحمَّد شقيق شمس من بين عشرات الآلاف الذين كانوا يشاركون وهم في طريقهم إلى النبي روبين باحتفال الكسوة، وهو احتفال ديني لكسوة الضريح في المقام المقدَّس بقماش أخضر من المخمل مطرَّز بخيوط من الذهب. كانت المُدُن الثلاث، يافا واللِّدّ والرملة، تتناوب على تأمين الكسوة كلّ عام. ولنيل بركة النبي روبين، انضمَّ صبحي ومحمَّد إلى النساء والأطفال الذين يمرُّون من تحت الكسوة التي يرفعها من الأطراف ثمانية رجال أقوياء. وكم تمنَّى صبحي حينها لو كانت شمس بدل أخيها معه لحظة تواجُده أسفل الكسوة.

عند الضُّحى كان نحو أربعين ألف شخص قد تجمَّعوا حول الجامع الكبير ومقام النبي روبين المجاور له. منهكَين تعباً بعد مسيرة أربعة عشر كيلو متراً، تهاوى الولدان تحت شجرة كينا، وأخذا يشاهدان مراسم افتتاح الموسم.

حمل المسؤولون الحكوميون ورجال الدين وأعضاء المجالس البلدية راياتهم، وعزفت فِرَق الكشَّافة الموسيقى، وردَّد الدراويش وأعضاء الطُّرُق الصوفية أذكارهم إعلاناً عن الافتتاح الرسمي للموسم. وفي حين وقف الرجال صفوفاً حول المسجد الكبير، ليؤدُّوا صلاة الجُمُعة، تجمَّعت

النساء والفتيات حول المقام للصلاة، وهنَّ يتوسَّلنَ بالدعاء، ويسألنَ النبي أن يقضي حوائجهنَّ. فواحدة تطلب أن تحمل، وأخرى أن تُرزَق بولد، وثالثة أن يُشفى لها عزيز. وما إن انتهى الاحتفال الديني حتَّى التحق صبحي ومحمَّد بالآلاف الذين تجمَّعوا أمام المطبخ الخيري الذي تديره الأوقاف، ليحصلوا على وجبتهم المجَّانيَّة الأولى، كما سيحدث طوال الأيَّام العشرين القادمة. وبعد أن شبعا، حان الوقت لكلٍّ منهما أن يذهب في طريقه متَّجهاً إلى خيمة عائلته في المكان المخصَّص لها.

قبل أن يفترقا سأل محمَّد متلهِّفاً لصناعة طيَّارته الورقية في أقرب وقت: «إيمتى رح نلتقي؟».

أجاب صبحي سعيداً بنجاح خُطَّته: «خَلِّينا نرتاح اليوم. ليش ما تيجي لخيمتنا، خِلِّينا نقول بُكرا الساعة خمسة العصر».

«وين خيمتكم؟ بعرفش كيف أوصلها».

«اسأل أبوك وهُوّي بيقولَّك».

«طيِّب، بخاطرك».

«مع السلامة».

بعد قيلولة طويلة بدأت الشوارع الخالية والمتاجر والمقاهي تمتلئ بالزبائن، وانطلق معظم الرجال، مرتدين ملابسهم الخفيفة أو جلَّابياتهم، ليلعبوا الورق أو يدخِّنوا الأرجيلة في العشرات من المقاهي، بينما تدفَّقت النساء إلى أسواق الخضار والفاكهة، أو إلى سوق النساء الذي لم يكن مسموحاً للرجال بدخوله، حيث يجدنَ أنواع الملابس والمجوهرات المزيَّفة وموادّ التجميل كلِّها. أمَّا الأطفال، فكانت وجهة معظمهم الرئيسة هي متاجر الحلوى.

لأن الاحتفال بدأ في ليلة مكتملة القمر، فقد قضى آلاف من الناس ليلتهم الأولى على الشاطئ أو على ضفاف نهر روبين، حيث أحضروا طعامهم، وقاموا بالطبخ أو الشواء، وعزفوا الموسيقى، وغنّوا، في حين كان الأطفال يتراكضون حولهم محاوِلين العثور على أصدقاء قدامى أو جُدُد. في ذلك المساء بحث صبحي عن شمسه دون جدوى، ولكنْ، لأنه كان يعرف أنه سيلتقي بأخيها في اليوم التالي، فقد نام بعمق في تلك الليلة.

سهر الناس في مدينة الخيام إلى ما بعد منتصف الليل، لذلك لم تدبّ الحياة في المخيَّم إلَّا في وقت متأخِّر من صباح اليوم التالي. كانوا يجلسون أمام خيامهم، يشربون قهوتهم الصباحية مع أفراد عائلاتهم أو أقربائهم. بعدها ذهب الرجال والأولاد لشراء طعام الإفطار: الحُمُّص والفول والفلافل، وحلوى التمريَّة الشهيرة، أمَّا النساء، فكنَّ في حركة دائمة من وإلى خيامهنَّ لتأمين حاجات الصغار وكبار السنِّ. عند الظهر بدأ الأطفال يتجوَّلون في الشوارع الضيِّقة بحثاً عن صندوق العجب أو كركوز أو صندوق الموسيقى، في حين كان الأولاد الأكبر سنَّاً والفتيان من عُمُر صبحي في طريقهم إلى نهر روبين، المكان الوحيد المسموح لهم بالسباحة فيه، لأن البحر المتوسِّط كان يُعدُّ خطراً. وعلى ضفَّتَي نهر روبين كانت العائلات تتنزَّه تحت أشجار الكينا الضخمة. ولأولئك الذين لم يحتاجوا أو لم يرغبوا في قيلولة بعد الظهر، وفَّر المهرجان العديد من الخيارات، مثل ركوب الخيل والملاكمة وكرة القدم وصيد العصافير واللعب بالطيَّارات الورقية على الشواطئ المفتوحة. كانت الأُمسيَّات هي الوقت الأفضل في المهرجان، فبحلول المساء، كانت تُشاهَد عائلات بأكملها تتمشَّى في الأزقَّة، لتكتشف ماذا جهَّزت لجنة المهرجان من فعاليات لهذا الموسم. كان موسم النبي روبين قد أصبح واحداً من أكبر وأشهر المهرجانات الثقافية، ليس فقط في فلسطين،

ولكنْ، أيضاً في الدول العربية المجاورة، ووفَّر لروَّاده خيارات عديدة، من بينها مشاهدة آخر الأفلام المصرية في سينما الهواء الطلق، أو مشاهدة أحدث المسرحيات اللبنانية والسورية، أو الاستماع إلى فرقة موسيقية حلبية، أو المشاركة في احتفالات زفاف حقيقية أو مزيَّفة. كان الصغار مفتونين بشكل خاصٍّ بحفلات الزفاف المزيَّفة، حيث يرتدي الرجال ملابس النساء، ويرقصون الرقص الشرقي. واختارت العديد من العائلات الانضمام إلى حلقات الصوفيِّيْن والدراويش الذين يردِّدون الأذكار، ويرقصون رقصاتهم الدينية، مثل المولويَّة، حتَّى وقت متأخِّر من الليل، أو إلى أن يسقط الراقصون على الكثبان الرملية الناعمةويناموا حتَّى اليوم التالي. ولكن الكثيرين، مثل حبيب، اختاروا الذهاب إلى المقاهي، ليلعبوا القمار، ويشربوا، ويدخِّنوا الحشيش، والبعض اختاروا ببساطة أن يُرفِّهوا عن عائلاتهم بالشواء أمام خيامهم أو على الشاطئ أو على ضَفَّتَي النهر. كان موسم النبي روبين أيضاً مكان عقد الصفقات التجارية وعروض الزواج، والمكان الذي تُولَد فيه وتنمو قصص الحُبِّ، مثل قصَّة صبحي وشمس.

لكي يتخطَّى الصعاب الناتجة عن الفصل بين تجمُّعات مدينة الخيام بحسب المدينة أو القرية، وبعض النشاطات القائمة على الفصل بين الرجال والنساء، كان على صبحي أن يكون ميكافيليّاً، وأن يخطِّط بحرص شديد ودهاء لرؤية شمس، أو، إن كان محظوظاً، فَلِلِّقاء بها، دون أن يثير شكوك أو اعتراضات أيٍّ من أفراد عائلتَيْهما. ولأنه وشمس كانا في سنِّ الخامسة عشرة والثالثة عشرة، أي بين الطفولة والبلوغ، فقد تمتَّعا بميزة الدخول إلى مناطق الرجال والنساء على حَدٍّ سواء. كان الأولاد والبنات الصغار كثيراً ما يُشاهَدون وهم يركضون بحُرِّيَّة، ويدخلون ويخرجون من المقاهي والشوارع وسوق النساء. ولأنه تمكَّن من كسب صداقة محمَّد، فقد كانت لدى صبحي الذريعة الكافية، ليكون قريباً من شمس.

17
سماء مزركشة بطائرات الحُبِّ الورقيَّة

ليس واضحاً أيّهما كان أكثر حماسة لموعد صنع الطائرة الورقيَّة، صبحي أم محمَّد. كما اتَّفقا في الليلة الماضية، أخذ محمَّد الموادّ التي اشتراها له صبحي في اليوم السابق، وذهب للقائه في خيمة أسرته، وفي طريقه عبر الكثبان الرمليَّة، أذهله الفارق بين منطقة التخييم المخصَّصة لأهل يافا وتلك المخصَّصة لأهل سَلَمِة: «يا إلهي، خيامهم قصور، كلّ خيمة منصوبة في وسط أرض واسعة، إلها حيطان»، هكذا عبَّر محمَّد عن دهشته لوالدته عائشة تلك الليلة.

«أكيد مش قصدك حيطان، قصدك قواطع من سَعَف النَّخْل أو القماش، مش هيك؟».

«صحيح، يمَّا، هاد قصدي».

«معلش، يا ابنيِّي، الناس مقامات، هُمَّه من يافا، وإحنا من سَلَمِة، هُمَّه ولاد مدينة، وإحنا فلَّاحين».

«معناته واضح إنهم أحسن منَّا».

«لا، يا محمَّد، يا حبيبي، فِشْ حدا أحسن منَّك، يا ابنيِّي، خلِّيك دايماً متذكِّر هاد الحكي»، ثمَّ اقتربت منه، وعانقتْهُ.

كان صبحي يقف على باب خيمة عائلته عندما أطلَّ محمَّد وهو يتعثَّر حاملاً الأغراض.

«ما أكتر هالأغراض، يا محمَّد، شو رأيك أعلمك اليوم كيف تعمل طيَّارة، ونترك موادّ القوس والنشَّاب لبُكرا أو ليوم تاني».

«ماشي، آه، أحسن».

سعيداً بالتخلُّص من الحِمْل الثقيل، ناول محمَّد صبحي حزمة من العِصِيِّ وسكيناً وكُرتَيْن من الخيطان.

«أنا رح أحمل ورق الطيَّارة، لإنُّه بتمزَّع بسرعة»، قال صبحي وهو يأخذ الورق الملوَّن من محمَّد.

«ماشي»، أجاب محمَّد وهو يمشي متقافزاً على الممرِّ الرملي الذي يقود إلى الشاطئ.

«تطلَّع على هالطيَّارات، واحكيلي أي وحدة حبِّيت أكتر»، قال صبحي وهو يشير إلى الطيَّارات الستّ التي كان يطيِّرها عالياً في السماء بضعة أولاد كانوا قد سبقوهما إلى الشاطئ.

«أكتر إشي عجبتني هديك اللِّي لونها أحمر وبرتقاني وشكلها مضلَّع»، أجاب محمَّد وهو يشير بإعجاب إلى الطيَّارة التي كانت تحلِّق عالياً، «وكمان عجبتْني الخضرا اللِّي إلها ديل طويل».

«رح أعملَّك طيَّارة ديلها طويل كتير، ورح نسمِّيها محمَّد القرد».

«كتير منيح»، قال محمَّد وضحك، فقال صبحي:

«طيِّب، خلِّينا أوَّل نعمل هيكل الطيَّارة».

عندما وصلا إلى الشاطئ، فَرَشَ صبحي بطَّانيَّة، ليجلس ويعمل فوقها.

«هاتْ نَاوِلْنِي أحسن عصايتين خيزران معك، لازم وحدة منهم تكون أطول من التانية بخمسطعش لعشرين سنتمتر».

ومع أنه لم يكن يعرف كم يبلغ طول الـ 15 سنتيمتراً، إلَّا أنه أخذ يفحص العِصَيَّ، وناولها لصبحي، الذي استخدم سكِّيناً حادَّة لحفر تجويف في كلِّ طرف من أطراف العِصِيِّ، وتجويفَيْن آخرَيْن في مكان تقاطعهما.

«هاي الفتحات بتخلِّي الخيط يمسك منيح»، شرح صبحي وهو يربط العصاتَيْن على شكل صليب، ثمَّ شدَّ الخيط داخل التجاويف على أطرافهما.

«شايف، صار عنَّا الشكل المضلَّع اللِّي حبِّيتُه، خلِّينا هَلَّأ نفرد الورق الملوَّن عالبطَّانيَّة ونقصُّه ونلزقُه على العُصِيّ». فَرَدَ صبحي الورق الأحمر على البطَّانيَّة، ووضع هيكل الطيَّارة فوقه، ثمَّ قال: «اللِّي بدنا نعمله هَلَّأ إنه نقصّ الورق أكبر بتنين سانتي من هيكل الطيَّارة، وبعدين بنطوي الورق هيك حوالين العِصي، تعال، اضغطْ عليها شوي عبال ما ينشف الصمغ».

نفَّذ محمَّد كلام صبحي حرفياً.

«وهَلَّأ صار الوقت إنه نعملَّك ديل القرد، شو بدَّك لونه يكون؟».

«برتقاني»، أجاب محمَّد غير مصدِّق أنه سيحصل على طيَّارة مضلَّعة حمراء بذيل طويل.

«شو رأيك نعمل ديل بكلِّ الألوان؟ ليش ما نحطّ لون أخضر وأزرق وأحمر مع البرتقاني».

«بنقدر؟ آه، طبعاً، يا ريت»، وافق محمَّد، ثمَّ جلس إلى جانب صبحي، ليتعلَّم كيف يصنع ذيلاً للطيَّارة.

«هَلَّأ خُد المقصّ وقَصْقِص الورق لشرايح صغيرة، ولَزِّقهم على هدول الخيطان القصار».

أخذ محمَّد المقصَّ، وجلس على ركبتَيْه، وأخذ يقصُّ الورق من الألوان كلِّها كما طلب منه صبحي. في هذه الأثناء، ربط صبحي قِطَع الخيوط القصيرة بالذيل الطويل، وأعطاه لمحمَّد: «على كلّ شعبة من الديل بدَّك تلزِّق لون ورق مختلف عن التاني، وبس تخلِّص، بنقدر نلزِّق الديل على الطيَّارة، وهيك بتكون أمورك تمام، وأنا بهالوقت رح أربط الخيط على عصاية قصيرة حتَّى يكون سهل عليك تتحكَّم بالطيَّارة، لإنه أكيد ما بدَّك خيط طيَّارتك يتشربك في بعضه، ويخلِّيها تنزل على راسها».

ما إن انتهى صبحي ومحمَّد من عملهما حتَّى كان عشرات الأولاد قد تحلَّقوا حولهما، بعضهم وقف حول البطَّانيَّة، بينما تجرَّأ آخرون على الجلوس إلى جانب صبحي، وأخذوا جميعاً يتكلَّمون في وقت واحد:

«بتقدر تعملِّي وحدة؟».

«وأنا كمان، قدِّيش بدَّك عليها؟».

«خُد، بدفعلك هَلَّأ»، قال صبي الجنجي وهو يُخرِج من جيبه بحماس بضعة قروش، ويقدِّمها إلى صبحي، «خُد هدول، واعملِّي طيَّارة مضلَّعة بدنب طويل».

«اصبروا، اصبروا، خلُّوني أوَّل أكمِّل هاي الطيَّارة، بعدين بعلِّمكم كلكم كيف تعملوا طيَّارات لحالكم».

«عن جَد، بدَّك تعلِّمنا كيف نعمل طيَّارات؟».

«بتقدر تصلِّحلي طيَّارتي؟ الهوا مَزَّعلي ياها»، قال صبي آخر.

«أنا طيَّارتي انكسرت عصايتها».

«هيبي، هيي، ابعدوا شوي، يا ولاد، رح تدعسوا على طيَّارة محمَّد الجديدة. مش رح أعمل طيَّارة إلَّا للِّي بيوقفوا بعيد عن البطَّانيَّة، سامعين؟ ارجعوا لورا، ولَّا فِش طيَّارات».

ولدهشة صبحي استمعوا لتعليماته فوراً، وتدحرجوا عن البطَّانيَّة، ووقفوا حولها مثل جنود مُدرَّبين.

«اسمعوني منيح، ما تصيبوا ولا إشي، والحقوني، لإني أوَّل بدِّي أفرجي محمَّد كيف يطيِّر طيَّارة ديل القرد تبعته، وبعدين بعلِّمكم».

انطلق صبحي يتبعه جيش من الصِّبْيَة المتحمِّسين.

«خُد، يا محمَّد، امسك الطيَّارة، واركض فيها بعكس الريح، لمَّا تبلِّش تطير، اركض معها، ومِدِّلها خيط زيادة، بس دايماً خلِّي الخيط مشدود، وما تعطيهوش أكتر من اللازم. حظَّك منيح، لإنُّه في نسمة حلوة اليوم. يَلَّا، يا محمَّد، ورجيني شطارتك».

ركض محمَّد متَّبعاً تعليمات صبحي وهو يمسك بطائرته وذيلها الطويل يتلوَّى خلفها، وفي لحظات كانت الطائرة المزركشة زاهية الألوان تحلِّق عالياً في السماء، وكذلك كان قلب محمَّد.

«اللِّي بدُّه يتعلَّم كيف يعمل طيَّارة يلحقني، أنا ما ببيع طيَّارات، بس رح أعلِّمكم كيف تعملوها لحالكم».

وسط جمهور كبير من الأطفال صنع صبحي طائرة ثانية وثالثة ورابعة، وحين رفع رأسه ليعطي الطائرة الرابعة لأحد الأولاد، وقعت عيناه على وجه شمس بينهم. كاد قلبه أن يتوقَّف، وكان على وشك الإغماء وقد تعلَّق بصره بالبقع البرتقالية في فستانها الأبيض. وما إن استطاع السيطرة على مشاعره، حتَّى أخذ نَفَساً عميقاً، وحدَّق في عينَيْها العسليَّتَيْن، وابتسم، فابتسمت له. لم يعرف ماذا يفعل بعد ذلك، فأخذ يصيح بأعلى صوته: «يَلَّا، يا أولاد، خَلَّصنا اليوم، زي ما إنتو شايفين ما ضَلِّش عندي أغراض أعمل فيها طيَّارات، واللِّي بدُّه منكم يتعلَّم كيف يعمل طيَّارة يطلب من أبوه خمس قروش، ويلاقيني في مكتبة أبو هاني، رح أكون هناك بعد الغدا، خلِّينا نقول الساعة تلاتة».

لاحظ محمَّد من بعيد مغازلة صبحي لشقيقته، فجاء راكضاً وقال معترضاً ببراءة، أو ربَّما بخبث، وهو يعطي طيَّارته مزيداً من الخيط لترتفع أكثر: «فكَّرتك بدَّك تعلِّمني كيف أعمل القوس والنشَّاب بُكرا».

«أنا اليوم علَّمتَك كيف تعمل طيَّارة، بس بُكرا بدَّك تعمل طيَّارة لحالك».

«ماشي الحال»، قال محمَّد وهو يضحك، ثمَّ ركض خلف طيَّارته من جديد.

وما إن تفرَّق الأولاد من حولهما حتَّى حظي العاشقان الصغيران بفرصتهما الأولى في هذا الموسم لتبادل الابتسامات وبعض كلمات الإعجاب والغزل.

«شكراً على الصورة اللِّي بعتِّلِّي ياها، كتير البدلة حلوة عليك. إيمتى بدِّي أشوفها؟».

«مبيِّن عليك حابَّة تشوفي البدلة أكتر ممَّا حابَّة تشوفيني».

لم تعرف شمس بماذا تردّ، فصمتت وتورَّد خدَّاها.

ولكي يبدِّد الحرج الذي سبَّبتْهُ ملاحظته العابثة، أضاف صبحي: «أكيد رح تشوفيها، أنا جبتها معي عشانك، ومستنِّي فرصة ألبسها. تطلَّعي حواليكِ، ما فِش حدا لابس بدلة في هالحَرّ».

«بس أنا بدِّي أشوفك فيها»، وهذه المرَّة اختارت شمس كلماتها بحرص.

«ما تقلقي، رِح ألاقي طريقة. بتمنَّى تكوني عرفتِ إني عملت مهرجان الطيَّارات هاد كلُّه بس عشان خاطرك».

«عشاني أنا؟»، احمرَّت من جديد، وأضافت: «عن جَد؟ شكراً».

«كيف كان ممكن أشوفك على راحتي، لولا معرض الطيَّارات اللِّي عملتُه؟»، ابتسم صبحي، ثمَّ غمز لها بعينه.

وخشية إثارة شكوك العائلة، وما قد ينتج عن ذلك من قيود على تحرُّكات شمس في الأسابيع المتبقِّية من الموسم، حاول صبحي وشمس عدم لفت الأنظار إلى إعجابهما المتبادل والحُبِّ الحارق الذي يعتمل في قلب صبحي. شيء ما في شَعْر تلك الفتاة المتموّج، وعينَيْها الحزينتَيْن، وابتسامتها البريئة، كاد يُفقد صبحي صوابه. لم يتغيَّر فيها شيء منذ رآها آخر مرَّة، وفي كلِّ مرَّة اقترب منها، أو حتَّى حدَّق فيها من بعيد، كان قلبه يذوب في صدره.

في الأيَّام التالية أقام صبحي ورشات لصنع الطيَّارات الورقيَّة مع عشرات من الأطفال بينما شمس في الجوار. وتعبيراً عن حُبِّه لها سرعان

ما ملأ السماء بطيَّارات من الأشكال والأحجام والألوان كلِّها، بعضها بأشكال هندسية: مثلَّثات ومربَّعات ومضلَّعات، وأخرى على شكل حيوانات ونباتات: طيور وحلزونات وأخطبوطات وقناديل بحر وأزهار. ولكن الطيَّارات التي أحبَّها الأطفال أكثر من غيرها كانت تلك التي رسم عليها وجوهاً (يُفترَض أنها وجوههم، ولكنها أيضاً وجه شمس) بتعبيرات مضحكة: وجهاً مبتسماً، وجهاً بعين تغمز، وجهاً بأنف طويل مثل وجه بينوكيو، ووجهاً بخُصلات شَعْر ذهبية. في كلِّ يوم كانت تظهر أشكال جديدة، وألوان جديدة، وتِقْنِيَّات جديدة، وفي كلِّ يوم كان يظهر عرض مدهش جديد، وتظاهرة من الألوان كانت تغطِّي السماء. ومع الوقت أصبح عرض صبحي للطيَّارات الورقية متعة بصرية للمشاهدين، ومن بين هؤلاء كان أبناء عائلته، الإخوة والأخوات الأكبر، وكذلك شمس وشقيقتاها الأصغر. وفي حين كان المشاهدون مذهولين إعجاباً بالسماء الملوَّنة بطيَّارات صبحي، كان هو مذهولاً بحُبِّه لشمس، ولكنْ، ربمَّا كانت شمس أصغر وأكثر براءة من أن تفهَم رغبة صبحي الحارقة فيها، وعشقه لها.

18

حُبّ حياتي

الآن وقد شعر صبحي بأن رباط الطيَّارة الورقيَّة بينه وبين محمَّد قد صار وثيقاً، حاول أن يجرِّب حظَّه، ليحقِّق المزيد.

«احكيلي، يا محمَّد، بتحبّ إسماعيل ياسين وفريد الأطرش؟». مع أنه كان يعرف جيِّداً أن الأطفال جميعهم من عمر محمَّد كانوا يعشقون الكوميديان المصري إسماعيل ياسين، وليس بالضرورة المطرب السوري فريد الأطرش، لكنْ،، ولدهشته، اتَّضح أن محمَّد من معجبي المغنِّي: «أنا بعشق فريد الأطرش، وحافظ كلّ أغانيه عن غيب».

«والله؟ عن جَد؟ مش رح أصدّقك إلَّا إذا سمعتَك بتغنِّي وحدة من أغانيه».

لم يكن محمَّد بحاجة للإقناع حتَّى يبدأ بالغناء. وقف وشدَّ قامته مقلِّداً فريد الأطرش، وبدأ يغنِّي إحدى أغانيه الشهيرة «يا ويلي، من حبُّه، يا ويلي، يا عذابي في نهاري وليلي»، وما إن أنهاها حتَّى بدأ دون أن يُطلَب منه أُغنيَّة «يا بو ضحكة جنان». وبينما كان صبحي يتعجَّب من اختيارات محمَّد الجريئة للأغاني، بدأ محمَّد يستعدُّ للبدء بأُغنيَّة ثالثة، فقاطعه صبحي قائلاً: «طيِّب طيِّب، يا محمَّد، صدَّقتَك»، وحتَّى لا يؤذي مشاعره أضاف: «شو هالصوت الحلو؟». كان صوت محمَّد جميلاً بالفعل.

«شو رأيك تجيب أخوك الكبير وتيجي عشان نشوف فيلم إسماعيل

ياسين في السينما المفتوحة الليلة؟»، اقترح صبحي ذلك مع أنه يعرف جيِّداً أنه ليس لمحمَّد أخ أكبر أو أصغر.

«ما عنديش أخ أكبر منِّي، بس عندي أخت أكبر».

«قدِّيش عمر أختك؟ أنا بسألك بس لإنُّه المهرجان بسمحوش للأولاد اللِّي بعمرك إنهم يدخلوا على السينما لحالهم».

«بس إنت شفت أختي، عمرها تلاتطعشر سنة».

«طيِّب، ليش ما تجيب أختك الكبيرة وتيجي على مدخل السينما»، ومن جديد، كان صبحي يحاول خداع محمَّد، وخشي أن يقول له: «بس إنت كبير، وبقدر أفوت معك»، ولكنه لم يفعل.

«وشو اسم أختك؟».

«شمس، أختي اللِّي حكيت معها».

تجاهل صبحي تعليق محمَّد، وتابع: «شمس؟ اسم حلو كتير. طيِّب بشوفك إنت وأختك شمس الليلة الساعة تمانية».

«ماشي الحال، رح أحكي لشمس، ويمكن كمان أجيب خواتي الصغار، بس بدَّك توعدني إنَّك تعملِّي أكبر طيَّارة بالدنيا، وتعلِّمني كيف أعمل القوس والنشَّاب».

«طبعاً، اللِّي بدَّك اياه، انت بس اطلب»، قال صبحي وقد بُوغِت بأن محمَّد كان في الواقع يعقد صفقة معه.

مترقِّباً بلهفة رؤية شمس في السينما المفتوحة تلك الليلة، فكَّر صبحي بارتداء بدلته، ولكنْ، على الرَّغْم من وجود العديد من الفعاليات

الثقافية في مهرجان موسم النبي روبين، إلَّا أنه بسبب حرارة آب ورطوبته، وأيضاً بسبب الكثبان الرملية، لم يكن أحد يرتدي بدلة، خصوصاً ممَّنْ هم في عُمُره أو طبقته، فمعظم الرجال من بيئته كانوا يرتدون القمباز المصنوع من القطن، لذلك، وحتَّى لا يكون محطَّ سخرية، تخلَّى عن فكرة ارتداء البدلة في ذلك المساء، ولكنه، بالتأكيد، لم يتخلَّ عن التفكير بخُطَّة أخرى. ومع أنه لن يتمكَّن من ارتدائها في هذه المناسبة، إلَّا أنه أراد أن يبدو أنيقاً في موعده الرسمي الأوَّل مع شمس، لذلك قرَّر أن يرتدي ثاني أفضل زيٍّ يمتلكه.

بينما ذهب والد صبحي وإخوته إلى المقاهي لِلَعب الورق وتدخين الأرجيلة، انضمَّ عمُّه حبيب إلى لاعبي القمار ورفاق الشرب، في حين قضت أُمُّه وأخواته الأُمسيَّات بحضور إحدى الفعاليات الثقافية، أو في سوق النساء الذي يظلُّ مفتوحاً حتَّى منتصف الليل. قبل الذهاب إلى موعده في السينما، أسرع صبحي إلى الخيمة الخالية، وارتدى أفضل بنطال عنده مع قميصه الأزرق الفاتح الجديد، ولعدم وجود مرآة دار حول نفسه مرَّتَيْن، ودعا أن تحبَّ شمس مظهره هذا. وقبل الخروج من الخيمة، أخذ زجاجة كولونيا عمِّه حبيب، وسكب نصفها على ذراعَيْه، ومسح وجهه ورقبته، ثمَّ طار عابراً المسافة التي تفصل مخيَّم أهل يافا عن السينما المفتوحة في وسط مدينة الخيام، بينما الرمل يغبِّر حذاءه اللامع وبنطاله الأنيق. وحين لمح شمس بفستانها الأبيض والبرتقالي تنهَّد، وأحسَّ بقلبه يذوب في صدره. كانت شمس بصحبة أخيها محمَّد وأُختَيْها الأصغر نظيرة ونوال. ارتجفت يده عندما مدَّها ليصافحها، أبقى على راحتها في يده طويلاً، ثمَّ ضغط عليها. احمرَّت وجنتاها، وسحبت يدها بعيداً.

«ما أحلى هالفستان، يا شمس!».

«عن جَد؟»، تظاهرت بالدهشة، ثمَّ وضعت يدها على الجزء الأسفل من فستانها، وقالت: «مبسوطة إنُّه عجبك».

الآن وقد تحقَّق حُلْمه أخيراً في أن يكون مع شمس، كان صبحي مصمِّماً على ألَّا يُضيِّع فرصة الجلوس إلى جانبها طوال مدَّة عرض الفيلم. ومع أن هذه سينما مفتوحة، نصفها مغطَّى بخيمة ونصفها الآخر مكشوف للسماء المقمرة، أي أنها ليست معتمة مثل دُوْر السينما في يافا، إلَّا أنه اتَّخذ قراره في أنه لن يُفوِّت الفرصة للتعبير عن حُبِّه الجارف لها، ورغبته فيها.

اختار صبحي بتخطيط استراتيجي مُحكَم خمسة مقاعد متجاورة، ودعا شمس وإخوتها للجلوس: «يَلَّا، تعالوا، فوتوا»، وأجلس محمَّد ونظيرة ونوال إلى يساره حتَّى يضمن أن تكون شمس وحدها إلى يمينه، آملاً أن أيَّاً منهم لن ينتبه لِمَا تنوي يده اليمنى فعله. وبالفعل، وبفضل الأداء المضحك للكوميديان المصري إسماعيل ياسين وغناء فريد الأطرش ورقص سامية جمال، كانوا جميعاً مستغرقين تماماً في فيلم «حُبّ حياتي».

سحب صبحي كرسيَّه القشَّ الغاطس في الأرض الرملية، بقَدْر ما استطاع إلى جانب كرسيّ شمس، وكلَّما مرَّ مشهد ليلي أو معتم في الفيلم، كان يلامس فخذها بفخذه. وحين اطمأنَّ إلى رضاها، وضع يده على يدها، واطمأنَّ أكثر حين لم تبعد يدها أو جسدها عنه. في منتصف الفيلم تشجَّع، فوضع يده على ذراعها، ثمَّ جعلها تنزلق لتلمس ثديَيْها الصغيرَيْن الصلبَيْن، ولكنها انكمشت على نفسها مبتعدة عنه. جلس

بلا حركة لبعض الوقت، ثمَّ أخذ يدها في يده مرَّة أخرى، وهذه المرَّة تركتْها له، وجلست ساكنة. ظلَّا على هذه الحال إلى أن انتهى العرض.

«تصبحي على خير».

«تصبح على خير».

كان هذا كلّ ما قالاه عندما التقت أعينهما، وغمرت وجه شمس الهادئ ابتسامة خفيَّة مطمئنَّة، ثمَّ قطع محمَّد الصمت المربك، وسأل:

«بدَّك تعمللنا كمان طيَّارات بُكرا؟».

«طبعاً بدِّي أعمل، أوَّل رح أعمل طيَّارات للأولاد، وبعدين أعمل بيوت لعب للبنات».

«عن جَد؟ بدَّك تعمللنا بيت لعبة؟»، سألت نوال ذات السبع سنوات بحماسة.

«إذاً، بتلاقوني في مكتبة أبو مروان عشان نشتري الأغراض الضرورية، وبعدين بنروح على الشطّ عشان أعملِّك أحلى بيت لعبة»، هذه المرَّة وجَّه صبحي الكلام لنوال، «وكمان ممكن أعمل إلنا بيت لعبة كبير»، قال صبحي مغازلاً شمس، ومرَّة أخرى احمرَّ وجهها، وابتسمت له ابتسامة رقيقة.

ومثل مهرجان الطيَّارات الورقية، تحوَّل معرض بيوت اللُّعب إلى جنَّة للفتيات الصغيرات. وهكذا، فإن مهارات صبحي الميكانيكية التي أكسبتْهُ البدلة الإنكليزية الشهيرة، أكسبتْهُ أيضاً شعبية واسعة، وجعلتْهُ محطَّ إعجاب الأطفال من أولاد وبنات في مدينة الخيام. لقد أصبح عرض الطيَّارات، وكذلك معرض بيوت اللُّعب، أحد أكثر الفعاليات ارتياداً في موسم النبي روبين ذلك العام.

وداعاً شمس، وداعاً موسم النبي روبين

بعد أن ابتكر صبحي أنواع الحيَل كلّها، ووضع أنواع الخطط كلّها حتَّى يكون مع شمس أو بقربها طوال شهر المهرجان، حان الوقت ليحيك خُطَّة لمشهد ختامي، يجمعه بها، ليحمله معه كذكرى، تعينه على فراقها حتَّى يلتقيا من جديد. استحوذت عليه الفكرة، فظلَّ يتقلَّب في فراشه طوال الليل وهو يستحضر مشاهد الحبِّ التي رآها في حياته جميعها: مشاهد من الأفلام التي شاهدها في سينما نبيل، ومشهد الحُبِّ، أو على الأصحّ الشهوة، الذي استدرجتْهُ إليه جارته الأرملة أُمّ زهرة، وأخيراً، ولكنْ، بالتأكيد، ليس آخراً، مشاهد الجنس التي عاشها مع شوشانا.

ومع أنه كان قد وعد نفسه بألَّا يفكِّر في شوشانا عندما يكون مع شمس، ولا يفكِّر في شمس عندما يكون مع شوشانا، إلَّا أن الأحاسيس والمشاعر والإثارة التي منحتْها له قبلة شوشانا الفرنسية ظلَّت في ذاكرته عَصِيَّة على النسيان، وكان يعرف أن القُبلة هي الأمر الوحيد الممكن والمقبول بينه وبين شمس، ولكنْ، هذه المرَّة سيكون هو المبادر والممسك بزمام الأمور، والذي سيلعب دور الواثق الذي لعبتْهُ شوشانا، مع شمس البريئة وعديمة التجربة. بعد أن قضى الليلة بطولها وهو يفكِّر في قُبلته الأولى لشمس، شعر بالثقة، ليدعوَها في اليوم التالي: «شو رأيك تيجي اليوم المسا على خيمتنا بعد ما الكلّ يطلع، عشان أفرجيكِ بدلة عرسنا».

«بدلة عرسنا؟»، شهقت شمس، وضحكت، ثمَّ قالت: «بس أنا خايفة حدا يشوفنا لحالنا في خيمتكم، والله أبوي إذا عرف ليدبحني!».

«ما حدا رح يشوفك، بس الأهمّ إنُّه ما حدا بستجري يمدّ إيده عليكِ وأنا موجود حتَّى لو كان أبوكِ».

هذا التصريح الجريء حيَّر شمس، وجعلها تقول: «إنتو اليافاويَّة ما بتعرفوا إيش ممكن أب فلَّاح يعمل إذا بيمسك بنته لحالها مع ولد في خيمة أو في بيت. إحنا فلَّاحين مش يافاويَّة».

في مساء ذلك اليوم، قفز قلب صبحي في صدره عندما لمح شمس من بعيد قادمة نحو خيمة عائلته. شدَّ قامته، وزرَّر جاكيت بدلته، وعدَّل بنطاله، ثمَّ وقف أمام مدخل الخيمة كما وقفت شوشانا أمام باب غرفتها. ولحسن الحظِّ، كان الممرُّ أمام الخيمة خالياً إلَّا من صبيَّيْن كانا يطاردان الكرة.

دخل إلى الخيمة بعد أن تأكَّد من أن شمس قد رأتْهُ، فعلى الرَّغْم من تصريحه الرجولي ذلك الصباح، كان آخر ما يريده هو أن يتسبَّب لها بالمشكلات.

خفق القلبان بشدَّة عندما وقف العاشقان وجهاً لوجه.

«شو رأيِك في بدلة عرسنا؟».

«إنت وبدلتك أحلى إشي في العالم!»، أجابت شمس.

«عن قريب رح يكون معي مصاري عشان أشتريلك فستان عرس أبيض».

«أبيض؟ ليش أبيض؟ إحنا في سَلَمِة عنَّا ثوب المَلَك الملوَّن وكتير حلو».

لم يشأ صبحي أن يُضيِّع الوقت في مناقشة الفرق بين أثواب الزفاف في يافا وسَلَمِة، فلم يعلِّق، لأن الوقت قد حان ليتصرَّف بدل إضاعة اللحظات الثمينة في كلام غير مُجدٍ.

قرَّب وجهه من وجهها، وراح ينظر في عينَيْها، إلى أن ظهرت تلك الابتسامة الخفيَّة على وجهها الجميل، ثمَّ أزاح شَعْرها الأشقر المتموِّج إلى الخلف، وضغط جسده على جسدها، وقبَّلها على فمها. وعندما شعر بجسدها يستجيب له، وبثديَيْها الصغيرَيْن يلامسان صدره، تشجَّع للمزيد. ضمَّها بقوَّة أكبر، وأعطاها واحدة من قُبلات شوشانا الفرنسية، وظلَّ مستغرقاً في القُبلة حتَّى انقطعت أنفاسهما. احمرَّ الاثنان خجلاً، أمَّا هي، فأخذت نَفَساً عميقاً، وتنهَّدت، ثمَّ همست: «خلِّينا نطلع من هون قبل ما حدا يشوفنا». انتزعت جسدها من بين ذراعَيْه، وابتسمت له ابتسامة، ستأسر خياله حتَّى آخر أيَّامه، ثمَّ قالت: «بخاطرك». وبقلب مُثقَل وجسد مُستثار، ودَّع صبحي حبيبته التي ركضت مسرعة خارج الخيمة، وابتعدت عن ناظرَيْه.

ظلَّ واقفاً في الممرِّ يراقب شمس وهي تغيب في عَتَمَة الغَسَق.

«كلّ الأشياء الحلوة بيجي وقت وبتخلص، إلَّا حبِّي لشمس. أنا مش عارف بعد ما تعوَّدت إنِّي أكون معك كلّ يوم، كيف بدِّي أقدر أعيش سنة كاملة قبل ما أقدر أشوفك مرَّة تانية»، كان صبحي يتمتم لنفسه. تحت سطوة مشاعره المتأجِّجة فكَّر في أن يصرِّح بحبِّه لوالدته، ولكنها كانت، مثل بقيَّة النساء، مشغولة بجمع مقتنيات العائلة من الخيمة، وتحميلها على الجمَلَيْن اللذَيْن سيحملانهم عائدين إلى يافا. راودتْهُ أيضاً الرغبة في أن يفصح عن حبِّه لوالده حين كان يساعده مع إخوته في فكِّ الخيمة وطيِّها، ولكنْ، لخوفه من أن يفقد السعادة التي كانت تغمر قلبه بسماع كلام لا يعجبه، اختار أن يحتفظ بالأمر لنفسه.

عندما انتهى تفكيك كلِّ شيء، أجال صبحي نظره في المكان وتساءل: كيف تختفي مدينة الخيام التي شهدت حبَّهما هكذا ببساطة؟

في أقلِّ من ثمانٍ وأربعين ساعة، عاد الموقع إلى حالته الأولى: مجرَّد كثبان رملية، يقوم في وسطها المقام والجامع. بدا مقام النبي روبين فارغاً ومهجوراً تماماً مثل صبحي.

الفصل الثاني
العودة إلى يافا

19
الله يكفينا شرّ الضحك
(أيلول - تشرين الثاني 1947)

مرَّ شهران قبل أن تعود يافا وسكَّانها إلى روتينهم اليومي. تساءل صبحي لماذا كان يشعر بالكآبة في حين يجب أن يكون سعيداً بعد أن قضى شهراً كاملاً مع شمس وبقربها. افتقدها أكثر من أيِّ وقت مضى. سأل نفسه وهو يتنهَّد: أين ومتى وكيف سأراها مرَّة أخرى؟

لم تكد المدينة تبدأ في استعادة إيقاع حياتها ونشاطها الاقتصادي والثقافي، حتَّى صعقتْها الشائعة، التي أصبحت الآن حقيقة: الحكومة البريطانية أعلنت رسمياً عن نِيَّتها في إنهاء انتدابها على فلسطين، وسحب قوَّاتها بحلول منتصف ليلة 14 أيَّار 1948، وبدا واضحاً أنها لا تنوي فرض مشروع التقسيم الذي سيتمُّ التصويت عليه في الجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة مساء 29 تشرين الثاني 1947.

كان أمام الفلسطينيِّيْن واليهود شهران فقط، ليصوغوا استراتيجيَّتهم، وليُظهِروا قوَّتهم، ويعرضوا عضلاتهم (في حالة الفلسطينيِّيْن، إن كانت لديهم أيَّة قوَّة أو عضلات). وبينما كانت الأحزاب السياسية تتجادل حول فوائد ومساوئ إنهاء الانتداب، كانت مشاعر القلق والخوف والارتباك تسيطر على المدينة، وكان الفلسطينيُّون، الذين يدركون التفوُّق العسكري للميليشيات اليهودية، يشعرون بالقلق على مستقبل مدينتهم، وقد ملأ الخوف والترقُّب قلوبهم، ومن بينهم صبحي، الذي استعاد كلمات جَدِّه علي قبل بضعة أشهر: «يا خوفي، إذا استمرّت

الشواشر زي ما هو صاير هَلَّأ إنه ما نقدر عمرنا نحتفل بموسم النبي روبين».

«يا ربِّي! معقول يكون الكلام صحيح؟ وين وإيمتى رح أشوف شمس كمان مرَّة؟»، كان يشعر برجفة خوف في جسده كلِّه.

أحسَّ صبحي بالتوتُّر في الأجواء وهو يسير في شارع المحطَّة في طريقه إلى العمل. كان المارَّة والتجَّار يتبادلون الحديث بخوف وقلق عن انسحاب القوَّات البريطانية: «هذا سيخلق فراغاً سياسياً وعسكرياً لن تملأه إلَّا القوَّات الصهيونية. الإنكليز الأوغاد سينسحبون ويتركوننا تحت رحمة الميليشيات اليهودية المدرَّبة تدريباً عالياً والمجهَّزة بالسلاح»، كان صبحي يسمع مثل هذا الكلام طوال الوقت وهو يسير باتِّجاه الكراج.

عندما وصل إلى مكان عمله، وجد أن الحديث تحوَّل إلى الاقتصاد: «ملعون أبو هالشغلة، مين اللِّي بدُّه يدفع رواتب الآلاف من موظَّفين الحكومة والبوليس والمعلمين؟ مش قادر أصدِّق إنه بدهم يلمُّوا أغراضهم ويرحلوا بهالبساطة».

كان صبحي يستمع إلى الحوار بين المعلِّم مصطفى وضابط البوليس الفلسطيني الذي أتى لإصلاح مولِّد كهربائي. والأمر الذي حيَّر صبحي أكثر كان مشاعر الحبِّ والكراهية المختلطة التي يحملها الفلسطينيون لمحتلِّيهم الإنكليز.

«طول عمرنا كنَّا بنشكي من تحيُّز الإنكليز ضدّنا، وهَلَّأ لمَّا صاروا بدهم يطلعوا صرنا نلطم متل الأيتام، شو اللِّي صايرلنا؟»، هكذا قال صبحي لمعلِّمه بعد أن ذهب ضابط البوليس.

«لأ، الموضوع مش هيك، يلعن أبو الإنگليز. المشكلة الحقيقية إنهم

من لمَّا أجوا على فلسطين سنة 1917 سمحوا لليهود يهاجروا ع بلادنا، وكمان سمحولهم يهربوا سلاح ويحصلوا على أحسن تدريب عسكري. وهَلَّأ بدهم يتركونا تحت رحمة اليهود السَّفَلَة. خُد منِّي، يا ابني، إحنا ما عنَّاش أيّ فرصة نقدر نواجههم». كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يسمع فيها صبحي معلِّمه يشتم ويلعن ويتحدَّث بهذا الانفعال كلِّه. أخذ المعلِّم مصطفى نَفَساً عميقاً، ثمَّ أضاف: «طيِّب، أظنّ إنُّه صار الوقت إني آخد مرتي وولادي على بيروت».

«تُوخدهم على بيروت؟! ليش؟! وعشان إيش؟!».

شعر المعلِّم مصطفى كم أرعبت كلماته صبحي، فتراجع قائلاً: «لا لا، ما تقلق، إذا أخدت عيلتي على بيروت، أكيد أكيد رح أرجع على طول».

ومن بين الأحاديث كلِّها عن الخوف والقلق التي سمعها صبحي في الأيَّام الأخيرة، كانت كلمات المعلِّم مصطفى هي أكثر ما أرعبه. شعر بأن ما سيحدث لعشرات الآلاف من الموظَّفين الحكوميِّيْن ورجال البوليس والمعلِّمين بذهاب الانتداب سيحدث له إذا ذهب المعلِّم مصطفى: سيبقى بلا عمل، ولن يتمكَّن من أن يعيل نفسه أو يتزوَّج شمس. ترك كلام المعلِّم مصطفى فيه حزناً وإحساساً بالكآبة، فحاول أن يشغل نفسه، فوضع سلك محرِّك مكسور في الكهرباء، وفي الحال استغرق في عمله.

الشائعات تطفو في الأرجاء

كالنار في الهشيم انتشر الخوف والقلق والارتباك في يافا وأنحاء

فلسطين كلِّها، وصار عدم اليقين الذي يلفُّ مستقبل المدينة مصدر قلق للجميع. وبما أن يافا كانت جزءاً من الدولة العربية المقترحة حسب ما ينصُّ عليه مشروع التقسيم، فقد جادل بعضهم بأنه ليس هناك ما يدعو إلى الخوف، في حين جادل بعضهم الآخر بأن الصهاينة لن يكتفوا بحصَّتهم، وأنهم سيلاحقوننا على ما هو بين أيدينا بعد تثبيت دولتهم اليهودية على الأرض. وبينما دعت الأقلِّيَّة إلى قبول مخطَّط التقسيم، وقف غالبية الفلسطينيِّيْن في وجهه متصدِّين له، وكذلك فعلت بعض الأحزاب اليهودية، مثل ليحي وأرغون.

دعا بعضهم إلى التصعيد ضدَّ العدوِّ، في حين دعا آخرون إلى الالتزام باتِّفاقية عدم الاعتداء.

دعا بعضهم أيضاً إلى إضراب لمدَّة ثلاثة أيَّام، بينما دعا آخرون إلى إضراب مفتوح.

بعضهم طالب بالمزيد من الأسلحة، في حين حذَّر آخرون من ذلك.

وبغضِّ النظر عمَّا فكَّر به الفلسطينيون أو ما لم يفكِّروا به، فقد صوَّتت الجمعية العامَّة للأمم المتَّحدة مساء 29 تشرين الثاني 1947 على القرار 181، الذي يدعو إلى تقسيم فلسطين الانتدابية إلى دولتَيْن: دولة عربية وأخرى يهودية. حدَّد القرار حدود كلٍّ من الدولتَيْن، وكما هو متوقَّع، كانت يافا جزءاً من الدولة العربية. نصَّ القرار أيضاً على أن تُعامَل القدس معاملة خاصَّة، بعَدِّها «كياناً مستقلاًّ» تحت وصاية دولية دائمة.

صوَّتت 33 دولة مع القرار، في حين صوَّتت 13 دولة ضدَّه، وامتنعت 10 دول عن التصويت، بما فيهم بريطانيا.

كان صبحي في البيت يستمع إلى الراديو مع أفراد العائلة والأصدقاء والجيران عندما سمعوا صوت إطلاق نار مباشرة بعد الإعلان عن قيام دولة يهودية في فلسطين، ولم يتمكَّن أحد من أن يعرف ما إذا كانت العيارات النارية هي رصاصات احتجاج من القلب النازف للبلدة القديمة في يافا أم أنها رصاصات احتفال قادمة من القلب الفتيِّ لتلِّ أبيب.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأُمَّة حديثة الولادة تهتف وترقص في شوارع «المدينة البيضاء»، كان قلب أُمَّة عريقة ينزف حزناً، فيما فاضت عيونها بالدموع، وفيما كان أبناؤها يخشون من أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم ينم أحد ليلة التاسع والعشرين من تشرين الثاني، بعضهم من فرط الحزن، وبعضهم الآخر من فرط السعادة. تفشَّى الخوف في قلوب الناس مع حلول اليوم التالي: هجوم يليه هجوم آخر، السيَّارات والباصات على جانبَي الطريق تتعرَّض لهجمات متكرِّرة، وفي وقت قياسي، أدَّت الاعتداءات إلى تصعيد غير مسبوق. سحبت دوَّامة من العنف يافا وتلّ أبيب إلى عمقها، وصارت الأحياء العربية واليهودية المتجاورة مناطق للاحتكاك والصدامات. وفي حين دعا زعيم حزب النجَّادة، محمَّد نمر الهواري، إلى إخلاء ضواحي المدينة من سكَّانها، دعا الحاجُّ أمين الحسيني، زعيم الحزب العربي، السكَّان إلى الصمود في منازلهم. وقعت أحداث عنف في سوق الكرمل: أُضرمت النار في المحلَّات العربية واليهودية في السوق على حَدٍّ سواء، مُجبِرة أصحاب المحلَّات والباعة المتجوِّلين على الهرب، كما هربت بعض العائلات اليهودية المقيمة في يافا. وفي وقت قصير، تباطأت أشكال التعاون بين العرب واليهود كلُّها، إلى أن توقَّفت بالكامل، حتَّى وصل الأمر إلى وقف

الأعمال المشتركة بين الطرفَيْن في قطاع الإنشاءات وتصدير البرتقال.

كانت أصوات إطلاق النار والانفجارات تُسمَع طوال الليل، إلَّا أن فطرة الحياة وطينة أهل يافا المحبِّين لها جعلتْهم قادرين على الاستمرار في حياتهم اليومية كما لو أن شيئاً لم يكن، ومنهم كان صبحي وأفراد عائلته. بقي الحال على ما هو عليه حتَّى جاء اليوم الذي تعرَّضت فيه ثلاثة مقاهٍ مكتظَّة لهجمات في ضوء النهار، كان ذلك في الثاني عشر من كانون الأوَّل، عندما أضرم أربعة يهود يمنيِّيْن النار في مقهى سامبو، وقد شوهد أحدهم يهرب وفي يده راديو المقهى، وفي الثلاثين من كانون الأوَّل توقَّفت شاحنة أمام باب سينما الحمراء في وسط شارع الملك جورج، وألقى أحدهم منها برميل متفجِّرات، ولاذ بالفرار. تدحرج البرميل خلال ثوانٍ لبضعة أمتار أسفل الطريق، لينفجر بجوار مقهى فينيسيا، متسبِّباً في مقتل 27 من روَّاد المقهى. تنهَّد صبحي بعد أن سمع عن الانفجار، متذكِّراً مروره بهذا المقهى في أثناء جولته الكبرى في المدينة، قبل أن يغيِّر عمَّه حبيب مسار رحلته، ليصل به إلى الكرخانة، حيث شوشانا. ذهبت تلك الأيَّام بلا عودة!

في ذلك اليوم أيضاً، الثلاثين من كانون الأوَّل، اقترب الموت من بيت صبحي: ضرب الخوف قلوب الأشاوس الشجعان التي لا تعرف الخوف، بَحَّارة وصيَّادي مقهى المدفع في ميناء يافا. «قارب صغير جاي من تلِّ أبيب قرَّب من مقهى المدفع وبلَّش يضرب علينا رصاص، ردِّينا عليهم برصاص، هربوا، وكلّ الناس اللِّي كانت عالمينا في هداك الوقت كمان هربت»، قال حبيب وهو يرتجف.

مع مثل هذه الهجمات التي استهدفت المدنيِّيْن، ساد الخوف الحياة العامَّة في يافا، ودعا القادة السياسيون الناس إلى عدم التجمُّع

في المقاهي أو الساحات العامَّة، حتَّى بدأت شوارع يافا المكتظَّة تفرغ من الناس في وقت مبكِّر من المساء. ومن أجل منع الاعتداءات بين الطرفَيْن، وللسيطرة على حوادث النهب والسطو المتزايدة في أنحاء المدينة كلِّها، فرضت القوَّات البريطانية حظر التجوُّل ليلاً، وتحديداً في أطراف المدينة.

ذهبت أُمسيَّات يافا الجميلة ولياليها إلى غير رجعة.

ولَّت حياة الليل ومغامرات حبيب وأصحاب الكيف أمثاله في محلَّات تلِّ أبيب ومقاهيها وباراتها إلى الأبد.

20

برتقال الموت

(الأحد، 4 كانون الثاني 1948)

الأحد، الرابع من كانون الثاني سنة 1948، كان يوماً مُشمساً ومُنعشاً.

لا شيء في سكينة ذلك اليوم وهدوء البحر الأبيض المتوسِّط، أو في المشهد اليومي لشاحنة تحمل أكواماً من البرتقال في مدينة البرتقال كان يبعث على أيَّة شكوك.

كعادته، أفاق صبحي في الخامسة فجراً، وبعينَيْن ناعستَيْن خرج إلى الشرفة، وجلس على كرسيٍّ، وأخذ يحدِّق في البحر بانتظار كأس من حليب الماعز، وفنجان من القهوة التركية الحلوة من يدَي أُمِّه خديجة. وبمجرَّد أن انتهى من شرب قهوته، لبس «أوفرهول» العمل، وخرج من البيت، يمشي في طريق المنشيّة متَّجهاً إلى الكراج، وما إن دخل حتَّى وقف كعادته متأمِّلاً صورة العروس، بفستانها الأبيض، المعلَّقة على الجدار فوق صندوق عدَّته. فكَّر في محبوبته شمس، ابتسم، ثمَّ شرع في العمل.

كان منحنياً فوق أحد المحرِّكات عندما هزَّ الكراج انفجاران متتاليان، أفقداه توازنه: «يا ساتر، يا ساتر، يا ربّ، إيش اللِّي عم بصير؟»، صاح بأعلى صوته، ولفَّ ذراعَيْه حول رأسه بحركة تِلْقَائِيَّة وهو يسقط على الأرض، ولكنه سرعان ما وقف على قدمَيْه، ليجد المعلِّم مصطفى واثنَيْن من زبائنهما مختبئَيْن تحت إحدى الطاولات. مرتعداً من الخوف، أخذ يدور في حلقات معتقداً أن شيئاً ما قد ضرب الكراج من الخلف، وفي

حالة من الذعر والحَيْرَة، خرج إلى الشارع الرئيس، ليرى المكان، وكأنّما تحوَّل إلى مستشفى للمجانين.

الذعر سيِّد اللحظة

بينما شوهد بعضهم يركضون باتِّجاه مركز المدينة، حيث ضربت الانفجارات، شوهد آخرون يهرولون بعيداً عن المكان.

ترك بعضهم سيَّاراتهم مذعورين، بينما تجمَّد آخرون في سيَّاراتهم، لا يعرفون ماذا يفعلون أو إلى أين يذهبون.

أمَّا العالقون في زحام السيَّارات، فكانوا يخشون الأسوأ.

لجأ بعض المارَّة إلى داخل البنايات، بينما هرب آخرون خارج البنايات ذاتها.

دارت الأُمَّهات وأطفالهنَّ حول أنفسهنَّ في ذعر مطبق، بينما تجمَّد آخرون عاجزين عن الحركة.

وبينما هرب بعضهم شمالاً، اتَّجه بعضهم الآخر جنوباً.

منهم مَنْ ركض باتِّجاه البحر، ومنهم مَنْ فرَّ بعيداً عنه.

فوضى هنا، فوضى هناك، وفوضى في كلِّ مكان.

وبينما غطَّت السماء سُحُب من غبار المباني المدمَّرة، أفقدت الشائعاتُ المحبِطةُ الجموعَ الحائرةَ صوابَها:

«اليهود فجَّروا الجامع الكبير».

«لأ، فجَّروا برج الساعة».

«فخَّخوا السرايا العثمانية بمَنْ فيها».

«في شاحنة مليانة برتقان فَجَّرت مبنى البلدية، وسوَّتْهُ بالأرض».

«كلّ أعضاء اللجنة الوطنية العربية تفجَّروا، وما ضل منهم ولا واحد».

«كلّ البنوك تفجَّرت، بنك باركليز الإنكليزي، والبنك العثماني العربي».

«ولك المصاري عم بتطير في كلّ مكان، خلِّينا نروح نلمِّلنا شوي».

«شو إنت انجنِّيت، أوعى تروح هناك، إنت لسه ما فهمت طريقتهم؟ بيصير أوَّل انفجار، وبتتجمَّع الناس، فبيصير انفجار تاني أقوى من الأوَّل».

«هُمَّه أصلاً بدهم يانا كلّنا أموات، مش بيقولوا «العربي المنيح هوِّي العربي الميِّت»؟».

وعلى الرَّغْم من الشائعات التي انتشرت كالنار في الهشيم في أرجاء المدينة، إلَّا أن أحداً لم يكن قد سمع حتَّى الآن الأنباء الموجعة: أكثر ضحايا الانفجارات المدمِّرة كانوا من الأطفال، أطفال أيتام كانوا يتناولون غداءهم في التكيَّة (المطبخ الخيري) التي تديرها دائرة الشؤون الاجتماعية، الواقعة في الطابق الثاني من مبنى السرايا.

ومثل الكثيرين غيره من مدنيِّيْن وأفراد من الشرطة الفلسطينية والجيش البريطاني، ركض صبحي باتِّجاه موقع الحَدَث، ليجد أمامه كومة من الركام مليئة بالجثث والأشلاء، ومن تحت الردم، كانت تُسمَع صيحات عالية وخافتة. كان المبنى ذو الطوابق الثلاثة قد انهار، باستثناء

الأعمدة الرومانية الأربعة في الواجهة الأمامية، آخذاً معه أجساد أولاد وبنات أبرياء وأرواحهم، كانوا في انتظار وجبة ساخنة.

أخذ صبحي يبكي بأعلى صوته وهو يسمع صرخات الأطفال العالقين وأنينهم تحت الرَّدْم. كان انتشال الموتى والمصابين كابوساً، سيحرمه من النوم لسنوات طويلة قادمة.

ما إن عرف الناس أن مبنى السرايا كان هدف الهجوم الإرهابي حتَّى بدأت التكهُّنات حول عدد الضحايا ومَنْ كان وراء الهجوم:

«أكثر الضحايا كانوا أطفال ماتوا عشان صحن شوربة، يمكن ما كمَّلوه».

«نحو عشرين طفل ماتوا».

«لو ما كان يوم أحد، كان عدد الضحايا صار تلات أضعاف».

«براهنكم عاللِّي بدكم ياه إنه اللِّي عملوها هُمَّه قوَّات الإنكليز».

«لأ، بس العرب المتعاونين والمخبرين هُمَّه اللِّي بقدروا يزرعوا متفجِّرات جوَّا مبنى السرايا».

«مش صحيح، ما عملها غير عصابات اليهود السرِّيّة».

«شو الإشي السرِّيّ فيهم إذا كانوا بينفّذوا هجماتهم في عزّ النهار؟».

وحده التاريخ سيكشف بعد أعوام أن الرجلَيْن اللذَيْن قادا شاحنة البرتقال المفخَّخة المُحمَّلة بنصف طنٍّ من المتفجِّرات من قلب تلِّ أبيب إلى قلب يافا كانا عضوَيْن في عصابة ليحي اليهودية. لم يكتشف صبحي إلَّا في اليوم التالي أن جاره وصديقه المِثْلِيَّ هاني (الذي كان

قد أوصله في سيَّارته إلى ستوديو التصوير) كان من بين الضحايا، إذ كان يمرُّ من أمام مبنى السرايا لحظة الانفجار.

أُقيمت الجنازة في السادس من كانون الثاني. بصمت وعينَيْن غارقتَيْن بالدموع، مشى صبحي مع آلاف المشيِّعين من مستشفى المدينة إلى مقبرتيَ المسيحيِّيْن والمسلمين. «مسكين هاني، شو هالحظّ؟ قدِّيش كان لطيف ومُسالم!»، ظلَّ صبحي يكرِّر قوله وهو يساعد والد هاني في مواراة أشلاء جسد ابنه التراب.

في ذلك المساء، وبعينَيْن مُحمرَّتَيْن من البكاء وصداع لا يُحتمَل، جلس صبحي على كرسيٍّ منخفض إلى جانب جَدِّه علي، وسأله: «بس، فسِّرلي، يا سيدي، ليش ميليشيات اليهود بيفجروا مطبخ خيري للأيتام مع إنهم بيعرفوا إنُّه اللجنة الوطنية العربية انتقلت من مبنى السرايا قبل أشهر؟».

«الخوف، يا ابنيِّي، الخوف، بدهم يزرعوا الخوف في قلوبنا وعقولنا، هاد اللِّي بدهم ياه، وهاد اللِّي نجحوا في إنهم يعملوه»، قال علي، ثمَّ سحب نَفَسَاً طويلاً من سيجارته، وراح ينفث دوائر فوق دوائر من الدخان. في تلك اللحظة ضرب الخوف فعلاً قلب صبحي وهو يفكِّر في شمس ويتساءل متى وأين سيراها بعد اليوم.

21
سرقة قطار
(أواخر آذار 1948)

بينما هو في طريقه إلى عمله، سمع صبحي الخبر المُقلق والمثير في آنٍ واحد عن سرقة أحد القطارات. ولأن معظم أصحاب الدكاكين والمقاهي على جانبَي شارع المنشيَّة كانوا قد أداروا أجهزة الراديو على محطَّة الشرق الأدنى، التي تبثُّ من وسط يافا، كان من السهل عليه أن يتابع تفاصيل الخبر دون الحاجة إلى التوقُّف أو حتَّى الإبطاء، كما كان من السهل أن يتابع التعليقات والتحليلات السياسية لأصحاب الدكاكين والزبائن والمارَّة على السواء.

«في طريقه من معسكر صرفند إلى حيفا، تعرَّض قطار، يحمل ذخائر بريطانية، للنهب بينما كان يعبر محطَّة الخضيرة. صَعِدَ عدد من الرجال المسلَّحين إلى القطار، واعتقلوا حرَّاسه، وأجبروه على التوقُّف، حيث أنزلوا حمولته كلَّها من الذخائر والأسلحة، وفرُّوا هاربين. تقوم قوَّات الجيش البريطاني والشرطة بالتحقيق في الحادثة، من أجل معرفة الجُناة».

وهو يستمع إلى الخبر، اعتقد صبحي للوَهْلَة الأولى بأنه إعلان لفيلم الويسترن «سرقة القطار الكبرى»، من بطولة بوب ستيل وكلير كارلتون، الذي أُنتج سنة 1941، والذي حضره مع أصدقائه في سينما نبيل قبل عامَيْن.

«تحقيقات؟ لإيش التحقيقات؟ على مين عم يضحكوا؟ كلّها

مسرحية، المؤامرة واضحة وضوح الشمس، هاد اتِّفاق بين الجيش البريطاني وميليشيات الصهاينة. وبما إنُّه الحكومة البريطانية أعلنت نِيَّتها عن إنهاء الانتداب على فلسطين وسحب قوَّاتها في 14 أيَّار 1948، رح يضلُّوا يعملوا ألاعيب علينا. واضح إنه الإنكليز بدهم يعطوا كلّ أسلحتهم وذخيرتهم للصهاينة، بدهم يتأكَّدوا إنه اليهود يضلُّوا أقوى منَّا حتَّى يسيطروا علينا، ويتمُّوا يضربونا شلاليط بنفس طريقة الإنكليز اللِّي عوَّدونا عليها من يوم ما وصلوا على هالبلاد»، علَّق أحد التجَّار، بينما خالفه آخر:

«بس رُوْق علينا شوي، وما تتسرَّع في الحُكْم هيك، ممكن جدَّاً إنه تكون الفتوّة العربية هي اللِّي سرقت الترين»، في إشارة إلى الجناح العسكري للحزب العربي الفلسطيني بقيادة الحاجّ أمين الحسيني.

«وليش الفتوّة ومش النجَّادة؟».

منذ تصاعدت المواجهة بين العرب واليهود بعد إعلان قرار التقسيم في 29 تشرين الثاني 1947، انضمَّ صبحي، مثل العديد من الشباب، إلى حرس الحيِّ الليلي الذي درَّبه حزب النجَّادة بقيادة محمَّد نمر الهواري.

«مين ما كان يكون، بس المهمّ تكون الميليشيات العربية هي اللِّي سرقت ذخيرة الترين ومش الصهاينة، لإنه إحنا في أَمَسّ الحاجة لهاي الأسلحة، عشان ندافع عن حالنا. أكيد هُمَّه مش ناقصهم سلاح أكتر من اللِّي عندهم، سفن بحالها هرَّبتلهم سلاح على مدى سنين، والإنگليز غاضِّين النظر عن الموضوع».

«وفي إشاعة قوية بتقول إنه الفتوة العربية والجهاد المقدَّس هوّه اللِّي

سرق الترين»، إشارة إلى الجناح العسكري للحزب العربي الفلسطيني بقيادة عبد القادر الحسيني.

«أيّ إشاعات، يا رجل؟ لسَّه هَلَّأ سمعنا الخبر على الراديو! إنت اللِّي اخترعت هالإشاعة. غريب كيف الإشاعات بتتفبرك وبتنتشر حتَّى قبل ما الإشي يصير. والله إحنا شعب بيحبّ يألِّف صحيح»، هكذا سجَّل صاحب مقهى الانشراح اعتراضه وهو يجهِّز قهوته لاستقبال أوَّل الزبائن.

«شو هالحكي الفاضي؟ ولا حدا من الميليشيات العربية، لا الفتوّة ولا النجَّادة ولا الجهاد، بيقدروا يسرقوا ترين محمَّل بذخيرة بريطانية، خلصونا، كلّ اللِّي بيقدروا عليه العرب هوّه إنهم يقاتلوا بعض، هاد بس اللِّي إحنا شاطرين فيه»، قال الحلَّاق العفي الساخر وهو يعلِّق مناشفه على المنشر فوق الرصيف، لتجفَّ.

كان صبحي يعرف، مثل غيره، كم كانت الأسلحة قليلة في أيدي الميليشيات العربية، وكم كانت عقوبات البريطانيِّيْن ثقيلة على مَنْ يُعثَر معه على رصاصة، ناهيكَ عن بندقية.

«يا شباب، دِيْروا بالكم، وما تتفشخروا، إذا الواحد منكم انمسك ومعه رصاصة وحدة بيروح فيها سجن سنتين، وإذا انمسك معه بارودة بياخد مؤبَّد»، تذكَّر صبحي هذه الكلمات التي قالها أبو جمال، مدرِّب الحيِّ، في أوَّل يوم انضمَّ فيه صبحي إلى الحرس الليلي لحيِّ المنشيَّة. وبقَدْر ما تمنَّى أن يكون النجَّادة هم مَنْ سرقوا القطار، إلَّا أنه كان يعرف جيِّداً أنهم لم يمتلكوا لا التدريب العسكري ولا المهارة اللازمَيْن لمثل هذه العملية.

«كلّ اللِّي بقدر أقوله إنه لازم تحضروا حالكم لكمان كم يوم منع

تجوُّل وعمليات تفتيش بيوت واعتقالات. متل العادة، اليهود بياخدوا السلاح، وإحنا بناخد العقوبة. هاي هي سياسة الإنكليز طول الخمسة وتلاتين سنة الماضية، ومش رح تتغيَّر في آخر أسبوعين من حكمهم».

«إذا طلعت الهاغاناه، أو الأسوأ من هيك الأرغون أو إيتسل هُمَّه اللِّي سرقوا الترين وسرقوا السلاح، اقرا على يافا السلام».

«مشان الله بطلوا هالشؤم، وما تكونوا انهزاميِّينْ، قرار التقسيم واضح، يافا جزء من الدولة العربية، وعشان هيك مش رح يهاجموا يافا أو يحتلُّوها. طَلّعوا الموضوع من روسكم». مكتبة سُر مَن قرأ

«هادا كلام فاضي، يا جماعة، الهاغاناه بدهم يحتلُّوا المنشيّة»، قال أبو سامي، صاحب المخبز الأفضل في المدينة. كان صبحي كلَّما مرَّ من أمامه، وشمَّ رائحة خبزه الطازج ومعجَّناته تذكَّر خبز الطابون الشهي الذي يحلم أن تخبزه له شمس قريباً في بيتهما.

«صدّقوني، هدول الصهاينة غدَّارين، مش بس بدهم يحتلُّوا حيّ المنشيّة، بدهم المدينة بحالها، لإنُّه يافا شوكة في حلقهم، ومش رح يسمحولها تضل واقفة عل رِجلِيْها».

لم يعرف صبحي وبقيَّة أعضاء الحرس الليلي في المنشيّة في حينه أن بطلَي فيلم الكاوبوي الحقيقيَّيْن في محطَّة الخضيرة لم يكونا لا بوب ستيل ولا كلير كارلتون، ولكنْ، مناحيم بيغين، قائد عصابة الأرغون اليهودية، ويوسف نخمايس، الخبير العسكري من القدس، فقد كانت عملية السرقة ضربة، زوَّدت ميليشيا أرغون بنحو 20 ألف قذيفة مورتر، ستسقط بعد بضعة أسابيع في قلب يافا، وتقرِّر مصيرها ومصير القرى من حولها جميعها.

22

استعراض الرعب في القدس

(8 نيسان 1948)

يقال إن الأخبار السيِّئة لا تأتي فُرادى، وإنما ثلاثيَّة، ولكنها لصبحي ومدينته يافا جاءت أربعة في ضربة واحدة، ففي الثامن من نيسان استيقظت فلسطين ومعها العالم العربي على الخبر المُفجع: عبد القادر الحسيني، قائد الجهاد المقدَّس، الذراع العسكرية للحزب العربي الفلسطيني، استُشهد في معركة القسطل قرب القدس. بعد سنوات من ذلك اليوم سيكشف التاريخ أن القائد المحبوب عبد القادر الحسيني، ابن محافظ القدس، كان قد أُصيب في المعركة، وعندما استجدى من عدوِّه شُربة ماء، تلقَّى رصاصة في رأسه عوضاً عنها.

وفي صبيحة التاسع من نيسان، وغير بعيد عن قرية القسطل، هاجمت قوَّات أرغون وليحي والهاغاناه قرية دَيْر ياسين، وبدم بارد قنصت 250 مدنياً فلسطينياً بينما هم يفرُّون للنجاة بحيواتهم، أمَّا الذين نجوا من بشاعة المجزرة، فقد حُمِّلوا في شاحنات، وعُرضوا في موكبٍ، جاب شوارع الأحياء العربية في القدس.

حقَّق الاستعراض المرعب غايته، متسبِّباً في موجات من الفزع عبر فلسطين بأكملها، وما إن انتشرت تفاصيل البشاعات التي تعرَّض لها المدنيّون حتَّى سرى الخوف بين الناس، وأُخلي المدنيُّون، خصوصاً النساء والأطفال، بعيداً عن مناطق القتال. أمَّا في يافا، فقد كان الهروب كلَّ ما تحدَّث الناس عنه في الأسابيع التالية:

«شو رأيك آخد إِمَّك وخواتك بالسيَّارة على بيروت عند قرايبنا؟».

«أعتقد أحسن شي أبعت مرتي والأولاد عالشام، يقعدولهم شهر أو تنين عند عمتي عبال ما الأمور تهدا».

«ليش ما نروح عالإسكندرية، بكّير في إجازة هالسنة عبال ما الأمور تتحسَّن».

«يمكن لازم نستأجرلنا بيت في رام الله أو نابلس وننتقل لآخر الصيف».

كان هذا حديث المدينة، خصوصاً في المناطق المحاذية لتلّ أبيب في الشَّمال وبيت يام في الجنوب، وكذلك في القرى القريبة من يافا، مثل سَلَمِة، ممَّا جعل صبحي يدخل في حالة من التوتُّر والخوف الشديدَيْن. ومثل العائلات كلِّها في يافا، كانت عائلة صبحي تتجادل وتتناقش حول ما يجب أن تفعل وأين تذهب:

«ليش ما تُوخدي أبوي وإِمِّي والبنات وأمير وتروحوا تقعدوا عن قرايبنا في نابلس أكم أسبوع»، قال إسماعيل والد صبحي لزوجته خديجة.

«إيش؟ أبوك وإِمَّك؟ والأولاد؟! أنا شخصياً مش متزحزحة من بيتي، إحنا يا بنعيش سوا، يا بنموت سوا».

«بس مرَّة في حياتِك اسمعي كلامي، يا خديجة، هاي مش بس قصَّة حياة وموت، هاي قصَّة شرف وعرض، ما إنت شفتي كيف الحقيرين اغتصبوا النسوان والبنات في دَير ياسين».

وما إن نُطِقَت الكلمة المحرَّمة حتَّى ساد الخوف، وساد معه الصمت.

مع ذلك، فقد تمسَّكت والدة صبحي برأيها، ولكنْ، ليس طويلاً،

فإطلاق النار المتبادل وتتالي الانفجارات والأعمال الإجرامية ضدَّ المدنيِّيْن، بمَنْ فيهم النساء والفتيات، ذلك كلُّه جعلها تشكُّ في صحَّة موقفها.

سألها إسماعيل: «إنت سمعتِ شو صار في سَلَمِة اليوم الصبح؟ مجموعة من المستوطنين اليهود حاولوا يخطفوا صبيَّة بتشتغل في الأرض».

«إيش؟»، صرخ صبحي وهو يقفز من كرسيِّه، ويقترب من والده.

«شو صارلكَ، يا ابنيِّ؟»، سأله والده، ثمَّ أضاف: «الحمد لله، إنها قعدت تصرِّخ وتضرب وتدافع عن حالها لحدّ ما سمعها أبوها وإخوتها وأجوا يركضوا، وخلَّصوها من بين إيديهم».

هدأ صبحي قليلاً، ثمَّ اطمئنَّ عندما تذكَّر أن لشمس أخاً واحداً فقط، وهو يصغرها سنَّاً.

اجتاحت يافا أمثال هذه القصص، وجافى النوم العيون، أمَّا خديجة والدة صبحي، فقد استسلمت بعد مقاومة دامت أيَّاماً قليلة: «شي مرعب، ما بقي حدا في المنشيّة، أكتر الجيران طلعوا، ويمكن إجا الوقت إنه نروح كلّنا على نابلس أو عَمَّان أو نروح نسكن في البَيَّارَة».

«شو قصدك كلّنا؟ أنا مش رايح ولا مكان، ولا أخوي جمال. مش رح نترك دارنا للحرميّة. إحنا التنين رح نضل مع عمِّي حبيب وحرس الحيّ، لازم نحمي دارنا وندافع عن الحيّ مع الشباب»، بالطبع لم يُفصح صبحي لوالدته عن أن فرص لقاء شمس أو حتَّى رؤيتها عن بُعد، أو على الأقلِّ معرفة مكانها والاطمئنان عليها، ستكون أكبر بكثير إذا بقي صامداً في يافا، بدل أن يهرب إلى نابلس أو عَمَّان.

«حبيبي، يمَّا، يا صبحي، إنتو كلّكم صغار، وما بتقدروا تضلُّوا لحالكم، ولا سمح الله تضطرُّوا تحاربوا هالوحوش الصهاينة. ولا واحد فيكم بعرف يحمل سلاح أو يستعمل بارودة. الله يحميكم، يمَّا»، قالت خديجة، واقتربت من صبحي، واحتضنته بقوَّة وهي تبكي.

«يمَّا، أنا مش رح أترك الدار، إنت بدَّك يانا نترك دارنا للحرميّة؟».

«ماشي ماشي يمَّا، خلص، خلِّيك إنت وجمال في البيت مع عمَّك حبيب، بس بتوعدني إنه ما تحملوا بواريد، ولا تحاربوا، وبهالوقت أنا وأبوك لازم نلاقي سيَّارة عشان آخد حماي وحماتي وخواتك عند قرايبنا في نابلس. وإنت، يا إسماعيل، ليش ما تاخد أمير يوَنْسَك ويساعدك في البَيَّارَة؟ لازم حدا يضلّ فيها ويدير باله عليها. شو هالحالة، يا الله؟ الله يلعن الإنكليز واليهود والعرب السَّفَلَة اللِّي بتآمروا علينا»، ثمَّ دخلت في حالة من الهستيريا.

«طولي بالك، يمَّا، أنا عمري ما سمعتك بتسبِّي هيك». أدرك صبحي كم كانت والدته مضطربة، فاقترب منها، وعانقها مرَّة أخرى. شعرت خديجة بأنها تنوء تحت ثِقَل كلِّ ما يحدث، فأخذت في البكاء مجدَّداً، ولكنْ، بصوت مرتفع هذه المرَّة.

مع أن العائلة تناقشت طويلاً بشأن مَنْ يذهب ومَنْ يبقى، وظلَّت الخطط تتبدَّل مرَّة تلو أخرى، إلَّا أن أحداً لم يغادر البيت في ذلك اليوم.

كلَّما اقترب منتصف ليلة 14 أيَّار 1948، الليلة الأخيرة للانتداب البريطاني، أصبحت هجمات اليهود على البلدات والقرى العربية أكثر وحشية، وخصوصاً على المناطق المنصوص عليها كجزء من الدولة اليهودية. ومع أن قرار التقسيم نصَّ على أن يافا، كبرى المُدُن العربية،

هي جزء من الدولة العربية، إلَّا أن مناحيم بيغين، زعيم أرغون، كان له رأي آخر: كانت خُطَّته الاستيلاء على أكبر قَدْر ممكن من الأراضي قبل الخامس عشر من أيَّار، وبكلمات أخرى، قبل أن تتمكَّن الجيوش العربية من الدخول إلى فلسطين. وبما أن أيَّاً من الجيوش المصرية والعراقية والسورية والأردنية لن تستطيع الدخول قبل انتهاء الانتداب رسمياً، أو قبل أن تنسحب القوَّات البريطانية بالكامل، فقد قرَّرت الميليشيات اليهودية أنه كان من الأسهل استراتيجياً وتكتيكياً احتلال يافا، أو على الأقلّ الأجزاء الشَّمالية منها، وخصوصاً حيّ المنشيّة، قبل وصول الجيوش العربية، وخاصَّة الجيش المصري. وهكذا فُتِحَت أبواب الجحيم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جحيم في نيسان

الأحد، 25 نيسان

الاثنَيْن، 26 نيسان

الثلاثاء، 27 نيسان

ثلاثة أيَّام متتالية من الجحيم.

تلقَّت المنشيّة حصَّة الأسد من القصف المدفعي الثقيل الآتي من تلِّ أبيب، لأن الهدف المُعلَن من القصف كان فصل الحيّ، عُنق زجاجة يافا، عن بقيَّة المدينة.

في الصباح الباكر من يوم الأحد، الخامس والعشرين من نيسان، ظهرت الذخيرة التي كانت قد سُرقت من القطار في سماء يافا. على

مدى ثلاثة أيَّام متتالية، ضربت نحو عشرين ألف قذيفة قلب المدينة بشكل عشوائي. وعلى خلاف فصول ربيع سابقة، عندما كانت أسراب من طيور الزَّرْزُوْر المهاجرة تشكِّل غيوماً سوداء في سماء يافا، ففي هذا الربيع، الربيع الأخير لأهالي يافا، حلَّقت أسراب من القذائف مشكِّلة غيوماً سوداء فوقها. نشر القصف العشوائي الخوف والرعب والموت بين سكَّان المدينة، لإرغامها وأهلها على الركوع.

ملأ هدير القذائف سماء ساحة الشهداء، وانضمَّت أسماء جديدة إلى لائحة الشهداء.

سقطت القذائف على المستشفيات، ليصبح المرضى أكثر مرضاً، ووضعت النساء الحُبَالَى أطفالهنَّ قبل أوانهم.

سقطت على أماكن العبادة، حيث كان الناس يدعون ألَّا يكون هذا آخر أيَّامهم.

سقطت على المدارس، على الأسواق، على المتاجر وأصحابها، وعلى البنوك.

كانت المدينة في قبضة الذعر والرعب والهستيريا.

والناس يفرُّون بذعر في الاتِّجاهات كلِّها.

أولئك الذين كانوا في المباني خرجوا هاربين منها، والذين في الشوارع هربوا إليها مذعورين.

القتلى والجرحى تُركوا في الشوارع.

انجُ بحياتك، أو مُت كالآخرين.

كان الجميع يبحثون عن وسيلة للخروج:

بالسيَّارة،

بالباص،

في شاحنة،

على الحنطور،

أو على درَّاجة،

على عجلات أو على الأرجل، فقط انجُ بحياتك.

فقط اخرجْ من هنا، بحقِّ الجحيم.

ظلَّ الخوف سيِّد الموقف في الأيَّام القليلة التالية.

انتشرت عمليات النهب والسرقات،

لا ماء، ولا كهرباء، ولا وقود،

لا أفران لخبز رغيف واحد، ولا دكَّان لشراء الطعام، ولا بنك لسحب ما توفَّر من نقود.

يوم من أيَّام الجحيم عطَّل المدينة بالكامل.

مثل معظم العائلات اليافاويَّة في المدينة التي فقدت صوابها، كان أفراد عائلة صبحي يدورون حول أنفسهم، وفي أرجاء المنزل دون هدف. كانوا يندفعون من وإلى الغرف، وهم يتجادلون بشأن ماذا يأخذون معهم، وماذا يتركون وراءهم. كانوا يصيحون على بعضهم بعضاً، بينما كانت والدة صبحي وشقيقتاه يجمعنَ بعض الأشياء الثمينة، وأيضاً

بعض الأشياء التي لا لزوم لها: مخدَّة، بطَّانيَّة، كعكة برتقال طازجة، شهادة ميلاد، سجَّادة قديمة، سكِّين. وبينما استمرَّت الفوضى في المنزل، خرج والد صبحي مسرعاً إلى الشارع، ليبحث عن أيِّ شيء على عجلات: سيَّارة، شاحنة، درَّاجة، أو حتَّى حنطور. ولكنْ، نظراً لندرة الوقود في المدينة، فإنه حتَّى لو وجد سيَّارة أجرة أو سيَّارة خاصَّة، فلن يستطيع أن يدفع أُجرتها. وبانتظار قرار العائلة بشأن مَنْ يغادر ومَنْ يبقى، جلس جَدُّ صبحي وجَدَّته عاجزَيْن في زاوية بعيداً عن جنون بقيَّة العائلة، الأطفال فقط كانت لديهم بقيَّة من صفاء العقل والقلب، ليفكِّروا بحيواناتهم الأليفة المذعورة.

سأل سامي، ابن عمّ صبحي ذو الأربع سنوات، جَدَّتَهُ: «يا ستِّي، بقدر آخد سامبو معي؟».

«والله، يا حبيبي، أنا ما بعرف إذا في إلي أنا مطرح في السيَّارة، فكيف بدُّه يكون في مطرح لَلْبِسْ تبعك؟».

«بس إنت كبيرة، يا ستِّي، وسامبو صغير قدّ الكفّ».

رَغْماً عنها ابتسمت الجَدَّة: «لا، يا حبيبي، اترك البِسْ مع صبحي، وهوّي بيجيبه معه لمَّا ييجي على نابلس أو على المزرعة، أو بتشوفه لمَّا نرجع».

«طيِّب، يا ستَّي، إيمتى رح نرجع؟».

«بعرفش، يا حبيبي، إن شاء الله قريب».

ولكنْ، كما يعرف الجميع الآن، فإن «قريب» ذاك لم يأتِ أبداً.

على الرَّغْم من أن معظم الطُّرُق المؤدِّية إلى سَلَمِة والقدس كانت

مغلقة، والمرور منها في غاية الخطورة، إلَّا أن خديجة وحصَّتها من العائلة تمكَّنت من الوصول بسلام إلى نابلس بمساعدة جارهم أبو هاني (والد المرحوم هاني)، بينما وصل إسماعيل وأمير إلى بَيَّارَتهم سيراً على الأقدام، أمَّا صبحي وجمال، فقد بقيا في البيت مع عمِّهما حبيب.

كان يوم الاثنَيْن، السادس والعشرون من نيسان، يوماً آخر من أيَّام الجحيم، وقد غيَّرت فيه القوَّات اليهودية تكتيكاتها الحربية، فبعد الهجمات على الخطوط الأمامية التي تلت القصف في الخامس والعشرين من نيسان، تحوَّل التكتيك إلى ما سمَّاه خبراء الحرب اليهود «تكتيك العربات المُتتالية»، فبدل القتال في شوارع حيِّ المنشيَّة وأزقَّته الضيِّقة، أخذت الميليشيا اليهودية تنتقل من بيت عربي إلى آخر، وما إن تحتلّه حتَّى تُفجِّر فجوات في الجدران الداخلية، ثمَّ تتقدَّم إلى البيت الذي يليه. عندما بدأت الانفجارات تقترب أكثر وأكثر من بيت عائلته، أدرك صبحي، مثل العديدين من المقاتلين الشباب غير المدرَّبين، أن الوقت قد حان لكي يتخلَّى عن بندقيَّته، ويأخذَ بدلته الإنكَليزية، ويفرَّ من المكان. تمنَّى لو أنه في وضع يمكِّنه من إبلاغ عمِّه حبيب أو أخيه جمال عن نِيَّته في الهرب، ولكن ذلك كان سيزيد من احتمالات تعرُّضه للموت، لأن عمَّه حبيب كان في الخطوط الأمامية، فهو أحد المقاتلين الأشدَّاء الذين كانت مهمَّتهم زرع الألغام في أزقَّة الحيِّ الضيِّقة من جهتَي الشَّمال والشرق، حيث من المتوقَّع أن يتقدَّم العدوُّ. بعد أن تخلَّى عن محاولة العثور على عمِّه حبيب وأخيه جمال، كان التحدِّي الأكبر أمام صبحي هو مغادرة البيت، والوصول سالماً إلى بيت جَدَّته فريدة في البلدة القديمة. لم يصدِّق عينَيْه، وانهمرت دموعه غزيرة منهما عندما رأى العَلَمَ الإسرائيلي يرفرف فوق جامع حسن بيك، عندها فقط أدرك أن حَيَّه قد سقط.

وهو يهرب غرباً باتِّجاه البحر، شعر وكأنه يهرب من جحيم إلى آخر. وجد نفسه وجهاً لوجه مع مشهدَ آخر من مشاهد يوم الحشر: كانت المدينة بأكملها تهرب باتِّجاه البحر، آلاف مؤلَّفة من الناس تندفع إلى الشاطئ مثل شلاَّل من الأجساد البشرية، ومثل السمك خارج الماء كانت أجسادهم تتلوَّى ألماً. كانوا يركضون ويتدافعون ويتحدَّثون في آنٍ واحد مثل أسراب من النمل الهائج، وكان القصف المتواصل يغطِّي على أصوات أنين كبار السنِّ، وصياح الأطفال. معظم سكَّان يافا، البالغ عددهم ما يقارب المئة ألف، كانوا يحاولون الوصول إلى ميناء المدينة بحثاً عن أيَّة وسيلة نقل بحريٍّ، تأخذهم بعيداً عن هذا الجحيم: قارب صغير أو كبير، لا يهمُّ، قارب شراعي، يخت، أو سفينة كبيرة، أيّ شيء يحملهم إلى اللامكان أو إلى المجهول.

تحوَّل ميناء يافا إلى سوق كبير، تُباع فيه الأجساد البشرية وتُشترى: عائلة كاملة، أو نصف عائلة، ربع عائلة، ثلث عائلة، أو حتَّى شخص واحد.

«خُد هاي كلّ اللِّي المصاري اللِّي معي، بس طَلِّع إِمِّي وولادي من هون».

«مش شايف إنه القارب مليان، كمان شوي بيقلب باللِّي فيه».

«الله لا يقدِّر»، يردُّ الرجل، ثمَّ يذهب ليساوم صاحب قارب آخر.

«بس خُد هالصغار التنين وإِمّهم، وأنا وولادي التلاتة بنقدر نستنَّى».

«أنا ما عندي مكان إلَّا لتنين، قرِّرْ بسرعة شو بدَّك».

كان على الناس أن يتَّخذوا قرارات صعبة وسريعة، انفصلت العائلات

عن بعضها: أُمٌّ مع طفلَيْها، ووراءها ظلَّت بقيَّة العائلة، أبٌ مع أبنائه وجَدَّتهم ظلُّوا بلا مكان يذهبون إليه، شخص مسنٌّ أو مريض تُرِك بمفرده بلا بيت ولا أبناء، وكذلك تُركت معظم الخادمات والحيوانات الأليفة.

القوارب الصغيرة ذاتها، التي كانت حتَّى وقت قريب تحمِّل وتنزِّل الملايين من صناديق البرتقال من مياه ميناء يافا الضحلة إلى السفن الكبيرة الراسية على بُعد كيلومتر أو اثنَيْن، أصبحت الآن تُحمِّل «سادة البرتقال» وعائلاتهم إلى وجهات مجهولة، وأسطول السفن البريطاني المُسمَّى Liberty، الذي كان يحمل اللاجئين اليهود إلى فلسطين، أصبح الآن يحمل الفلسطينيِّيْن بعيداً عن مُدُنهم وقراهم. أُمَّة جديدة تُولَد، وأُمَّة عريقة تُمحَى عن الوجود.

كان المتوسِّط بزرقته المتوهِّجة مألوفاً لأهل يافا الهاربين منها، فوضعوا ثقتهم فيه رَغْم طبيعته المتقلِّبة الغدَّارة. وكما كان الحال عبر التاريخ، كان هذا البحر يبتلع المسافرين عبره، فيأخذ بعضهم إلى القاع، ويُلقي بآخرين على شواطئه شَمالاً وجنوباً. العاصفة التي استمرَّت ثلاثة أيَّام ابتلعت بعضهم، كما ابتلع الحوتُ النبيَّ يونس، ثمَّ قذفتْهم، ليتشتَّتوا وأبناءهم وأحفادهم من بعدهم بعيداً عن وطنهم حتَّى آخر يوم في حيواتهم.

الفصل الثالث
السادة الجُدُد

اليوم التالي (يافا، أيَّار 1948)

23
ضياع

كما في الليالي السابقة، لم يغمض لصبحي جفن تلك الليلة. الانهيار المفاجئ لعالم بأكمله، واختفاء مدينته وناسه وحبيبته، ذلك كلُّه كان فوق قدرته على الاستيعاب. كيف يمكن أن يتحطَّم وجودي كلُّه في بضعة أيَّام فقط؟ هكذا كان يتساءل مذهولاً. وفي محاولة منه للتعامل مع واقعه الجديد، فكَّر مليَّاً في الهجمات الثلاث المتتالية: سرقة القطار والعشرين ألف قذيفة مورتر، وتكتيك العربات المتتالية، وقصف القوَّات الجوِّية البريطانية للمليشيات اليهودية، والتي قرَّرت مجتمعة مصير مدينته، وغيَّرت مجرى حياته إلى الأبد.

جافى النومُ صبحي بينما ظلَّت تتوالى في ذهنه صور الخروج المزلزل لأهل مدينة بأكملها: يتركون بيوتهم، ينامون على الشاطئ لأيَّام بلا عدد منتظرين قارباً أو سفينة تأخذهم إلى المجهول. شعر برأسه يكاد ينفجر، بينما يمرُّ في ذهنه شريط من الصور الكابوسيَّة، كان أسوأها أنين كبار السنِّ، وصرخات أُمَّهات يبحثنَ عن أطفالهنَّ المفقودين، وصراخ أطفال مذعورين يبحثون عن أُمَّهاتهم. وكأسطوانة مشروخة ظلَّ صدى هذا كلِّه يتردَّد في أُذُنَيْه على الرَّغْم من الصمت الذي كان يُطبِق عليه في وحدة لياليه الطويلة. اختفى معظم سكَّان المدينة خلف أُفُق البحر المتوسط، إلَّا أن أرواحهم كانت مثل الأشباح ما تزال تُحوِّم فوق البيوت المهجورة والمدينة الخاوية.

لم يكن حاضراً في المدينة إلَّا الغياب.

وهو يقف على شرفة بيت جَدَّته كان كلّ ما يسمعه هو صوت اقتحام البيوت التي تركها أصحابها في حالة هلع. الآن انضمَّ المهاجرون اليهود الجدد، جماعات جماعات، إلى حملات النهب المنظَّمة التي قادتْها الميليشيات اليهودية. اقتُحمت البيوت، وكلُّ قطعة من الأثاث حُملَت بعيداً على الأكتاف أو حُمِّلت في شاحنات: غرف معيشة بأكملها، غرف نوم، غرف طعام، خزائن مطبخ، ثلَّاجات، أفران، سجَّاد فارسي، ثريَّات، أسِرَّة أطفال، أجهزة راديو، آلات بيانو، كُتُب، طاولات ومقاعد من المهاجوني، خزائن ملابس فاخرة. لم يسلم أيُّ مكان: المستشفيات، المدارس، البنوك، المحالّ التجارية، المكاتب، العيادات، أسواق بأكملها، المصانع، قوارب الصيَّادين، مُعَدَّات الصيد. كان أكثر ما أحزن صبحي، إضافة إلى سرقة الكُتُب والحيوانات الأليفة المذعورة، نهب السيَّارات الجديدة، خصوصاً سيَّارات المرسيدس التي كان كثيراً ما يتوقَّف أمامها بإعجاب في معرِض غرغور وهو في طريقه إلى الكراج. كان صمت مدينة الأشباح هو الذي أبقى عينَي صبحي مفتوحتَيْن محرومتَيْن من النوم طوال الليل.

كلُّ شيء ضاع! هذا كلُّ ما كان يفكِّر فيه ليلاً ونهاراً:

ضاع أفراد عائلته وبيته،

ضاع حَيُّه وجيرانه،

ضاع أقاربه،

ضاع المعلِّم مصطفى وكراجه،

ضاعت المحرِّكات التي أصلحها، وتلك التي كانت تنتظر،

ضاعت وظيفته وسُمعته كأفضل ميكانيكي في المدينة،

ضاع زبائنه جميعهم، الأغنياء ومتوسِّطو الحال والفقراء، الذين كانوا يدفعون أجوراً مختلفة،

ضاع النادي الإسلامي، حيث كان يلعب كرة القَدَم مع أصدقائه،

ضاع أبناء حَيِّه الذين كان يسبح معهم،

ضاع أصدقاء لعب الشَّدِّة الذين كان يذهب معهم إلى صلاة الجُمُعة في الجامع الكبير، وإلى المسيرات في ساحة برج الساعة،

ضاعت المكتبة التي كان يستعير منها الكُتُب، أو ينتزع من مجلَّاتها الصفحات التي تحوي فساتين الزفاف البيضاء من أجل محبوبته شمس،

ضاع حسن الذي خاط له بدلته الإنكليزية،

ضاعت مقاهي ودُوْر سينما ومكتبات المدينة،

ضاع رُوَّاد مقهى التيوس،

ضاع السياسيُّون والمثقَّفون رُوَّاد مقهى الانشراح،

ضاع تجَّار البرتقال الأغنياء،

ولكن المأساة الكبرى كانت أن شمسه ضاعت.

والآن، ما فائدة بدلته الإنكليزية وقد تبدَّد أمله في الزواج من شمس؟

ضاعت مدينته التي كانت تُسمَّى فيما مضى أُمّ الغريب، فهي ذاتها أصبحت غريبة،

ضاعت مدينته التي كانت، لحماية نفسها من ويلات الحرب والدمار، قد أعلنت نفسها في التاسع من أيَّار مدينة مفتوحة.

لم يستطع صبحي أن يمنع نفسه من التفكير بالاغتصاب كلَّما سمع كلمة مدينة مفتوحة. يافا عروس البحر اغتُصبَت، وانتُهك شرفها بكلِّ ما في الكلمة من معنى.

ضاعت مدينته التي وقَّع مجلسها البلدي، أو بشكل أدقّ لجنة الطوارئ فيه، وثيقة استسلام يوم 13 أيَّار 1948، قبل انتهاء الانتداب بيوم واحد، فعلى أمل حماية ما تبقَّى من المدينة وسكَّانها، سلَّموا المدينة «سِلْمِيّاً» لقائد قوَّات الهاغاناه، الذي وعد بحماية المدينة والسكَّان. ولكنْ، وقبل أن يجفَّ حبر وثيقة الاستسلام، انتُهِكَت المدينة، ونُهبت، وقامت قوَّات الهاغاناه بترهيب بضعة الآلاف من أهلها المتبقِّين.

بدلة إنكليزية، وجَدَّة صمَّاء، وسؤال مُلحٌّ عمَّا جرى لحبيبته شمس، كان هذا كلّ ما تبقَّى لصبحي.

غارقاً في محاولة استيعاب ما ضاع وما تبقَّى له، فكَّر في جَدَّته فريدة ذات الثمانين عاماً، التي رفضت أن تترك بيتها عندما جاءتها ابنتها خديجة مخاطرة بحياتها، لتأخذها معها إلى نابلس:

«على جثتي»، صرخت فريدة بأعلى صوتها، «أنا تركت بيتي مرَّة في حياتي، ومش رح أعيدها مرَّة تانية»، كانت فريدة تشير إلى فترة الحرب العالمية الأولى، عندما أجْلَت الحكومة العثمانية معظم سكَّان يافا، وخصوصاً الجالية اليهودية، خوفاً من أن يتعاونوا مع الحلفاء. «أنا بقولّك، يا ابنيتي، الواحد عمره ما بيحسّ إنه في بيته وهو بعيد عنه».

صمتت قليلاً، ثمَّ أضافت: «في بيتك بتموتي مرَّة وحدة، بس في الغربة بتموتي كلّ يوم من المذلَّة». ولأن أحداً لم يتوقَّع سقوط يافا، فقد احترمت خديجة رغبة والدتها، وتركتْها وشأنها.

لم يكن صبحي على علم بهذه الحادثة، لذا تساءل مستغرباً عمَّا جعل جَدَّته ذات الثمانين عاماً تُصرُّ على البقاء في بيتها رَغْم هَلَع الهروب الجماعي الذي أصاب المدينة بأكملها، هل لأنها صمَّاء أم لأنها عجوز عنيدة، كما كان يقول عنها أبناؤها وبناتها، بمَنْ فيهم أُمُّه خديجة؟

بفضول، اقترب صبحي من فريدة، وصاح بأعلى صوته: «ستِّي، إنت ما خفتِ من صوت القذائف؟».

«من إيش؟»، ردَّت عليه زاعقة.

قهقه صبحي، ولم يكن قد ضحك منذ مدَّة طويلة: «من القذائف، يا ستِّي، اللِّي ضلِّت تضرب البلد كلّ أيَّام الأحد والاتنين والتلاتا. يا حرام حارتنا ما ضلّ منها إشي، والله بيعلم شو صار لبيتنا. أنا هربت من الشبَّاك لمَّا اليهود فجَّروا الحيط الجوَّاني، وعملوا فتحة في غرفة نوم أبوي وإِمِّي»، كان صبحي يصيح بصوت أعلى من أصوات القذائف. كان تكرار سرد الأحداث مرَّة بعد أخرى هو طريقته في التعاطي مع واقعه الجديد.

«قصدك لمَّا طيَّارات الإنكليز قصفت ولاد الكلب، وخلّتهم ينسحبوا ع تلّ أبيب؟ آه، هداك النهار احتفلت وأكلت كعكة شوكولاتة كاملة لحالي».

«أكلتِ الكعكة كلّها لحالك؟ والسكَّري، يا ستِّي؟».

«شو ماله السكَّري؟»، سألت، ثمَّ أضافت: «طبعاً أعطيت لولاد الجيران شويَّة منها».

كانت جَدَّة صبحي فريدة تتحدَّث عن اليوم الذي قصفت فيه الطائرات البريطانية الميليشيات اليهودية، وأرغمتْها على الانسحاب من حيِّ المنشيَّة. لم يوافق الإنگليز على احتلال اليهود ليافا، وبطريقتهم الملتوية والمتآمرة أعطوهم إنذاراً في اليوم الثالث طالبين منهم الانسحاب من المنشيَّة، وإلَّا فإنهم سيستخدمون ضدَّهم القوَّة الجوِّية. وفي يوم الثلاثاء، 27 نيسان، قصفوا الميليشيات اليهودية مُرغمينها على الانسحاب من يافا، لتترك وراءها حَيَّاً مدمَّراً، غادره سكَّانه، ولجؤوا إلى الشاطئ.

«يا ستِّي، الإنگليز كان لازم يتدخَّلوا من أوَّل يوم، مش بعد يومين من قصف المدينة وتدمير كلّ حيّ المنشيّة. والله، لو إنِّك، يا ستِّي، شفتي العَلَم الإسرائيلي بيرفرف فوق ميدنة جامع حسن بيك ومركز البوليس الفلسطيني، كنت مش بس بكيتِ، كنتِ شهقتِ متلي».

«الحمد لله إنيِّ ما شفت ولا بكيت. يا ابنيّي، وفِّر دموعك الغالية هَلَّأ، وصدِّق ستَّك العجوز، رح تحتاجهم في مصايب كتيرة جاية علينا». وأيَّاً كانت الأسباب التي جعلت فريدة تبقى في منزلها، فقد كان صبحي ممتنَّاً لأن يكون لديه مكان يأوي إليه، وروح مرحة وحكيمة يأنس لها، ويتحدَّث إليها.

24
السادة الجُدُد

صخب وضجيج وضربات عنيفة على الباب جعلت صبحي يقفز من سريره بملابسه الداخلية مذعوراً ومتوقِّعاً الأسوأ.

«افتح الباب قبل أن نفجِّره ونفجِّرك معه»، جاءه صوت من خلف الباب. مَن الذي يطرق بابه في مثل هذه الساعة المبكِّرة؟ تساءل آملاً ألّا تُوقِظ أصوات الضربات والصراخ جَدَّته. هل هي الميليشيا اليهودية التي كانت تروِّع مَنْ تبقَّى من السكان العرب أم هي إحدى العصابات العديدة التي سيطرت على المدينة التي غاب عنها القانون؟

تمنَّى صبحي، الذي كان قد فقد صوابه من الضربات المتتالية المصحوبة بالصراخ، لو أنه كان أصمَّ مثل جَدَّته، كما تمنَّى لو أنه كان أعمى أيضاً، فمن الذي يودُّ أن يرى أو يسمع ما الذي سيفعله أو يقوله سادة مدينته الجُدُد؟!

أرض بلا شعب لشعبٍ بلا أرض

أو، بشكل أدقّ، ما كتبه إسرائيل زانغويل، أحد المقرَّبين من ثيودور هرتسل أبي الصهيونية سنة 1901 في مجلة New Liberal Review (نيو ليبرال ريفيو): «فلسطين بلد بلا شعب، واليهود شعب بلا وطن».

كانت هذه كذبة صُمِّمت بدهاء، وسُوِّقت بخبث ومهارة، وصدَّقها

أو تبنَّاها «العالم الحُرُّ»، لأنها ذكَّرتْهم بتاريخهم. وبغضِّ النظر عن الأسباب، فقد نالت الدولة الوليدة تعاطف العالم الحُرِّ، واستمرَّت الجريمة، بل وتلقَّت أيضاً المديح والإعجاب.

لم يعرف صبحي هل كان نائماً أم مستيقظاً عندما سمع الطَّرْقَات العنيفة على الباب، ولكنه عرف من لُكْنَة المهاجمين وعدوانيَّتهم، والأهمُّ من هذا وذاك سلسلة الأحداث التي وقعت في مدينته، أن عليه أن يُسرِع بفتح الباب، لأنّ الرصاص كان أسرع من الأوامر.

بيدَيْن مرتعشتَيْن سحب مزلاج الباب الخارجي، ولكنْ، قبل أن يدرك ما يحدث، كانت عدد من رجال الميليشيا اليهود قد اندفعوا إلى غرفة الجلوس.

«ارفعْ يدَيْكَ، ووجهكَ إلى الحائط».

وقبل أن يتمكَّن من تنفيذ التعليمات، وجد نفسه مُلقَى على وجهه على الأرض، بينما لوى أربعة من رجال الميليشيا ذراعَيْه، وكبَّلوهما وراء ظهره.

«مَنْ غيركَ في البيت؟».

«جَدَّتي، عُمُرها تمانين سنة وطرشة ما بتسمع».

«هل يوجد رجال إرهابيِّيْن مثلك في البيت؟».

«إرهابيِّيْن؟».

«في رجال غيرك ف البيت؟».

«لأ ما في، أبوي وإخوتي وعمامي كلّهم تركوا».

«أين ذهبوا؟».

«ما بعرف».

«كذَّاب كبير، ألا تعرف أين ذهبت عائلتكَ؟».

«كلّهم راحوا».

«إلى أين؟».

«إمِّي وخواتي التنتين وستِّي وسيدي راحوا عند قرايبنا في نابلس، أو يمكن على الشام، وأبوي وأخوي الصغير أمير راحوا ع بَيَّارتنا، وما بعرف أخوي جمال وعمِّي حبيب وين».

ولأوَّل مرَّة تمنّى صبحي لو أنه كان بعيداً عن متناول السادة الجُدُد وإذلالهم. كان آخر ما تمنَّاه لوالده وعمِّه حبيب وأخويه أن يتعرَّضوا للإهانة كما يتعرَّض لها هو الآن. لعلَّه كان من الأفضل لو أنه ركب مع الآخرين أحد تلك القوارب المزدحمة، واختفى.

بينما كان قائد المجموعة يستجوب صبحي، كان ستَّة من رجال الميليشيا يتجوَّلون في أنحاء المنزل ببنادقهم، يوجِّهونها إلى الأمام، ويدفعون الأبواب بعنف، ويقفزون من زاوية إلى أخرى، وكأنهم يخوضون معركة كبرى. ولكن العدوَّ الوحيد الذي وجدوه بعد بحثهم الطويل كان الجَدَّة فريدة التي كانت تشخر مستغرقة في سبات عميق.

«قفْ ولا تتحرَّك»، قال القائد، فيما تقدَّم مقاتلان، وأمراه أن يباعد بين قدمَيْه، وأخذا ينظران تحت ملابسه الداخلية. الأمر الذي أفقد صبحي صوابه، عدا عن فحص أعضائه الداخلية، كان وجود فلسطينيَّين يعرفهما جيِّداً مع الميليشيات اليهودية.

«أنا بهلوس ولا اللّي شايفه حقيقي؟»، سأل نفسه وهو يحاول عبثاً أن يفرك عينَيْه بيدَيْه المكبَّلتَيْن، «فوَّاز وسالم، شو بتعملوا هون؟»، تدافعت الكلمات من فم صبحي رَغْم إدراكه للمأساة. كان الرجلان الفلسطينيان متعاونَيْن، كان يعرفهما جيِّداً: فوَّاز عصفور كان يملك محلَّاً لبيع الدجاج في شارع الصلاحي، بينما كان سالم عربيد حارساً في بلدية يافا.

«اخرسْ، يا ولد، نحن الذين نحقِّق هنا، وليس أنت»، قال القائد اليهودي، ثمَّ أضاف: «أخبِرْنا ماذا سرقتَ في الأيَّام الماضية قبل أن نقلب هذا البيت رأساً على عقب؟».

«أنا؟! سرقتُ؟! أنا ما سرقتْ ولا إشي، أصلاً أنا ما طلعتْ من باب البيت طول الخمس أيَّام اللّي مضوا».

«كذَّاب، مثل كلّ العرب».

تحت هول الصدمة من هذا الاتِّهام، تمتم صبحي: «أنا عمري ما سرقت إشي في حياتي، لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا حتَّى في المستقبل».

«حرامي وكذَّاب». بدا لصبحي أن هذه هي العبارة الوحيدة التي حفظها القائد اليهودي عن ظهر قلب، لأنه ظلَّ يكرِّرها مرَّة تلو الأخرى، «حسناً، اذهبوا، وفتِّشوا البيت، وابحثوا عن المسروقات»، قال القائد هذا بالعبرية لرجاله، وأيضاً لفوَّاز وسالم، الذين ذهبوا جميعاً لتفتيش غرف النوم.

لم يستطع صبحي أن يمنع نفسه من السؤال: «لكنْ، كيف رجالك بدهم يعرفوا إذا كان الشي مسروق، إذا ما بيعرفوا شو كان في بالبيت أصلاً؟».

«لا تجادلني، التزم مكانكَ، ولا تتحرَّك»، صاح به القائد اليهودي، فيما أخذ يتجوَّل في غرفة المعيشة متفقِّداً كلَّ ما حوله، وخاصَّة رفوف الكُتُب التي كانت تغطِّي الجدار بأكمله.

«لمَنْ هذه الكُتُب؟».

«إلنا، قصدي لجَدِّي»، أجاب صبحي دون أن يفهم سرَّ الاهتمام بمكتبة جَدِّه.

«أخبروني أنكَ كنتَ ميكانيكياً».

أثار قلق صبحي استخدام القائد للفعل الماضي «كنتَ ميكانيكياً» أكثر من التلميح بأن الميكانيكيِّيْن لا يقرؤون.

«من أيِّ مكتبة عامَّة أو بيوت سرقتَ هذه الكُتُب؟»، سأله، ثمَّ أعطى إشارة لرجاله بأن يُفرغوا الرفوف من الكُتُب جميعها التي عليها. وبسرعة البرق، أُحضرت الأكياس والحقائب المُعَدَّة مُسبَّقاً خصِّيصاً لهذا الغرض، وبدا أنهم كانوا مستعدِّين حتماً لمثل هذه المهمَّة.

«بس، يا سيدي ...».

«اخرسْ، ولا كلمة، وإلَّا سأجعلهم يأخذونكَ إلى بيت الدرج، ويطلقون عليكَ النار مثل كلب».

حين رأى الرفوف وهي تُفرَغ من كُتُب القانون التي كانت لجَدِّه، اغرورقت عينا صبحي بالدموع، على الرَّغْم من اعتقاده أن دموعه جفَّت من الويلات التي رآها في الأسابيع الأخيرة. كان صبحي، الشغوف بالكُتُب، ما زال يأمل بأن يتمكَّن هو أو أخوه الأصغر أمير ذات يوم من دراسة الشريعة في جامعة الأزهر في القاهرة، مثل جَدِّه لأُمِّه. ورَغْم أنه ترك الدراسة في

عُمُر مبكِّر، ليحقِّق حُلْمه بأن يصبح ميكانيكياً، إلَّا أن الكُتُب كانت شَغَفاً حقيقياً بالنسبة إليه. كان روتينه في أيَّام الجُمُعة لا يتغيَّر: حمَّام صباحي، يتبعه إفطار متأخِّر من الحُمُّص والفول والفلافل، ثمَّ صلاة الجُمُعة في جامع يافا الكبير، تليها المشاركة في مسيرة يوم الجُمُعة في ساحة برج الساعة ضدَّ السياسة البريطانية، وأخيراً زيارة للمكتبة لاستعارة الكُتُب. كان من النادر أن يمرَّ يوم جُمُعة دون أن يذهب إلى المكتبة الإسلامية القائمة فوق الجامع الكبير، ويرجع منها بكتاب أو اثنَيْن.

لم يتمكَّن صبحي من مسح دموعه بيدَيْه المكبَّلتَيْن، ولم يشأ أن يراه هؤلاء الرجال وهو يبكي، لذا أخذ نَفَساً عميقاً، وأغمض عينَيْه، ولم يفتحهما إلَّا عندما خرج فوَّاز، أحد العميلَيْن الفلسطينيَّيْن، من غرفة نومه حاملاً بدلته الإنكليزية على علَّاقة خشبية.

«من بيت مين سرقت هالبدلة الرائعة، يا صبحي؟»، سأله فوَّاز بعنجهيَّة، وبابتسامة ساخرة وإحساس بالنصر.

«هاي بدلتي، اتركها محلّها»، وهذه المرَّة انهمرت دموعه بغزارة فوق خَدَّيْه.

«ليش هلقد معصِّب؟ معناته إنت سرقتها».

«يا ابن الشرموطة، اترك بدلتي من إيدك، أنا ما سرقتها، بقولَّك هاي بدلتي».

«آه، أكيد ما سرقتها، بس كيف شَب ميكانيكي زيَّك بقدر يشتري هيك بدلة غالية؟ آه؟ إنت قلِّي».

«اخرسا أنتما الاثنان، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى. اعتقلوا الحرامي، وخذوه إلى مركز بوليس القِشلة حالاً».

«طيِّب بورجيك»، كانت هذه هي الكلمات الأخيرة التي قالها صبحي لفوَّاز وهم يأخذونه مكبَّلاً خارج المنزل، ويُنزلونه إلى الشارع، حيث كانت تقف سيَّارتان عسكريَّتان، وقبل أن يدفعوا به إلى إحدى السيَّارتَيْن اللتَيْن ستتوجَّهان به إلى مركز البوليس، نظر إلى أعلى، فرأى جَدَّته تراقبه من شرفتها.

القِشلة

فقط وهو في السجن أدرك صبحي كيف حرمتْهُ الأحداث التي استمرَّت خمسة أشهر ونصف من التفكير في حبيبته شمس. تذكَّر المَثَلَ الذي كانت تكرِّره أُمُّه دائماً: «بعيد عن العين، بعيد عن القلب». «لأ لأ مش صحيح»، حدَّث نفسه بصوت عالٍ، فلم يكد يمرُّ يوم، أو بالأحرى ليلة، دون أن يفكِّر في شمسه. لقد أتاح له وجوده في السجن ليومَيْن كاملَيْن، بعيداً عن القلق والموت اللذَيْن أغرقا مدينته، الوقت الكافي ليستعيد تفاصيل اللحظات الثمينة كلّها التي قضاها معها: المرَّة الأولى التي رآها فيها في النبي روبين بفستانها البرتقالي والأبيض الذي أحبَّه كثيراً، المرَّة الأولى التي حدَّق فيها طويلاً، إلى أن فقد السيطرة على جسده، المرَّة التي طُرد فيها من المقام في سَلَمِة، الإثارة التي كان يحسُّ بها لحظة تقع عيناه عليها كلَّما ركب الباص من يافا إلى سَلَمِة وبالعكس، ولكن كنزه الأكبر كان القُبلة الفرنسية التي تبادلاها بينما خفق قلبها إلى جوار قلبه.

بعد يومَيْن طويلَيْن قضاهما في غرف القِشلة، أخذوه ليقف أمام لجنة تحقيق، يرأسها الكابتن اليمني عوباديا.

«استمعْ جيِّداً إلى أسئلتي، وأَجبْني باختصار، نعم أم لا، هل سرقتَ هذه البدلة؟».

«لأ، ما سرقتهاش».

«هل تعرف كم تكلِّف مثل هذه البدلة؟».

«نعم، كابتن عوباديا، بعرف تمام قدِّيش سعرها، تلات ورقات خُضُر وورقة حمرا، يعني بقصد تمان جنيهات».

«وكم يتقاضى ميكانيكي مثلكَ أجراً في اليوم؟ عشرين أم ثلاثين قرشاً؟».

«تلاتين».

«ثلاثين قرشاً!».

«أيوه كابتن»، ولأنه غير معتاد على مخاطبة رجال الميليشيا اليهود، فقد كان صبحي يناديه مرَّة كابتن، ومرَّة جنرال، ومرَّة سيدي.

«إذاً كيف يستطيع ميكانيكي أجرته ثلاثين قرشاً شراء بدلة ثمينة مثل هذه؟ هل تستطيع أن تفسِّر لي ذلك؟».

«أنا ما دفعت حقّها، يا سيدي».

«إذاً، سرقتها».

«لأ، أنا ما سرقتها، لكنْ، مش أنا اللِّي دفعت حقّها، اللِّي دفع حقّها هوّي الخواجا ميخائيل».

«الخواجا ميخائيل ذاته؟»، سأل الكابتن بدهشة، وقد بدا أنه تعرَّف على الاسم.

«أيوه، يا سيدي، الخواجا ميخائيل، أمين ميخائيل، أبو سليم»، ذكر صبحي أسماء الخواجا ميخائيل جميعها حتَّى يُقنِع المحقِّق بأنه كان يعرف أحد أهمِّ الرجال المتنفِّذين في المدينة، بل ويعرفه جيِّداً.

«نحن نعرف طبعاً مَنْ هو الخواجا ميخائيل، لكنْ، أنتَ كيف تعرفه؟»، قال رئيس المحقِّقين وهو ينظر إلى الموجودين في الغرفة، ثمَّ أضاف: «أنتَ في ورطة كبيرة، أيها الفتى، وكما يقول المثَل «حبل الكذب قصير»، وكذبتك ستنكشف قريباً، بما أن الخواجا ميخائيل هو أحد رجال الأعمال القليلين الذين لم يغادروا المدينة».

«يعني قصدك إنه إنتو لسَّه ما طردتوه من بيته لهَلَّأ؟».

«نحن لم نطرد أحداً من بيته، قادتكم هم الذين طلبوا منكم المغادرة».

منهكاً ومهزوماً على المستويات كلِّها، لم يكن صبحي في وضع يمكِّنه من مجادلة المنتصر حول سقوط مدينته. لقد عاش الهزيمة كلَّها، وشهد عليها كلَّها، وخضع للتجربة كاملة بنفسه. مع ذلك، قرَّر أن يفكِّر بطريقة استراتيجية، وأن يركِّز على استعادة بدلته.

«الحمد لله إنُّه الخواجا ميخائيل لسَّه في البلد عشان يكون شاهد على براءتي».

«خذوه واحجزوه إلى أن نستدعي الخواجا ميخائيل غداً أو بعد غد».

كان هذا هو الخبر الذي أعاد الأمل إلى قلب صبحي المكسور، ليس فقط لأن الخواجا ميخائيل سيكون الشاهد الوحيد على براءته، ولكنْ، أيضاً لأنه ربَّما يخبره شيئاً عن مصير سَلَمِة، وبالتالي مصير شمس. كان قد سمع أنه تمَّ إخلاء نساء سَلَمِة وفتياتها قبل سقوطها في التاسع

والعشرين من نيسان بأسابيع، ولكنه أراد أن يعرف أكثر. تذكَّر قول أُمِّه «كل إشي بيصير لسبب»، هذا كلام صحيح، فالسبب الوحيد لاتِّهامه ظلماً وإحضاره إلى السجن هو أن يلتقي الخواجا ميخائيل.

على أمل هذا اللقاء لم ينم صبحي تلك الليلة، ألقى بجسمه على أرضية غرفة السجن، وأسند رأسه إلى الجدار، ثمَّ أخذ يستعيد اللحظات الحميمة التي قضاها مع شمس في يومهما الأخير في موسم النبي روبين. مغمض العينَيْن كان يحسُّ بجسدها ملاصقاً له، وخُصلات شَعْرها الأشقر بين أصابعه. في هذه اللحظة فتح عينَيْه، وحاول أن يخفي الانتصاب الذي أصابه، وهو ما لم يشعر به منذ تصاعدت الأحداث في يافا. كان التفكير في شمس دائماً يُدفِّئ قلبه، ويرفع معنوياته.

استعاد المرَّات العديدة التي كان يركب فيها باص يافا اللِّدّ، الذي كان يتوقَّف في طريقه في سَلَمِة، فقط على أمل أن يرى حبيبته وهي تخرج من المدرسة، وتمشي إلى حيث يتوقَّف الباص. كانت تغمره السعادة وهو يراها تبتسم له، فيبقى في الباص نفسه الذي يأخذه إلى اللِّدّ، ثمَّ يعود به إلى يافا عبر سَلَمِة من جديد. كان هو وشمس يحفظان جدول هذا الباص عن ظهر قلب.

تذكَّر أيضاً يوم رافق أُمَّه وجَدَّته إلى سَلَمِة في زيارتهما السنوية لمقام الشيخ سلامة (الذي سُمِّيت قرية سَلَمِة باسمه). تذكَّر التاريخ بالضبط، كان يوم الرابع من شعبان، ومن هنا جاءت تسمية الاحتفال (الشعباويَّة). عَلَتْ وجهَهُ المُتعَبَ ابتسامةٌ ضعيفةٌ وهو يتذكَّر كلمات حارس المقام وهو يطرده خارجاً قائلاً إن الأولاد الصغار فقط يمكنهم مرافقة أُمَّهاتهم، بينما هو «جحش»، وطلب منه أن يترك المقام فوراً. ومع ذلك فقد تحقَّقت رغبة «الجحش»، إذ لمح شمس من بعيد بين جموع النساء

والفتيات. ابتسم لها، وغمزها، فاستجابت له بتلك الابتسامة الخفيَّة التي جعلت قلبه يذوب في صدره. ومع أن اللقاء كان قصيراً، إلَّا أنه ملأ قلبه بدفء، يكفيه إلى أن يتدبَّر أمر لقاء آخر، أو حتَّى آب القادم، حين يقام موسم النبي روبين.

ومع سقوط يافا، وسقوط سَلَمِة، واختفاء فلسطين، لم يبقَ لديه أيُّ أمل في رؤية شمس من جديد.

ولكنْ، بالرَّغْم من كآبة ذلك كلِّه، فقد وجد، ولدهشته، أن التفكير في جسد شمس الدافئ إلى جانب جسده مكَّنه من النوم لبضع ساعات في تلك الليلة.

25
تحقيقات البدلة المُتنازَع عليها

«صبخي صبخي، مين صبخي؟»، صرخ حارس السجن وهو يفتح باب العنبر الفولاذي.

«أنا، أنا»، قفز صبحي من مكانه نصف نائم.

«الخقني».

مترنِّحاً من النعاس والتعب، هرول وراء الحارس عبر متاهات دهاليز بلا نهاية، قبل أن يُؤمَر بالانتظار في غرفة مُكدَّسة برجال وشباب، جيء بهم إلى السجن بتُهم مشابهة. نظر حوله بحثاً عن الخواجا ميخائيل، ولكنْ، لم يكن من السهل العثور عليه في غرفة مزدحمة كهذه. وعندما نُودي على اسمه مرَّة أخرى تبع الحارس إلى الغرفة ذاتها التي تمَّ فيها التحقيق معه قبل يومَيْن.

في قاعة المحكمة، جلس عوباديا خلف مكتب معدني، في حين وقف رجُلَا الميليشيا اللذان كانا قد فتَّشا بيت جَدَّته فريدة، وإلى يمينهما وقف فوَّاز، أحد العميلَيْن الفلسطينيَّيْن اللذَيْن جاءا معهم. هبط قلب صبحي، وأخذ رأسه يغلي غضباً بمجرَّد أن لاحظ غياب بدلته. جال بنظره في أرجاء الغرفة جميعها، ولكنه لم يعثر عليها. ومثل الممتلكات العربية كلِّها في فلسطين (الأرض، والبَيَّارَات، والبيوت، والفيلَّات، والبنايات، والمحالّ التجارية، والمدارس، والمستشفيات،

والسيَّارات، والقوارب، والمصانع، والبنوك، وحتَّى الكُتُب والأثاث) التي آلت ملكيَّتها إلى الدولة المُقامة حديثاً، إلى أن يثبت العكس، أصبحت بدلة صبحي أيضاً «مُتنازَعاً عليها»، وتحتاج ملكيَّتها إلى إثبات، وعُدَّ صبحي ذاته لصّاً، إلى أن يثبت العكس.

كان صبحي منشغلاً باختفاء بدلته من غرفة المحكمة، لهذا مرَّ بعض الوقت قبل أن يدرك مذهولاً أن الرجل ذا المنظر الأشعث الذي كان يجلس منحنياً في مَقْعَد في الزاوية لم يكن سوى الخواجا ميخائيل. لم يُصدِّق عينَيْه: رجل الأعمال الأكثر أناقة في يافا سيق إلى السجن بالبيجاما والرُّوب! انهمرت دموع صبحي على وجنتَيْه الشاحبتَيْن، وارتعشت شفتاه بصمت. وبقَدْر ما كان المشهد مؤلماً، إلَّا أنه لم يستطع أن يزيح نظره عن الرجل غير الحليق الذي جِيء به إلى غرفة المحكمة الزائفة رَغْماً عنه. وتحت تأثير الصدمة والحزن الكبيرَيْن استعاد المرَّة الأولى التي رأى فيها الخواجا ميخائيل عند مدخل الكراج، واقفاً تغمره هالة من الضوء، وقد بدا مثل إله أو لورد إنكليزي أو فارس.

لم يثِر إعجاب صبحي في حياته شيء أكثر من أناقة الخواجا ميخائيل ببدلته الكتَّان وقبَّعته الفيدورا الإيطالية، كما لم يمنحه شيء السعادة والأمل بمستقبله ومستقبل شمس أكثر من البدلة ذات الثمانية جنيهات (أو بشكل أدقّ ورقة الجنيهات الفلسطينية الحمراء والأوراق الثلاثة الخضراء) التي أعطاها له الخواجا تقديراً لمهارته في عمله. ظلَّت الدموع تنهمر من عينَيْه المُتعبتَيْن وهو يفكّر بالحال التي وصل إليها أحد أغنى رجال يافا وأكثرهم نفوذاً، وقد صار شبحاً محطَّماً وممزَّقاً مثل مدينته، التي كانت حتَّى وقت قريب مدينة عامرة بالحياة والأناقة، مدينة مزدهرة فخورة ومفتوحة للجميع. وهو يفكِّر في ما آل إليه الخواجا ميخائيل،

نسي صبحي أنه هو نفسه كان في ملابسه الداخلية منذ أن جرُّوه إلى السجن قبل يومَيْن.

بعد أن أفاق من ذهوله، صرخ: «يا الله! مش ممكن، هاد إنت، يا خواجا ميخائيل؟»، واندفع باتِّجاهه.

«اخرسْ، وارجع إلى مكانكَ»، صرخ به كابتن عوباديا، بينما أمسكت به ذراعان قويَّتان، ودفعتاه إلى الخلف.

«ممنوع أن تتكلَّم مع الشاهد أو تنظر إليه، مفخوم؟».

«شاهد؟ شاهد؟ هيك صار اسم الخواجا ميخائيل، شاهد؟ أوَّل إشي بيلغوا لقبه «الخواجا»، وبينادوا عليه باسمه حاف، وهَلَّأ صار مجرَّد شاهد! شاهد على إيش؟ شاهد على جرائمكم، ولَّا على قسوتكم؟ إحنا كلنا صرنا شهود على أكبر عملية سرقة في تاريخ البشر، بتسرقوا أرضنا ومُدُنَّا وبرتقانَّا وبساتينَّا وبيوتنا ومحلَّاتنا وكراجاتنا وقوارب الصيد تاعتنا وسيَّاراتنا ومواشينا وأثاثنا وكُتبنا وحياتنا وأرواحنا، بتسرقوا بلد بحاله، بلد مفروش جاهز، وبعد كل هاد، إلكم عين تتهموني بسرقة بدلتي!»، فكَّر صبحي وهو يكاد يتفجَّر حزناً وغضباً.

وفي ذهوله من قسوة ما جرى وظلمه، نظر إلى الخواجا ميخائيل منتظِراً منه أن يقول شيئاً، ولكن الخواجا ظلَّ على حاله متجمِّداً في مَقْعَده كتمثال، حتَّى شكَّ صبحي وهو يرى عينَيْه الزائغتَيْن ووجهه الخالي من التعبير بأنه قد أُصيب بجلطة بينما هو جالس هكذا، بل وربَّما كان ميِّتاً.

«ما اسمكَ؟»، سأل الكابتن عوباديا من وراء مكتبه محدِّقاً في صبحي.

«إنتو جبتوني مع بدلتي للقِشلة، ونيَّمتُوني عندكم ليلتين، ومش عارفين إيش اسمي؟».

«اخرسْ، وأعطني اسمك الكامل».

«صبحي إسماعيل حلاوة».

«الشاهد الأوَّل، ما هو اسمكَ؟»، صرخ عوباديا هذه المرَّة مخاطباً الخواجا ميخائيل، ولكن الصمت كان سيِّد الموقف.

«الشاهد الأوَّل، أخبرني ما هو اسمكَ؟»، وعندما لم يُجب الخواجا ميخائيل، أجاب صبحي: «بس، يا كابتن، إنت بتعرف اسم الخواجا ميخائيل، لإنُّه إنتو اللِّي جبتوه هون».

«اسكتْ، أنا لم أُوجِّه السؤال إليكَ، أنا أسأل الشاهد».

«أمين ميخائيل»، همس أحد رجال الميليشيا اليهود الذي كان من بين آخرين حملوا الخواجا بالقوَّة في الجيب العسكري، ليحضروه إلى القِشلة، ويعرف مدى سوء حالته.

«أمين ميخائيل، هل تعرف هذا الشخص؟».

ظلَّ الخواجا ميخائيل متسمِّراً في مَقْعَده، ولم يجبْ، لكنه أخذ نَفَساً عميقاً، طمأن صبحي أن شاهده الوحيد ما يزال على قيد الحياة.

«أمين ميخائيل، اللصّ الواقف أمامك يدَّعي أنكَ دفعتَ ثمن البدلة الأنيقة التي عثرنا عليها في غرفة نومه، هل تشهد على ذلك؟».

حدَّق الخواجا ميخائيل بعينَيْه الزائغتَيْن إلى السقف، وأخذ نَفَساً عميقاً، وظلَّ صامتاً.

أعاد عوباديا صياغة السؤال: «إذا كان هذا صحيحاً، هل تستطيع أن تشير برأسكَ بنعم؟»، ولدهشة الجميع أشار الخواجا برأسه إلى أسفل في إشارة تعني «نعم».

أضاءت وجه صبحي ابتسامة عريضة قبل أن يُطلِق عوباديا سؤالاً آخر: «الشاهد الأوَّل، هل لكَ أن تصف البدلة؟».

مستدرِكاً نفسه، لأن البدلات كلَّها متشابهة، أضاف: «هل لكَ أن تخبرنا ما لون البدلة؟»، وفي هذه اللحظة فقط أدرك صبحي سبب اختفاء البدلة من غرفة التحقيق. ساد صمت طويل قبل أن ينطق الخواجا ميخائيل بالكلمات المصيريَّة التي ستُحرِّر صبحي ونصف بدلته: «رمادية بخطوط حرير حمراء رفيعة».

تبادل كابتن عوباديا ورجاله الثلاثة والمخبران العريان النظرات مصعوقين، بينما غمرت ابتسامة أكبر وجه صبحي ولمعت عيناه وهو ينظر باتِّجاه منقذ بدلته، ليجده غارقاً في ما يشبه الغيبوبة من جديد.

«أرجِعُوا الشاهد إلى بيته»، قال عوباديا بصوت مليء بخيبة الأمل، ثمَّ وقف، وأدار ظهره، وغادر الغرفة.

نزف قلب صبحي ألماً وهو يرى رَجُلَي الميليشيا يرفعان الخواجا ميخائيل من مَقْعَده، ويجرَّانه خارج الغرفة، وهو بالكاد قادر على المشي.

«خُد هَي البدلة»، قال العميل فوَّاز وهو يدخل مرَّة أخرى إلى غرفة المحكمة الفارغة. لاحظ صبحي أن فوَّاز، مثل متَّهميه الآخرين، قال خُد البدلة، متجنِّباً أن يقول بدلتك.

مدَّ صبحي يده، وانتزع البدلة من يد فوَّاز وهو ما يزال يفكِّر بالخواجا

ميخائيل. ولكنْ، بمجرَّد أن أخذ علاقة البدلة شعر بأن هناك خَلَلاً ما، فقد كان قد حمل بدلته على العلّاقة مراراً في السابق، لكنها بدت الآن أخفَّ ممَّا كانت عليه. تفقَّد العلاقة على عجل، ليكتشف أن البنطال قد اختفى: «وين راح بنطلوني؟»، صاح بجنون.

«ما بعرف»، أجابه فوَّاز بحقد وعدم اكتراث.

«شو يعني ما بتعرف؟».

«ما بعرف يعني ما بعرف».

«يا ابن الكلب، بقولَّك وين بنطلوني؟».

«قلتلَّك ما بعرف».

«يا ابن الش ....، رَجِّعلي ياه».

«ما بعرف وينه. احمد ربَّك إنُّه رجَّعنالك الجاكيت».

شعر صبحي بالقهر والعجز في آنٍ واحد، وقد نفدت منه الكلمات، فأخذ نَفَسَاً عميقاً، وقال بصوت مستسلم: «أنا ليش مستغرب؟ شو الواحد ممكن يتوقَّع من عميل ساعد عدوَّه بسرقة بلده؟». انتابتْهُ رغبة قوية بأن يبصق على فوَّاز، ولكنْ، تجنُّباً لإشكالات وتحقيقات إضافية قرَّر أن ينفذ بريشه، ويخرج من القِشلة بأسرع ما يمكن بعد أن أعطى فوَّاز نظرة احتقار طويلة.

بنصف بدلة في يده، غادر صبحي القِشلة.

مكتئباً وغارقاً في اليأس، هام على وجهه في شوارع يافا شبه المهجورة بلا هدف. فكَّر بنصف بدلته المفقود، وبحبيبته شمس: النصف المفقود

من حُلْمه الكبير. تنهَّد وهو يفكِّر بمصيره ومصير أُسرته، وخصوصاً مصير أخيه جمال وعمِّه حبيب، اللذَيْن لم يسمع أخباراً عنهما منذ أن حمل بدلته وفرَّ من منزل عائلته، فقد كان الاثنان عضوَيْن في ميليشيا الحيِّ التي قاتلت في محاولة لصدِّ تقدُّم الميليشيا اليهودية إلى المنشيَّة. لم يعرف إلى أين يتَّجه ليسأل عنهما، فقرَّر أن يغامر بالذهاب إلى حَيِّه، وإن أمكن إلى بيته.

كانت المنطقة مُحاطة بالأسلاك الشائكة بعد أن أُعلنت منطقة عسكرية مغلقة، لذا لم يغامر في الذهاب إلى بيت عائلته. أخذ يسير حول حيِّ المنشيَّة وهو يكاد لا يصدِّق أن هذا الدمار والخراب كلَيْهما نتج عن معركة الأيَّام الثلاثة في الحيِّ. وعن بُعْد رأى أن معظم البيوت، بما فيها بيته، قد سُوِّيت بالأرض لمنعه والآخرين من العودة.

فقط في تلك اللحظة، أدرك صبحي كم كان محظوظاً، لأن لديه بيت جَدَّته فريدة، ليأوي إليه.

26

في ميناء يافا

بعد عام

ينقلب العالم رأساً على عقب، وتبقى المناكفات العائلية على حالها.

مثل الأيَّام الثلاثة المتتالية من القصف التي غيَّرت مصير المدينة، حدث الكثير الكثير في الأيَّام التي قضاها صبحي في القِشلة، فما إن عاد إلى بيت جَدَّته فريدة في البلدة القديمة حتَّى فُوجئ بشقيقه الأصغر أمير يفتح الباب. صحيح أنهما لم يلتقيا منذ أسابيع، إلَّا أن عناق أمير له وبكاءه حيَّر صبحي، إلى أن ظهر والده، وأبلغه الخبر المفجع: جمال، أخوه الأكبر، استُشهد في معركة المنشيَّة، بينما أُصيب عمُّه حبيب بجراح بالغة.

«كلّ الحقّ واللوم على أخوي حبيب، ما بيجي من هالهامل إلَّا كلّ شرّ، ميت مرَّة قلتلُّه إنه إنت وأخوك جمال بعدكم صغار، والأهمّ من هيك مش مدرَّبين كفاية لتحموا الحيّ وتواجهوا الصهاينة الوحوش، بس الحمد لله إنَّك طلعت عايش، يابا، يا حبيبي»، قال إسماعيل بانفعال، ثمَّ عانق ابنه بقوَّة، وبكى. انهار صبحي على الأريكة بجانب جَدَّته، ووضع رأسه في حِجْرها، وأخذ يئنُّ. تساءل: كيف يمكن أن يتغيَّر كلُّ شيء في حياته إلى الأبد، وتبقى المناكفات العائلية على حالها؟ كم كان قاسياً ومربكاً اتِّهام والده لعمِّه حبيب وتحميله مسؤولية موت شقيقه جمال. في واقع الأمر كان والده إسماعيل هو الذي هرب واختبأ في البَيَّارَة،

تاركاً حبيب وجمال وصبحي وراءه، ليدافعوا عن البيت والحيِّ. وكي لا يقع في فخِّ الملامة الذي نصبه والده، اختار صبحي أن يستفسر عن مصير بقيَّة أفراد أسرته المشتَّتة، بمَنْ فيهم عمُّه حبيب:

«في أيّ أخبار عن إمِّي وخواتي؟ وشو بالنسبة إلى عمِّي حبيب؟».

«إمَّك وخواتك في نابلس، وإن شاء الله عن قريب رح ألاقي طريقة عشان أرجِّعهم تهريب».

«تهريب؟ ليش تهريب؟».

«إنت وين كاين، يا ابنيِّي؟ ما بتعرف إنُّه يافا صارت منطقة عسكرية مغلقة بقيادة حاكم عسكري يهودي؟ هاد بيعني إنه صار لازم نحصل على تصاريح خاصَّة عشان نطلع منها أو ندخلها».

«كيف يعني؟»، سأل صبحي وهو يحاول أن يستوعب الصدمات المتعاقبة التي ظلَّ والده يرميها في وجهه واحدة تلو الأخرى.

«فرضوا علينا تصاريح عشان يتأكَّدوا إنُّه ما حدا يرجع على مدينته أو بلده، شو، يا صبحي، ما بتعرف هاد كلّه؟»، سأل إسماعيل مندهشاً، وكرَّر: «إنت وين كاين، يا ابني؟».

«كنت في السجن يابا، في القِشلة».

«هاد اللِّي عرفتُه من حماتي، وعشان إيش؟ عشان بدلة تافهة!».

صُدم صبحي من وصف والده لبدلته الإنكليزية بالتافهة، ولكنْ، نظراً لمأساة فقدان أخيه الأكبر جمال، والخسائر النفسية والمادِّية اللامتناهية التي كانت العائلة بأكملها تمرُّ بها، قرَّر أن يتغاضى عن تعليقات والده القاسية حول عمِّه حبيب وبدلته.

«رح تقدر تطلِّع تصاريح لإِمِّي وخواتي وكمان جدِّي وجدّتي عشان يرجعوا؟».

«أيّ تصاريح، يا ابني؟ نظرياً بيدّعوا إنُّه في تصاريح، بس في الواقع ما بيعطوش تصاريح لحدا، بس أنا تعرَّفت على مجموعة من المهرّبين اللِّي بيقدروا يرجّعوا الناس على مدنهم وقراهم مقابل مصاري». ما أغفل إسماعيل ذكره أنه هو نفسه صار ينتمي إلى إحدى هذه المجموعات، ففي ظلِّ الانهيار الاقتصادي الشامل، وعدم وجود أيَّة وظائف أو دَخْل، كان أمام إسماعيل أحد خيارَيْن: إمَّا الانضمام إلى عصابة لصوص أو عصابة مهرِّبين، أو كلَيْهما.

«يعني آخرتك تدفع مصاري مشان ترجِّع إِمِّي؟»، قال صبحي مازحاً في محاولة للتخفيف من ثقل الواقع المرِّ.

«لأ أكيد مش أنا اللِّي رح أدفع عشان أرجِّع مرتي، حماتي أولَى إنها تتكفَّل ببنتها»، أجاب إسماعيل مبتسماً وهو ينظر إلى فريدة.

«شو، شو؟ ما سمعت ولا فهمت»، صرخت فريدة.

«طبعاً طبعاً، يا حماتي، طول عمرك بتنقِّي شو تسمعي، وشو ما تسمعي، ما في إشي جديد في الموضوع».

مزاح والده ذكَّره بأنه هو أيضاً لم يتبقَّ معه شيء من النقود القليلة التي كان يمتلكها، ولأول مرَّة فكَّر بضرورة البحث عن عمل. أحسَّ بغرابة الفكرة: كيف يمكن أن يعثر المرء على عمل في مدينة مدمَّرة، غاب عنها أهلها وعمَّالها وأصحاب الأعمال الصغيرة والكبيرة؟ تساءل كم من الوقت سيمضي قبل أن يعودوا؟ ومع هذا لم يكن لديه أمل كبير في ذلك بعد أن أصبحت يافا مدينة مغلقة أمام مَنْ بقي فيها ومَنْ هُجِّر

منها. لحظات كهذه كانت تجعله يفتقد معلِّمه مصطفى وعمَّه حبيب، الرجلَيْن اللذَيْن كانا يهبَّان لمساعدته كلَّما احتاجها.

«يَلَّا، يا أمير، خلِّينا نروح قبل ما تعتِّم»، قال إسماعيل، ثمَّ حمل كيساً مملوءاً بأدوات المطبخ التي استقرضها من حماته لبيت البَيَّارَة الخالي من أيَّة أدوات للطبخ.

قبل أن يغادر والده وأخوه أمير البيت، استجمع صبحي شجاعته، وسأل: «معلش، يابا، طَمِّنِّي كيف حال عمِّي حبيب؟ قدِّيش خطورة إصابته؟ وفي أيِّ مستشفى موجود؟».

«مستشفى؟ مش موجود في مستشفى، هوي في مكانه الطبيعي، في السجن، انجرح ووقع بين إيدين اليهود، وأخدوه أسير حرب».

«وكيف عرفت كلّ هاد؟».

«رحت على مكاتب اللجنة الدولية للصليب الأحمر أسأل عن أخوك جمال، وهناك استفسرت برضو عن حبيب».

«صليب أحمر وأسرى حرب»، تمتم صبحي لنفسه مدركاً كم كان عليه أن يتعلَّم حول الواقع الجديد لحياته ما بعد الحرب. التزم الصمت عندما سمع والده يقول:

«يا ريتني خسرت أخ مش ابن». كانت هذه آخر الكلمات التي خرجت متقطِّعة من بين شفتَي إسماعيل المرتجفتَيْن قبل أن ينفجر بالبكاء، ويغادر البيت.

27
بلد مُتنازَع عليه

لم يعد صبحي يخرج من البيت إلّا للضرورة القصوى، ليتجنَّب اعتداءات قوّات الهاغاناه وإهاناتهم، وأيضاً ليتجنَّب العوليم، المهاجرين اليهود الجُدُد القادمين من بلغاريا وبُخارى واليمن، ليستقرُّوا في بيوت الفلسطينيِّيْن في يافا. كان الخوف يملأ قلوب أهل يافا بعد أن أصبحت مدينتهم بلا قوانين، وقد اجتاحتها الفوضى، وصارت تخضع لمنع التجوُّل من الساعة السابعة مساء وحتَّى السادسة صباحاً، مثلها مثل المُدُن والقرى جميعها في فلسطين، التي أصبحت الآن تُعرَف بإسرائيل.

من أجل إخضاع الألفَي شخص المتبقِّين في يافا، والأهمُّ من ذلك مصادرة بيوتهم وممتلكاتهم، أنشأت الدولة الحديثة الولادة ما يُسمَّى «لجنة الترحيل»، التي كان هدفها ليس فقط طرد الفلسطينيِّيْن من مُدُنهم وقراهم، ولكنْ، أيضاً إطلاق النار على أيٍّ شخص يحاول أن يتسلَّل عائداً إلى بيته. مثل المنشيّة، كانت القرى المجاورة مثل سَلَمة ويازور والعبَّاسيّة والسافريّة، والعديد غيرها، قد أُخليت من سكَّانها، وسُوِّيت بالأرض، كما وُضعت خُطَّة «إعادة توطين» من أجل ترحيل مَنْ تبقَّى من الفلسطينيِّيْن من بيوتهم إلى غيتوهات مخصَّصة للعرب، وتوطين المهاجرين اليهود الجدد في بيوتهم. وهكذا تمَّ تنفيذ خُطَّة «إعادة توطين الفلسطينيِّيْن و»توطين» المهاجرين اليهود الجدد في آنٍ واحد.

مع أن حيَّ العجمي كان من أحياء يافا الراقية، إلّا أن موقعه بعيداً

عن تلِّ أبيب في الشَّمال وبيت يام في الجنوب جعله مكاناً مناسباً لإقامة الغيتو العربي، حيث يقيم الألفا شخص المتبقُّون من أهل يافا بعد إخراجهم من بيوتهم، إضافة إلى ثلاثة آلاف من القروِيِّيْن المهجَّرين من القرى المجاورة. خمسة آلاف شخص أصبحوا يعيشون الآن في حيٍّ شديد الازدحام، أصبح يُسمَّى المنطقة أ. وما إن تمَّ نقل أبناء يافا والقرى المجاورة إلى العجمي حتَّى أُحيطت المنطقة أ بالأسلاك الشائكة مع ثلاث نقاط عبور تحت الحراسة.

لم تكد تمرُّ بضعة أشهر على اعتقال صبحي والتحقيق معه حول بدلته المُتنازَع عليها حتَّى اعتُقِل من جديد، ولكن التُّهم هذه المرَّة كانت أكثر خطورة، فقد اعتُقِل بدعوى أنه يحتلُّ، بصورة غير قانونية، ملكيَّة لعرب غائبين، هذه الملكيَّة المُتنازَع عليها لم تكن إلَّا بيت جَدَّته فريدة الذي كان يقيم فيه منذ بضعة أشهر، وهو كل ما تبقَّى له بعد أن دُمِّر بيته في المنشيّة.

كان من مستجدَّات الحياة تحت سيطرة السادة الجُدُد اقتحام بيوت الناس، لذا كانت الموسيقى التي تُسمع في بيت فريدة وبيوت جيرانها هي صوت القرع بعنف على الأبواب، الصوت الذي كان مؤذياً حتَّى لأُذُنَي فريدة الصمَّاوَيْن. ذات صباح وجد صبحي جَدَّته في سريرها وقد فارقت الحياة. ألقى بنفسه منهاراً على السرير، وأخذ يبكي بحُرْقة آخر مَنْ تبقَّى له من عائلته بعد رحيل الجميع. هدأ قليلاً، واستجمع شجاعته، ثمَّ أمسك بيدها الباردة كالثلج، وحدَّق فيها. أكثر ما حيَّره كانت الابتسامة الساخرة التي علت وجهها وهي ترقد هناك بسلام، وكأنها تقول: «الحمد لله إني مُتت يا ستِّي عشان ما أضل أسمع الخبيط عالبواب، أو أشوف اللِّي بيصير بحكاية هالنكبة اللِّي بلَّشت ومش رح تنتهي. ربّنا يجمعنا في الجنّة بعيد عن هالجحيم».

بعد مرور ما يقارب أسبوعَيْن على وفاة جَدَّته فريدة، استيقظ على صوت طَرْقَات عنيفة على الباب.

«لأ، يا ربِّ، دخيلك خلص، والله ما عاد فيِّي»، صرخ بصوت عالٍ معتقداً أن الطارقين من قوَّات الهاغاناه التي أصبحت الآن تسيطر على المدينة تماماً. لم يكن أمامه خيار إلَّا أن يفتح الباب، ليجد أربع عائلات من اليهود البلغار تقتتل فيما بينها على تقاسم بيت جَدَّته، وقبل أن يدرك ما يحدث كان في طريقه من جديد إلى القِشلة.

لكنْ ...

«أنا أعرف أن فريدة هي جَدَّتك لأُمِّك».

«لكنْ ...».

«أعرف، أعرف أنها جَدَّتك لأُمِّك، لكنك لستَ وريثها، هل تفهم؟ وَرَثَتُها هم أبناؤها، يعني أُمّك خديجة وخالتك عبير وأخوالك الثلاثة الذين أستطيع أن أسمِّيهم لك إن أردتَ. لكنْ، كما تعرف، كلُّهم غائبون، ولهذا فإن ممتلكاتهم مصنَّفة على أنها أملاك غائبين».

شاعراً بالهزيمة والحَيْرة أمام القوانين غير الشرعية للمحتلِّين، أُخرج صبحي من بيت جَدَّته، مثله مثل سكَّان البلدة القديمة جميعهم في يافا. أصبح الآن يتشارك بيتاً من بيوت حيِّ العجمي التي أُخليت من سكَّانها مع عائلتَيْن، واحدة من خمسة أفراد، والثانية من سبعة أفراد، هُجِّرتا من قرية يازور المجاورة. وأكثر ما أزعجه احتمال وصول المزيد من العائلات المهجَّرة، ليصبح الوضع غير محتمل، حيث سيضطرُّ إلى تقاسم غرفته الصغيرة مع عائلة أخرى. غني عن القول إن عدداً قليلاً فقط من أهل يافا، مثل الخواجا ميخائيل، قد تمكَّنوا من الاحتفاظ ببيوتهم.

هرباً من كابوس البيت المزدحم، وأيضاً من الرقابة المشدَّدة على منطقة الغيتو العربي، أصبح البحر صديق صبحي وملاذه الوحيد، على الرَّغْم من سمعته كبحر يافا الغدَّار. وعلى الرَّغْم من مشهد الغروب المثير للشجون، إلَّا أنه ظلَّ يومياً يراقب الأُفُق الذي اختفى وراءه أهل مدينته بين يوم وليلة. ظلَّت مشاهد هروبهم المأساوية وصراخهم الذي يصمُّ الآذان تتردَّد في رأسه. كان البحر العميق قادراً على محو آثار الجرائم كلّها التي ارتُكبت فيه، خلافاً للجرائم التي ارتُكبت على الأرض، والتي ستحتاج وقتاً أطول لتُمحَى. فكلَّما نظر شرقاً باتِّجاه ما تبقَّى من مدينته، فاضت عيناه بالدموع. النظر شرقاً ذكَّره بسَلَمِة وشمس، والنظر شرقاً كان يعني رؤية مدينة أشباح، وأناس محطَّمين، ورجال ونساء مُسنِّين تُركوا وحيدين، وحصان جائع، وقطط تموء، وكلاب ضالَّة، وركام المنشيّة، والأسواق الخالية، والمحالّ المغلقة، والبيوت المنهوبة، والفيلَّات المسروقة التي فرَّ منها أصحابها آملين أن يعودوا إليها ما إن يتوقَّف القصف. النظر شرقاً ذكَّره بالموت، ومثل بنطال بدلته الإنكليزية المفقود وبيت جَدَّته، فقد أصبح كلُّ ما في حياته مُلتبساً و«مُتنازعَاً عليه»، ومثل الكثبان الرملية كان كلُّ شيء يتحرَّك تحت قدمَيْه.

كثيراً ما كان صبحي يغيِّر طريقه، ليتجنَّب المشكلات، وكذلك ليوفِّر على نفسه ألم رؤية أعمال التخريب والنهب الجماعي للبيوت والممتلكات. في طريقه للقاء أبو غالب، وهو صديق قديم للعائلة وعده بعمل في ورشة التصليح التي يمتلكها في ميناء يافا، مرَّ من أمام فيلَّا البيطار في حيِّ النزهة، الذي كان حتَّى وقت قريب أفخم وأحدث حيٍّ في يافا. ومثل العديدين الذين كانوا يقرؤون جريدة «فلسطين» اليومية، كان صبحي يعرف جيِّداً أن مالك هذه الفيلَّا الفخمة هو السيِّد عبد الرحمن البيطار، إذ كان قد دخلها مرَّة أو مرَّتَيْن لإصلاح شيء ما، نسي الآن، إن كان موتور كهرباء أو شيئاً آخر.

فيلّا البيطار

حتَّى لا يثير شكوك قوَّات الهاغاناه التي كانت تشرف على عملية النهب المنظَّمة لفيلَّا البيطار، اختار صبحي أن يقطع الشارع إلى الجهة المقابلة بدلاً من أن يعود أدراجه. لقد تغلَّب فضوله بشأن هذه السرقة على خوفه. رأى عن بُعد ستَّة من ميليشيات الهاغاناه يشرفون على فريقين من الحمَّالين، كان أحدهما يحمِّل أثاث الفيلَّا الفاخر في شاحنة كبيرة، بينما الآخر يحمِّل مكتبة عبد الرحمن البيطار الشخصية في شاحنة أصغر، وبسبب حُبِّه للكُتُب، وأيضاً بسبب نهب مكتبة جَدِّه والمكتبة الإسلامية، فإن سرقة المكتبة كانت أكثر ما أثار غضبه. «ليش يسرقوا كُتبنا مع إنُّه معظمها بالعربي؟ وليش يسرقوا كُتب عربية مع إنهم بيكرهوا كلّ إشي عربي؟»، هكذا تساءل صبحي بينه وبين نفسه.

وهو يستمع إلى التعليمات التي كان يعطيها زعيم عصابة النهب لعشرات الحمَّالين الذين ينقلون المقاعد والسجاجيد والثريَّات وأجهزة الراديو والكُتب، استنتج أن معظم، إن لم يكن جميع، الحمَّالين فلسطينيون، وإلَّا فلماذا يصيح عليهم زعيم الهاغاناه بعربية مكسَّرة؟ صحيح إنه حتَّى وقت قريب كان أفراد العصابات من العرب واليهود، ولكنْ، منذ 13 أيَّار 1948، عندما استسلمت يافا رسمياً إلى قوَّات الهاغاناه، أصبح النهب مقتصراً على اليهود. وفي حين استولت الدولة على العقارات، فقد نُهِبَت الممتلكات المنقولة، مثل أثاث البيوت والمكاتب والعيادات ومُعَدَّات المستشفيات والشاحنات والسيَّارات وقطعان المواشي والقوارب، أو أُعطِيَت للمهاجرين اليهود الجدد.

كان صبحي مأخوذاً بالطابع المنظَّم لعملية النهب هذه، فسار بخطوات بطيئة محاوِلاً أن يحيط بتفاصيل المشهد. قطعت عليه أفكاره

مفاجأة أدهشتْهُ: بدا له أحد الحمَّالين الذي كان خارجاً من حديقة فيلَّا البيطار، حاملاً صندوقاً مليئاً بالكُتب، شديد الشبه بعمِّه حبيب. فرك عينيه مرَّتَيْن، مرَّة ليتأكَّد من أن الرجل الملتحي الأعرج كان فعلاً عمّه حبيب، ومرَّة ثانية ليحاول أن يفهم لماذا يقوم عمُّه حبيب الذي لم يقرأ كتاباً في حياته، والذي كانت اهتماماته مُنصبَّة في مكان آخر، بسرقة الكُتب بالتحديد.

«أنا بهلوس ولا انجنِّيت؟»، سأل صبحي نفسه، بينما أخذتْهُ قدماه دون أن يشعر إلى الجانب الآخر من الطريق، «يا الله! هاد إنت، يا عمِّي؟»، واقترب منه، وعانقه، أو بالأحرى تعلَّق برقبته بقوَّة، بحيث لم يتمكَّن جنود الهاغاناه من الفصل بينهما، وكأنهما جسد واحد، وأخذا يذرفان الدموع، إلى أن صاح أحد رجال الميليشيا، الذي كان يراقب الموقف، بأعلى صوته: «أرجوكم، اتركوهما».

احتاج المحيطون بهما، يهوداً وعرباً، بعض الوقت والعديد من الأسئلة قبل أن تتَّضح لهم الصورة. مثلما أخبره والده قبل هذه الحادثة بشهرَيْن، كان عمُّه حبيب قد أُصيب في ساقه في معركة المنشيّة، ثمَّ اعتُقل كأسير حرب. وكمعظم أسرى الحرب الفلسطينيِّيْن، كُلِّف بالعديد من الأعمال المُشينة، بما في ذلك مساعدة أجهزة الدولة الحديثة في نهب الممتلكات العربية. أمَّا بعض المثقَّفين الفلسطينيِّيْن مثل أبو خالد البطراوي، أمين المكتبة الإسلامية، فقد طُلِب منهم أن يُصنِّفوا الكُتُب، أمَّا الآخرون مثل عمِّه حبيب، فكُلِّفوا بالعمل اليدوي. لم يدرك صبحي حينها أنه ستمرُّ عقود قبل أن تكشف التقارير السرِّيَّة في الأرشيف الصهيوني أن المكتبات الفلسطينية الخاصَّة (ليس فقط في يافا، بل في أنحاء فلسطين كلّها) قد نُظِّمت بإشراف قوَّات الهاغاناه لصالح المكتبة

الوطنية الإسرائيلية الجديدة ومكتبة الجامعة العبرية. لقد ظهرت هذه الكُتُب على رفوف هاتَيْن المكتبتَيْن مع مرور الوقت.

تبادل صبحي الحديث مع عمِّه حبيب، وأبلغه، بتوتُّر وعلى عَجَل، أخبار أفراد عائلته المشتَّتة، بينما طمأن حبيب صبحي بأنه سيتمُّ إطلاق سراحه بعد ما يقارب ستَّة أسابيع، ووعده بأنه سيبحث عنه إمَّا في حَيِّ العجمي أو في ورشة أبو غالب في الميناء، «هاد إذا ما رموني عالحدود مثل ما عملوا مع كثير من أسرى الحرب».

«لا، إن شاء الله ما بيرموك ورا الحدود حتَّى تلاقيني، لإنُّه مش ضايل حَدَا من أهل يافا في هالخربة».

«يا ريت شوشانا كمان تكون لسَّه موجودة»، قال حبيب مازحاً، وضحك بصوت عالٍ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

28
أشطر ميكانيكي في اللامدينة

«صنعة في إيدك أو عِلِم في راسك، بس هدول اللِّي إلهم فايدة أو قيمة بهالزمن اللِّي جار علينا، وهُمَّه جواز السفر الوحيد للفلسطينية المسخَّمين»، قال أبو غالب ذو السبعين عاماً، معلِّم صبحي الجديد الذي يمتلك محلاًّ صغيراً لتصليح موتورات القوارب والسفن في ميناء يافا، «ومش هدول»، أضاف، وهو يمسك بيد جواز سفره الفلسطيني، وباليد الأخرى رزمة من أوراق العُملة الفلسطينية.

بانتظار ظهور زبون أو محرِّك مُعطَّل، كان صبحي وأبو غالب يجلسان على الرصيف البحري أمام ورشة التصليح يشربان القهوة أو العَرَق الرخيص، حسب الوقت من النهار. كان العمل شحيحاً، ولذا كانا يجلسان مع الصيَّادين والعاطلين عن العمل طوال اليوم، ليقتلوا الوقت بالدردشة.

«هاد الجواز الفلسطيني صار وثيقة بلا قيمة، مكانه الوحيد صار بس في المتاحف. وكمان هدول الجنيهات ما عاد إلهم أيّ قيمة، صاروا مهمِّين بس للِّي بيجمعوا الروبابكيا والأشياء القديمة». نهض أبو غالب عن صندوق البرتقال الخشبي، متحاملاً على نفسه ومُسنداً جسده الهَرِم إلى عكَّازته الخشبية السوداء، وتوجَّه إلى الرصيف البحري للميناء، وقف على حافَّته دقيقة، ونظر إلى جواز سفره وأوراق العُملة التي في يده، وبأقصى ما يستطيع من قوَّة رماها في البحر. صُعِق الجميع ممَّا

رأوه، فوقفوا معاً، وركضوا باتِّجاه أبو غالب وهم يخشون الأسوأ، وهو أن يلقي بنفسه في البحر.

«إنت انجنِّيت؟».

«بربَّك إيش اللِّي عملتُه؟ وليش هيك؟».

وبينما اعترض بعضهم على ما فعله أبو غالب، صمتت الأغلبية، وسُمعت أصوات حشرجات وأنين هنا وهناك.

«من اليوم وطالع بتنادوني أبو مغلوب ومش أبو غالب، مفهوم؟»، قال غاضباً، بينما امتلأت عيناه بالدموع.

ساد الصمت لدقائق قبل أن يقول صيَّاد مُسنٌّ: «أبو غالب معه حقّ ...»، ولكنْ، قبل أن يُكمِل كلامه، قاطعه أبو غالب قائلاً: «إن كان معي حقّ، ليش لسَّه بتسمِّيني أبو غالب مع إني قلتلَّك تناديني أبو مغلوب؟ هيني بنبِّهكم، مش رح أردّ على أيّ واحد بيناديني باسمي القديم».

«طوِّل بالك، يا أبو مغلو...، ليش إنت متشائم هيك؟»، قال أحد الصيَّادين الذي كان يعرف أبو غالب منذ عقود، ولهذا لم يستطع أن يتلفَّظ باسمه الجديد.

«اسمعوا، يا رجال، اللِّي بيقوله أبو مغلوب صحيح ميِّة بالميِّة، حضروا حالكم عشان تسلّموا هويّاتكم وجوازات سفركم الفلسطينية، وتهيَّؤوا نفسياً عشان تُوخدوا هويَّات إسرائيلية. نفسي أعرف شو رح يكتبوا على الوثائق الجديدة: محمَّد علي، فلسطيني، مواطن من الدرجة الرابعة؟».

«ولو، يا رجل، مواطن من الدرجة الرابعة، يمّ هيك؟ ليش مش مواطن من الدرجة التانية أو التالتة؟».

«لأ، لإنُّه هدول الدرجتين محجوزين لليهود اليمنيِّيْن والمغاربة، عشان هيك، إحنا يا دوب رح نكون مواطنين درجة رابعة».

«هاد إذا كنَّا محظوظين، أنا خايف إنه الفلسطينيِّيْن ملهمّش درجة من أصله. أظنّ إنُّه من هَلَّأ وطالع رح نكون عبيد عندهم».

«فشروا، ولو! مستحيل، إحنا مش عبيد عند حدا، هدول اليهود لَمَم جمعوهم من كل بلاد العالم، تطلّع عليهم يا رجل، هدول عصابة حراميّة»، صرخ شاب من بين الحاضرين.

«وهدول اللَّمَم هزموك أكبر هزيمة، بطِّل حكي فاضي، هاد الحكي اللِّي وصَّلنا لهون. إنت وأمثالك عم تستنُّوا أسيادكم العرب والجيوش العربية يوصلوا وينقذوا يافا. إنت شفت جندي عربي واحد أجا يدافع عن مدينتك؟».

هبَّ الشابُّ من مكانه وقال مُصرَّاً على رأيه: «شو اللِّي صايرلكم، يا رجال؟ ليش إنتو انهزاميِّيْن لهالدرجة؟ هاي الأزمة رح تعدِّي مثل غيرها. تذكَّروا كم مرَّة يافا انهزمت وتدمَّرت، أنا بقدر أعدِّلكم على أصابعي: الفُرس، اليونان، الرومان، البيزنطيِّيْن، الصليبيِّيْن، نابليون، إبراهيم باشا المصري، وفي كلّ مرَّة بنرجع نوقف على رِجْلِيْنَا أقوى من قبل. يَلَّا شدُّوا حيلكم، وما تكونوا مكسورين هيك، إحنا لازم نقاوم».

عند ذِكْر كلمة المقاومة ساد صمت مُطبِق وما يشبه القُشَعْرِيْرَة، وفي أثناء ذلك الصمت المُطبِق جاء الشكُّ بأن الشابَّ المفتول العضلات صاحب الكلمات الثورية جاسوس أو عميل. مرَّت لحظات قبل أن يكسر أحدهم الصمت، ويبدأ تبادل النظرات المتشكِّكة: «ومين بالله اللِّي ضل واقف على رِجْلِيْه وصار أقوى؟»، سأل صيَّاد مُسنٌّ بصوت مُتعَب ومليء باليأس.

«إحنا، أهالي يافا الأبطال»، أجاب الشابّ بلهجة حماسية.

«طيِّب، إذاً وين أهالي يافا الأبطال عنّك اليوم؟ سألت حالك هاد السؤال؟».

«بس ما هُمَّه رح يرجعوا قريب»، ردَّ الشاب بإصرار.

«قريب؟ قدِّيش قريب؟ ويرجعوا لوين؟ أحسنلك تبطِّل تحلم وتواجه الكابوس اللِّي إحنا عايشين فيه». أخذ الرجل المُسنُّ نَفَساً عميقاً، وابتسم، ثمَّ أضاف: «على كلّ حال، يا عزيزي، أنا بحترم حماسة الشباب اللِّي عندك، وعشان هيك عازمَك على كاس عَرَق، وبتبقى تدفعلي حقُّه لمَّا تلاقيلك شغلة أو لمَّا يرجعوا أسيادك الفلسطينية».

رَغْم صدق تعليق الرجل المسنِّ ومرارته وإهانته للشابِّ المندفع، ضحك الجميع بحسرة، وطلبوا دورتهم الرابعة من العَرَق. كان صبحي، ولأوَّل مرَّة، ثمِلاً بما يكفي، ليشارك في النقاش: «أنا شخصياً بكون في سابع سما، بس لو يرفعوا عنَّا منع التجوُّل أو يلغوا التصاريح اللِّي بتسمحلنا نتحرَّك خارج يافا، لإنُّه سمعت إنه في شُغل في طبريا».

«طبريا من دون كلّ المدن؟ مين قلَّك هالحكي؟».

«عمِّي حبيب خبَّرني».

«آه، صحيح، دخلك وينُه عمَّك حبيب؟ أنا ما شفتُه من دهر، كلّ فكري إنه ترك البلد على واحد من القوارب أو السفن».

«لأ، عمِّي حبيب ما ترك البلد، أخدوه أسير حرب، بس رح يطلقوا سراحه قريب، وهوّه اللِّي خبَّرني إنه في شغل في طبريا، ووعدني ياخدني معه».

«أكيد بمزح. شو اسمك، يا شب؟».

«صبحي».

«أكيد عم تمزح، يا صبحي. الحكم العسكري مفروض على كلّ المدن والقرى الفلسطينية، وعمرهم ما رح يرفعوه. وقريب رح تحتاج تصريح خاصّ عشان تتنفَّس أو تنام مع مرتك، واعذرني على هالحكي»، قال الرجل المُسنُّ وضحك هو وصبحي والآخرون.

«بدَّك تقنعنا إنه إنت لسَّه فيك حيل، يا أبو الأمين؟ والله إنها محظوظة».

«طيِّب شو في إشي تاني نعمله لمَّا نكون محشورين متل الجاج غير إنه ننام مع نسوانَّا ونجيب ولد ورا ولد متل الأرانب؟ والله غير يندموا على فرض منع التجوُّل علينا لمَّا يلاقوا حالهم غرقانين في مزرعة أرانب».

«يعني قصدك إنه رح نغلبهم بالحبّ مش بالحرب؟».

«بالضبط، هَيَّك فهمتني، هاد بالضبط اللِّي رح يصير، وعلى هالسيرة الحلوة، يَلَّا خلِّينا نروح على قفاص الجاج تاعتنا، لإنُّه الدنيا المغرب، وقرَّب وقت منع التجوُّل».

«إنتو سمعتوا آخر نكتة عن منع التجوُّل؟».

«لأ، ما سمعتش، أصلاً ما كنتش أعرف إنه في نكت عن منع التجوُّل».

«جندي من الهاغاناه طخّ فلسطيني قبل موعد منع التجوُّل بعشرين دقيقة، ولمَّا سألوه ليش طخَّيتُه؟ جاوبهم: أنا بعرف وين ساكن، ومتأكِّد إنه مش رح يقدر يوصل بيته بعشرين دقيقة».

«الحمد لله إنه في حدا غلَّب حاله وسأل ليش فلسطيني انطخ».

ورَغْم أنه لم يتبقَّ على موعد منع التجول إلَّا أربعين دقيقة، إلَّا أنهم واصلوا الحديث.

«إذا ما بدهم يسمحوا لأهل يافا يرجعوا على بيوتهم، بقدروا عالقليلة يرجِّعوا الفلَّاحين اللِّي خرَّبوا الدنيا ونزَّلوا مستوى حيّ العجمي على قُراهم».

«هيي هيييي، وقِّفْ عندك، هاد كلام مش مقبول ولا مسموح، هاي عنصرية واضحة، إنتو اليافاويَّة أسوأ من اليهود. إنت مفكِّر إنه إحنا مبسوطين نعيش فوق بعض تلات عيَل في بيت من بيوتكم اللِّي ما بتشوف الفضا، ولا حتَّى إلها جناين؟ والله يا ريت يرجعونا على قرانا وبيوتنا وأراضينا الشاسعة، بس أنا وإنت بنعرف منيح إنه هاد الحكي مش رح يصير، لإنهم هدموا بيوتنا، وجرفوا قرانا، وسَوُّوها بالأرض، عشان هيك أحسنلكم تتعوَّدوا تعيشوا مع الفلَّاحين، يا أكابر يافا».

«أنا كلّ اللِّي بدِّي ياه إني أطلع من هالغيتو، وما بدِّي إشي تاني».

لم يعرف صبحي المضطرب ماذا عليه أن يفهم من تلك المشاعر المُعادية للفلَّاحين. ومع أنه كان يفتقد شمس، إلَّا أنه أدرك الآن أن الظروف حرمته من التفكير فيها كما كان يفعل في الماضي. لم يستطع أن يفهم مشاعره المتضاربة، فهو ذاته كان يعاني من العيش في المنزل نفسه مع عائلتَيْن مُهجَّرتَيْن من قرية يازور، وبسببهما كان يقضي معظم الوقت بين ساعات منع التجوُّل (من السادسة صباحاً وحتَّى السابعة مساء) في الميناء يشرب القهوة والعَرَق الرخيص، ويبني صداقات جديدة، ويستمع، ويشارك في النقاشات اللانهائية حول الواقع الجديد.

«خلص إنت ويَّاه، مش بيكفِّي اللِّي عملوه فينا، قسَّمونا لعرب ويهود، ولمسلم ومسيحي، وهَلَّأ بدكم تقسمونا كمان لمدني وفلَّاح، الحمد لله إنه لونّا متل اليهود «المزراحي»، ولّا كان زادوا كمان تصنيفة جديدة».

«صدقوني هاد كلُّه من صنع إيدينا، شوفوا اليهود وتعلَّموا منهم، جابوا ناس من كلّ أنحاء الكرة الأرضية، من كلّ الجنسيات والثقافات والألوان، وبحكوش نفس اللغة، وعملوا منهم شعب».

كان صبحي، مثل الجميع، قد ملَّ من المناقشات السفسطائية العقيمة، وكان على وشك العودة إلى البيت، عندما لمح فجأة شخصاً أو شيئاً من بعيد. ولكونه ثمِلاً لم يصدِّق عينَيْه للوَهْلَة الأولى. نهض عن كرسيِّه مترنِّحاً، وراح يمعن النظر ليتأكَّد من أن ما رآه هو الشخص الصحيح والبنطال المفقود. تدفَّق الأدرينالين في شرايينه، وشحُب وجهه. ظنَّ معلِّمه الجديد أن قوَّات الهاغاناه قد ظهرت في الميناء، لتعتقل شخصاً ما، حين لاحظ أن صبيَّه كان خائفاً أو شديد الانفعال. أدار وجهه إلى حيث حدَّقت عينا صبحي، ولكنه لم يرَ أيَّ جنود، فسأله: «شو في، يا صبحي؟».

«يا إلهي، هاد هوّي، هاد هوّي ابن الكلب»، عندما نطق هذه الكلمات كان قد أصبح متأكِّداً من أن الشخص كان فوَّاز عصفور، العميل الفلسطيني الذي أعطاه نصف بدلته مُدَّعياً أنه لا يعرف أين ذهب النصف الآخر.

ها هو فوَّاز يرتدي بنطال صبحي، ويتمشَّى على الرصيف البحري، وكأن شيئاً لم يكن.

منذ اللحظة التي ناوله فيها البدلة منقوصة، ساور الشكُّ صبحي أن فوَّاز كان مَنْ سرق النصف الأسفل من بدلته، ولذا ظلَّ يستفسر عن أماكن تواجده، إذ كانت السلطات الإسرائيلية قد استغنت عن خدماته، وطردته من خدمة البوليس بعد أشهر من التحقيق حول البدلة، فذهب ليعيش (أو يتجسَّس) في حيفا، حيث كان يعمل في محلّ لنتف الدجاج.

«رح أنتف بدن ابن هالكلب متل ما بينتف ريش الجاج»، كانت هذه آخر كلمات صبحي قبل أن يندفع كالسهم باتِّجاه هدفه.

حمل صبحي صندوق البرتقال الذي كان يجلس عليه وهو يترنَّح، ورفعه بذراعَيْه القويَّتَيْن، وركض باتِّجاه فوَّاز، وما إن تحطَّم الصندوق على رأس فواز إلى قِطَع صغيرة، حتَّى اتَّجه صبحي مباشرة إلى البنطال، وأخذ يسحبه بذراعَيْه إلى الأسفل. من هَوْل الصدمة كان كلّ ما استطاع فوَّاز أن يفعله هو أن يحمي رأسه بذراعَيْه، ثمَّ مدَّ يدَيْه، ليرفع سرواله الداخلي الذي كان صبحي قد سحبه مع البنطال إلى الأسفل. حاول فوَّاز، الذي كان نصف عارٍ، أن يسحب سرواله إلى الأعلى. أعلى وأسفل، أعلى وأسفل، ظلَّ البنطال والسروال يتنقَّلان بين أيديهما إلى أن تمزَّقا تماماً.

«بنطلوني، بنطلوني، بنطلوني!»، كان هذا كلّ ما استطاع صبحي قوله إلى أن هبَّ عدد من الرجال، وفصلوه عن فوَّاز. ولولا منع التجوُّل الذي لم يبقَ عليه إلَّا عشرون دقيقة، لعاد صبحي إلى البيت حاملاً قِطَعاً من لحم فوَّاز بدلاً من القِطَع الممزَّقة من بدلته الإنكليزية.

الفصل الرابع
شمس

29

أمٌّ بالتبنّي

(اللِّدّ، أيَّار 1948)

«إنت يا بنت، يلِّي هناك».

«مين؟ أنا؟»

«نعم إنتِ، شو اسمك؟».

«شمس»، ردّت بصوت أضناه التعب.

«أعلى، أعلى»، صاح العامل الاجتماعي الغارق في بحر من الأجساد والأرواح التائهة.

منذ منتصف نيسان، حينما كثَّفت الميليشيات اليهودية هجماتها على يافا والقرى المجاورة، بما فيها سَلَمِة، تدفَّق آلاف اللاجئين إلى اللِّدّ، المدينة المتوسِّطة الحجم التي يبلغ عدد سكَّانها عشرين ألفاً، والتي تقع على بُعْد عشرين كيلومتراً إلى الشرق من يافا. كانت اللِّدّ، مثل يافا، جزءاً من الدولة العربية بحسب قرار التقسيم.

في الساحة الرئيسة للمدينة تجمَّع مئات اللاجئين باحثين عن أفراد عائلاتهم المفقودين، وعلى منصَّة مرتفعة، وقف عدَّة موظَّفين من دائرة الشؤون الاجتماعية والأوقاف الإسلامية، كان يبدو عليهم السُّخط والإرهاق أكثر من اللاجئين الذين يحاولون مساعدتهم.

كان المشهد المجنون للجموع المحيطة بالعاملين الاجتماعيِّيْن يشبه

مشهد يوم القيامة، كما وصفه القدِّيس يوحنَّا قبل 1948 عاماً: «ثمَّ رأيتُ عرشاً عظيماً أبيض، والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء، ولم يوجد لهما موضع، ورأيتُ الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله، وانفتحت أسفار، وانفتح سِفْر آخر هو سِفْر الحياة، ودِينَ الأموات ممَّا هو مكتوب في الأسفار، بحسب أعمالهم»، المشهد الذي يمثِّل نهاية التاريخ البشري وبداية الحياة الأبدية. حقَّاً كان الأمر كذلك بالضبط، «نهاية التاريخ البشري وبداية الحياة الأبدية»، ولكنْ، في هذه الحالة كان العرش الأبيض العظيم مجرَّد منصَّة خشبية بائسة أقرب إلى مسرح، والواقف عليها لم يكن الذات الإلهية، ولكنْ، مجموعة من العاملين الاجتماعيِّيْن اليائسين.

حتَّى تتأكَّد من عدم ضياع فرصتها في العثور على أفراد أسرتها المفقودين، بمَنْ فيهم والدتها ووالدها وشقيقها الأصغر محمَّد ابن الاثنَي عشر عاماً، صرخت شمس بأعلى صوتها: «اسمي شمس، وأسماء خواتي نظيرة ونوال»، وكرَّرت ذلك أكثر من مرَّة وهي تمسك بأُختَيْها ابنتَي السادسة والسابعة، اللتَيْن تعلَّقتا بها.

على مدى الأسابيع الأخيرة، أو منذ اعتقلت الميليشيا اليهودية والدها وعدداً آخر من الرجال من تحت أشجار الزيتون، حيث كنَّ «يعشنَ»، أو، بالأحرى، ينتظرنَ ظهور والدتهنَّ وأخيهنَّ، كانت الفتيات الثلاث ملتصقات معاً.

منذ ذلك اليوم الذي أُخذ فيه الرجال «ليحفروا قبوراً جماعية، ويدفنوا الموتى على طول الطُّرُق» ولم يعودوا أبداً، أصبحت الشقيقات ثلاثياً لا ينفصل. ومثل القطط الصغيرة كنَّ ينمنَ الواحدة فوق الأخرى، على الرَّغْم من حرارة حزيران القاتلة. ومثل ثلاثة توائم ملتصقة، بجسد

واحد وثلاثة رؤوس، كنَّ يتحرَّكن معاً، يأكلنَ من طبق واحد، ويذهبنَ لقضاء حاجتهنَّ معاً، ويمسكنَ بأيدي بعضهنَّ وهنَّ يمشينَ في ساحة جامع دهمش، حيث كان يتجمَّع المئات من اللاجئين.

منذ فُقِدَت والدتها بين أمواج اللاجئين الفارِّين شرقاً، أصبحت شمس أُمَّاً بديلة، تطيعها شقيقتاها طاعة عمياء. لم يكن في هذا ما يثير الدهشة بعد كلِّ ما مررنَ به منذ أن هُجِّرنَ من سَلَمِة قبل ذلك بشهرَيْن.

في هذه الظروف الكارثية لم يعد الوقت يعني شيئاً لشمس، فالأمر المهمُّ منذ أن طُرد الناس من بيوتهم في سَلَمِة كان ما حدث، وليس متى حدث. ولهذا، فكلَّما سألها العاملون الاجتماعيون أو أيُّ شخص آخر «متى؟» كانت تجيب قبل شهر من الآن، وإذا سألوها «منذ متى؟» كانت تجيب أيضاً منذ شهر.

«إيمتى هربتوا من سَلَمِة؟».

«قبل شهر».

«قدِّيش قعدتوا في البيت الفاضي جنب محطَّة قطارات اللِّدّ لمَّا هربتْ عيلتك من سَلَمِة؟».

«شهر».

«لمَّا الجنود اليهود طردوكم من هداك البيت، قدِّيش قعدتوا جنب المزرعة؟».

«شهر».

«كانت كلّ عيلتك معك في هداك الوقت؟».

«أيوه»، صمتت قليلاً، ثمَّ أضافت: «أيوه، إِمِّي وأبوي وأخوي وخواتي التنتين وجارتنا فاطمة وبناتها التنتين».

«إنتِ ضيَّعتِ إِمِّك وأخوك أوَّل ولَّا أبوكِ؟».

«أوَّل ضيَّعت إِمِّي وأخوي، وبعدين ضيَّعت أبوي».

«وإيمتى الجنود اليهود اعتقلوا أبوكِ والرجال التانيين عشان دبحوا البقرة؟».

«قبل شهر».

«إيمتى ضيَّعتِ إِمِّك وأخوكِ؟».

«قبل شهر، لمَّا الجنود كانوا يطخوا علينا، ويصيحوا علينا، روحوا روحوا، روحوا عالأردن عند عبد الله».

«وقدِّيش قعدتِ تستنِّي أبوكِ وإِمِّك تحت شجر الزيتون؟».

«شهر كامل».

«وإيمتى اعتقلوا أبوكِ عشان يحفر قبور ويدفن الأموات عالطريق؟».

«قبل شهر».

«وقدِّيش صارله أبوكِ مفقود؟».

«صارلُه شهر».

«وإيمتى جابوكم إنتِ وخواتك على جامع دهمش في اللِّدّ؟».

«قبل شهر».

«قدِّيش قعدتِ هناك؟».

«شهر».

وعلى الرَّغْم من فقدانها الإحساس بالوقت، إلَّا أن شمس لحسن الحظِّ، أو لسوئه، ظلَّت تتذكَّر هذا كلَّه بوضوح حتَّى بعد سبعين عاماً.

عودة إلى الساحة الرئيسة في اللِّدّ

«شمس، الله يخلِّيكِ أعطيني اسمك الكامل حتَّى أقدر ألاقي باقي أفراد عيلتك المفقودين، بدِّي اسم بلدكم، واسم أبوكِ، واسم عيلتك، واسم إِمِّك، واسم أخوكِ».

«اسمي الكامل شمس خليل أبو سعد من سَلَمِة»، صرخت بأعلى صوتها عدَّة مرَّات، ولكنْ، لسوء حظِّها، لم يصل اسمها الكامل إلى العامل الاجتماعي الذي دفعتْهُ بعيداً موجات من اللاجئين اليائسين الباحثين عن المساعدة:

«شفتوا ابني ماجد؟».

«لقيتوا جوزي محمَّد؟».

«مرّ عليكم ولدين مع بعض اسمهم خالد وماهر؟».

«مشان الله، في حدا شاف بناتي مي ونائلة؟»، كانت امرأة تصرخ كالمجنونة، ثمَّ سقطت على الأرض ميتة.

كان الموت قد أصبح مألوفاً.

«هدول البنات التلاتة من قرية سَلَمِة، بنات واحد اسمه خليل، مين خليل؟»، سأل العامل الاجتماعي.

«أبو سعد»، أجابت شمس.

«خليل أبو سعد من سَلَمِة، إنت موجود؟ إذا موجود تعال وخُد بناتك التلاتة»، قال المرشد الاجتماعي، وانتظر أن يستجيب أحد ما، ثمَّ أضاف: «إذا أبوهم مش موجود، في أيِّ حدا من قرايبهم أو جيرانهم من سَلَمِة بيعرف هالبنات؟».

نظرت شمس حولها بقلق آملة أن يتقدَّم والدها المفقود، ويطالب بها وبأُختَيْها، ولكنْ، دون جدوى. بقلب كسير ظلَّت واقفة مع شقيقتَيْها بين الجموع.

ولكنْ، فجأة، استقرَّت عيون الفتيات الثلاث، وقلوبهنَّ تخفق بشدَّة، على شابَّة سمعنَ صوتها الحادَّ قبل أن يرينَها وهي تخترق الجموع وتشير إليهنَّ بيدَيْها قائلة: «أيوه أيوه، هدول بنات قرايبي، بنات بنت أخوي نجلا اللِّي متجوزة علاء نجم من سَلَمِة». قفز قلب شمس في صدرها وهي تحدِّق في المرأة الجميلة الممتلئة التي لم تكن قد رأتْها في حياتها من قبل. «هدول بنات بنت أخوي من سَلَمِة، هدول قرايب نسايبي في سَلَمِة».

شمس لم تفهم شيئاً.

مين هاي؟

مين بنت أخوها نجلا؟

أيّ نسايب؟

ومين هُمَّه عيلة نجم؟

ومن وين بقربولنا؟

كانت شمس مذهولة عاجزة عن فَهْم هذا المشهد الغريب وغير المتوقَّع، فالتزمت الصمت، بينما شدَّت المرأة على يدها في إشارة تعني «خَلِّيكِ ساكتة هَلَّأ، وبعدين رَحْ تفهمي كلّ شي».

بعد الصعوبات كلِّها التي مرَّت بها، وبعد أن فقدت الأمل في العثور على أُمِّها وأبيها وأخيها الأصغر الذين فقدتهم في أوقات مختلفة وظروف مختلفة، استسلمت شمس مرتبكة ومهزومة إلى قَدَرها وقَدَر شقيقتَيْها الصغيرتَيْن.

لم تشأ أن تعود إلى الحياة المزرية في جامع دهمش المزدحم، لذا ظلَّت صامتة، وكذلك فعلت أُختاها. لم تعد قادرة على تحمُّل منظر أفراد الميليشيات اليهودية الذين كانوا يأتون إلى جامع دهمش، وينادون على الرجال والشباب، ويطلبون منهم أن يذهبوا معهم، والأسوأ من ذلك كان صراخ النساء والفتيات اللواتي يُؤخَذ رجالهنَّ بعيداً دون وعد بالعودة.

خلال بضع دقائق، كانت المرأة قد سجَّلت اسمها واسم زوجها وعنوانها في اللِّدّ وأسماء «بنات أخيها» الثلاث لدى العامل الاجتماعي الذي لم ينتبه لتغيُّر اسم العائلة من أبو سعد إلى نجم.

«يَلَّا، يا بنات، خلِّينا نروح»، قالت المرأة، وتركت المكان مسرعة وهي تمسك نوال بيد وشمس باليد الأخرى. كانت هذه أوَّل مرَّة «في شهر» تترك شمس فيها يد واحدة من شقيقتَيْها، ولكنها أيضاً كانت المرَّة الأولى التي يمسك فيها شخص بالغ يدها في أكثر من «شهر».

بشكل غريزي، ولأوَّل مرَّة منذ زمن طويل، شعرت شمس بمعنى أن يمسك طفل بيد شخص بالغ: الشعور بالأمان وبعض الاهتمام جعلا شمس تنفجر في البكاء، إذ إن الحنان وحده يشفي القلوب المكسورة.

ممسكة بيد المرأة، شعرت بالحبِّ الصافي والرقَّة يفيضان في قلبها، وكذلك شعرت أُختاها.

فقط عندما شدَّت بيدها راحة المرأة الممتلئة الجميلة، التي ستصبح أُمَّها بالتبنِّي، تذكَّرت كيف أُفلتت يدها من يد أُمِّها عائشة. تذكَّرت كيف أخذت تصرخ عندما وقعت عيناها على صفٍّ من الجثث، فتركت يد أُمِّها، وقفزت إلى الخلف، ثمَّ استدارت، وأخذت تتقيَّأ، وعندما استعادت توازنها، ووقفت، كانت أُمُّها وأخوها محمَّد قد غابا عن نظرها. تجمَّدت للحظات، ونظرت حولها، فلمحت والدها ممسكاً بيدَي شقيقتَيْها الأصغر.

«وين إِمِّك؟ وين محمَّد؟»، صرخ خليل بذعر مُدرِكاً معنى فقدان شخص في هذه الفوضى كلِّها.

«يمكن طلعوا على التلَّة من هون»، قالت شمس وهي تشير باتِّجاه الجثث.

«يا إلهي!»، صرخ خليل وهو يلهث ويستدير بنظره بعيداً: «أنا متأكِّد إنه عايشة ما راحت من هناك، أكيد إنها إمَّا راحت في الطريق التاني أو رجعت تدوِّر عليك».

في وسط الآلاف من اللاجئين لم تكن شمس ولا أُختاها قادرات على إدراك الاتِّجاهات، وكلّ ما أردنَهُ في تلك اللحظة كان أن يمسكنَ بأيدي بعضهنَّ وبيدي والدهنَّ بشدَّة، وألَّا يفترقنَ من جديد.

«لازم نرجع ندوِّر على إِمّكم وعلى محمَّد»، قال خليل.

كانت شمس توَّاقة إلى الذهاب في الاتِّجاه المعاكس بعيداً عن رائحة الموت.

«آاااخ، يا ربيِّ، ما صدَّقنا إنُّه أبونا طلع من السجن، وهَلَّأ ضيَّعنا إمّنا وأخونا». لم تكن شمس تعرف أن الأحداث ستأخذ مساراً أكثر مأساوية.

عودة إلى دفء البيت

«فوتوا فوتوا يمَّا، يا حبيباتي، هادا بيتكم من اليوم وطالع»، قالت المرأة وهي تدخل البيت حيث تعيش مع ابنها محمود ذي العشر سنوات وزوجها عبد الحميد المصري.

لأن شمس وأُختَيْها كُنَّ يعشن تحت أشجار الزيتون في الخَلَاء، وبعدها في ساحة المسجد، فقد نسينَ معنى أن يكون المرء في بيته. ذكَّرتهنَّ الغرفة ذات العقود ببيتهنَّ في سَلَمِة، البيت الذي كنَّ ينتظرن العودة إليه مع والديهنَّ ما إن يلتمّ شملهم من جديد، وما إن تنتهي الشواشر.

«محمود حبيبي، وين إنت؟ تعال تعرَّف على خواتك». من خلف ستارة تفصل غرفة المعيشة عن المطبخ الصغير، ظهر صبي أسمر ممتلئ الخدَّيْن في عُمُر أخيهما المفقود، وباسم قريب من اسمه. تقدَّم الصبيُّ بخجل، وصافحهنَّ، ثمَّ وقف صامتاً، فمثل أخواته اللواتي ظهرنَ في حياته فجأة لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل أو يقول.

«هادا ابني محمود، وهاي شمس، وهدول ...»، قالت الأمُّ، ثمَّ توقَّفت منتظرة من شمس أن تذكِّرها باسمَي الابنتَيْن اللتَيْن تبنَّتْهما حديثاً.

«هاي نظيرة، وهاي نوال».

بعدها عرَّفت الأمُّ بنفسها: «الكلّ بناديني أُمّ محمود، بس أنا بفضِّل تنادوني «يمَّا»».

«وأخيراً قدرتِ تقنعي الموظَّفين بإنّك تتبنّي بنت، ضلِّيتِ تنقّي عليهم لحَدّ ما أعطوكِ تلاتة»، قال محمود وقد علَت وجهه ابتسامة عريضة.

«الحمد لله، يمّا، أنا كتير مبسوطة. روح، يمّا، اطلع جيبلنا شويَّة حطب، بدِّي أسخِّن مَي وأحمِّم خواتك».

ظلَّت الفتيات واقفات قرب الباب حائرات ماذا يفعلنَ أو ماذا يقُلنَ.

«شمس حبيبتي، جيبي خواتك، والحقوني عالجنينة. لازم أنضِّف شَعْركم من القمل بالكاز قبل ما أحمِّمكم. خُدي، هاي مشط، أنا بمشِّطلك شَعْرك، وإنت بتمشطي شَعْر نظيرة، ونظيرة بتمشِّط شَعْر نوال، يَلّا، يا بنات، تستحوش، رح نعمل متل قطار ماشي».

شعرت شمس بالحُكَاك في رأسها ما إن سُكِب عليه الكاز.

«ما تصيبيش القمل، رح يوقع لحاله، بس ضلّي مَشطي شَعْر أختك».

بعد أن أصبح شعرهنَّ خالياً من القمل، طلبت منهنَّ أُمّ محمود أن يخلعنَ ملابسهنَّ القذرة، ويغسلنَ أجسادهنَّ التي لم تمسّها قطرة من الماء منذ أن غادرنَ البيت في سَلَمة.

«يَلّا، حبيباتي، تعالوا، أنا متأكّدة إنّكم ميتات من الجوع والتعب، اقعدوا عالطاولة لحدّ ما أحضِّرلكم الأكل».

ببطون ممتلئة وملابس نظيفة، حظيت شمس وأختاها بليلة نوم هادئة لأوَّل مرَّة منذ أكثر من شهر.

30

بقرة يهودية

قبل ذلك بشهر

رَغْم أنها كانت من أوائل الأطفال الذين نزلوا التلَّة راكضين بحماسة لمشاهدة بقرة في حقل قريب، إلَّا أن شمس لم تعد تتذكَّر إن كانت هي أم صديقتها الجديدة سلمى مَنْ لمحت البقرة أوَّلاً؟ ما كان لهذا السؤال أن يشغل بال شمس لبقيَّة حياتها لو أن هذه الحادثة العاديَّة مرَّت دون أن تسبِّب النتائج المروِّعة التي تَلَتْهَا.

كانت شمس تدرك العلاقة القوية والعفوية بين الأطفال والحيوانات، وأيضاً القدرة السحرية التي تمتلكها الحيوانات لتسلية الأطفال وإخراجهم، ولو مؤقَّتاً، من بؤسهم، لذلك نادتْهم واحداً واحداً، لينضمُّوا إليها:

«نوال، نظيرة، محمَّد، صالح، علي، ليلى، تعالوا شوفوا البقرة، بقرة كبيرة، أكبر من عنزاتنا بعشر مرَّات».

«أنا مشتاق كتير لَجِديْنَا عفريت، إيمتى بدنا نرجع عالبيت عشان نطعميه؟»، قال محمَّد متنهِّداً، ثمَّ سأل: «يمَّا، إحنا ليش ما جبنا عفريت معنا؟ وشو صار في بِسِّتْنَا سمسم والجاجات؟ مين بدُّه يطعميهم؟».

«يا ابنيِّ، إحنا يا دوب قدرنا نجيبك إنت وخواتك، كيف بدنا نجيب عفريت ولَّا سمسم؟ ولَّا كان بدَّك يانا نتركك ونحمل الجِدِي والجاجات بَدَالَك؟».

سادت لحظة صمت.

أيقظت رؤية الأطفال للبقرة الحنين لديهم عوضاً عن الحماسة. ما أثار دهشة شمس أن عدد الكبار من الرجال والنساء الذين لحقوا بها تجاوز عدد الأطفال، فأدركت حينها أن أهلها وأصدقاءهم من الكبار كانوا بحاجة إلى التسلية بقَدْر حاجة الأطفال إليها، إن لم يكن أكثر. يبدو أن منظر البقرة وهي ترعى في الحقول قد منح الجميع، أطفالاً وكباراً على حَدٍّ سواء، شيئاً من الإثارة، أو فرصة للخروج من البؤس الذي كانوا يعيشونه منذ طُردوا من قراهم.

مثل آلاف الناس من حولهم، كانت عائلة شمس، والدها ووالدتها وأشقَّاؤها الثلاثة وجيرانهم، ينتظرون تحت أشجار الزيتون في الخَلَاء توقُّف القتال حتَّى يستطيعوا أن يعودوا إلى قراهم، ولكنْ، بدلاً من ذلك، ولأن الاعتداءات قد زادت حِدَّة، فقد ظلَّت تصل موجات من اللَّاجئين إلى اللِّدّ ومحيطها كلّ يوم.

بعد أن عثرت عائلة شمس وعائلات أخرى على مزرعة خضار شرقيّ اللِّدّ، التجؤوا إلى أشجار الكينا والزيتون. كان عليهم أن يحتموا من الحرارة والعطش والجوع، وأن يذهبوا في جولات طويلة أو قصيرة في الحقول، كلٌّ حسب عُمُره، بحثاً عن الطعام. جمع بعضهم الخضار من المزرعة المجاورة، فيما انطلق آخرون إلى الخَلَاء بحثاً عن أيٍّ شيء، تُنتجه الأرض: خبِّيزة وهندباء وسرّيس وبقلة وزعتر وزعتر برِّي، وكلّ ما وقعت عليه أيديهم، أمَّا المحظوظون، فكانوا يعودون ومعهم بعض فاكهة ناضجة أو غير ناضجة، مثل اللوز الأخضر والمشمش والجارنك، أمَّا الفتيات الصغيرات، مثل شمس ونظيرة، فكنَّ يرافقنَ أُمَّهاتهنَّ، ويغامرنَ في التسلُّل إلى بعض البيوت الخاوية في القرى المهجورة. كنَّ يغامرنَ بالدخول إلى البيوت التي هجرها أصحابها مثلهنَّ تماماً،

تاركينها وراءهم عامرة بالأطعمة المخزونة، مثل العدس والقمح والزيتون وزيت الزيتون والبندورة المجفَّفة والتين المجفَّف والدقيق والسكَّر وجِرار من مخلَّل الخيار واللِّفت، ويعُدنَ أحياناً بالبصل والثوم اللذَيْن كانت عائشة تحرص على وجودهما، لأنهما يضيفان طعماً للأعشاب البرِّيَّة التي كان معظم اللَّاجئين يعتاشون عليها. وكانت عائشة، كلَّما دخلت بيتاً مهجوراً، تتساءل ماذا حدث لبيتهم، لعنزاتهم ودجاجاتهم وحمارهم والحصان الذي كان خليل قد اشتراه قبل رحيلهم ببضعة أشهر، وكلّ ما تركوه وراءهم عندما أُجبروا على الفرار من سَلَمِة.

لم تنتبه شمس إلَّا عندما اجتمعت العائلة والجيران مساء حول قِدْر الخضار الضخم إلى أن البقرة كانت موضوع الحديث الرئيس الذي لم يخلُ من الخلاف والجدال طوال المساء.

«فكرة منيحة إنُّه يكون في شويَّة لحمة مع الخضرة والأعشاب، شو رايك، يا عايشة؟».

«مش عارفة شو أحكيلك، يا خليل، أكيد إنه نتفة لحمة لهالصغار اللِّي ما داقوهاش من أسابيع رح تنفعهم. أظنّ إنهم نسيوا كيف شكل اللحمة وطعمها. أنا متأكّدة إنُّه كلّهم صار عندهم فقر دم».

وهي تصغي لوالدَيْها، لم تعرف شمس إن كانا يتحدَّثان بجِدِّيَّة أم أنهما يعبِّران عن أُمنيَّة ليست في المتناوَل، فمن جهة كانت تتَّفق مع أُمِّها، فلا هي ولا إخوتها، ولا حتَّى أيّ شخص من المحيطين بهم، تناول قطعة من اللحم أو الدجاج طوال شهر، ولكنْ، من جهة أخرى، لم تنسَ أبداً كم كانت تحزن كلَّما تجمَّع والدها وأعمامها في صباح عيد الأضحى، ليذبحوا الخروف الذي كانت هي وأخوها محمَّد قد أطعماه

طوال شهر كامل قبل العيد. أحزنها النقاش حول البقرة وهي تتذكَّر أنين خروفها قبل وفي أثناء ذبحه، ولم تعرف أبداً ما الذي أبكاها أكثر، أنين الخروف أم الصمت المفاجئ الذي تلا ذلك. وعدا عن أخيها محمَّد، لم يُلاحِظ أحد من العائلة أنها لم تأكل أبداً قطعة اللحم التي كانت تُوضَع في طبقها يوم العيد. ولكن محمَّد، على عكس شمس، كان سعيداً بالحصول على قطعته وقطعة أُخته أيضاً.

«مممممم، شو زاكي، صحيح إنُّه أنا ويَّاكي عَلَفْنَا ورَبِّينا هالخروف منيح». لم تكن شمس تعرف هل تضحك أم تبكي على نُكتة أخيها.

ولكن هذه المرَّة أرغمت الظروف شمس على التعاطف أكثر مع أخيها ووالدَيْها والآخرين المتشوِّقين لتذوُّق قطعة من اللحم.

سمعت أُمَّها تحذِّر والدها ذلك المساء: «مشان الله، يا خليل، ما تروح هناك لحالك، خُد معك كم رِجَّال».

«طبعاً مش رح أروح لحالي، أصلاً تشاورت مع الرجال، وهي إبراهيم وسامي وافقوا يروحوا معي الليلة».

غالباً ما تقيَّدت شمس بتعليمات أُمِّها والمرحومة جَدَّتها بألَّا تتدخَّل في أحاديث الكبار، ولكن القلق جعلها تتدخَّل هذه المرَّة، وتسأل: «بس، يمَّا، هاي البقرة لمين؟»، إذ كانت تشكُّ، أو بالأحرى تعرف، أن البقرة حتماً لم تكن لأهل سَلَمة الذين فرُّوا من القرية معهم، وأصبحوا عائلة كبيرة ممتدَّة، تعيش معاً في الخَلَاء.

قبل أن تجيب عن سؤال ابنتها تلعثمت عائشة قليلاً، ثمَّ أجابت: «البقرة لأبو محمَّد».

«أبو محمَّد مين؟».

«أبو محمَّد اليازوري»، في إشارة إلى رجل جاء من قرية يازور.

«أيًّا يازوري؟».

«الختيار اللِّي هرب من يازور مع بقرته».

«طيِّب كيف اليهود ما سرقوش بقرته متل ما سرقوا مصارينا ودَهَبْنا؟».

دُهِشت شمس من أن الميليشيات اليهودية التي نهبت من أهل سَلَمِة ممتلكاتهم كلَّها قد سمحت لهذا الرجل العجوز من يازور بأخذ بقرة معه، ولكنها التزمت الصمت. ظلَّت تتساءل مَنْ هو أبو محمَّد، فقد كان معظم الرجال يُسمّون أبو محمَّد، بمَنْ فيهم والدها، «وأي ختيار مهجّر؟» ما دام الناس جميعهم حولها مُهجَّرين! التعريف الوحيد الذي حمل معنى لشمس كان قرية يازور التي زارتْها مرَّة مع أُمِّها.

ألحَّت شمس بالسؤال: «ووين اليازوري الختيار هَلَّأ؟».

«هرب عالأردن، وترك بقرتُه وراه».

«يا حرام!». لم يكن واضحاً إن كان التحسُّر على أبو محمَّد الذي أُرغم على الفرار شرقاً أم على البقرة التي تركها وراءه، ولحُبِّها للحيوانات، فهي، على الأغلب، كانت تقصد البقرة.

لم ينمْ أحد تلك الليلة، كما لم تنمْ شمس، ليس فقط لأن الأرض كانت فراشهم، والسماء غطاءهم، ويد قريب ما مخدَّتهم، ولكنْ، أيضاً بسبب تهامُس الرجال طوال الليل. الآن أصبحت شمس مُتيقِّنة من أن

مصير البقرة لن يكون مختلفاً عن مصير خروفها، الخروف الذي كانت تحبُّه وتُطعمه وتلعب معه.

لم يكن الصباح التالي مختلفاً عن صباحات أوَّل أيَّام عيد الأضحى: كان والدها مع رجلَيْن آخرَيْن من سَلَمِة، إبراهيم وسامي، منهمكَيْن في تقطيع اللحم وتوزيعه على الجموع الجائعة التي احتشدت حولهم في انتظار الحصول على حصَّتها.

«أعطيني شقفة صغيرة، لُقمة، إلنا زمان ما أكلناش زيّ الناس، واللحمة بنحلم فيها حلم من لمَّا تركنا يازور».

فقط عندما سمعت شمس كلمة يازور، صدَّقت أن البقرة المذبوحة كانت بالفعل لأبو محمَّد اليازوري.

ومثل الرجل اليازوري الجائع، كان العديدون، رجالاً ونساء وأطفالاً، يتوسَّلون للحصول على قطعة لحم. ومع أن البقرة كانت أكبر بعشر مرَّات من عنزات شمس، إلَّا أنها بدت أصغر بكثير بسبب هذه البطون الجائعة كلّها التي تنتظر حصَّتها.

ببطون ممتلئة، نامت شمس وبقيَّة الأطفال بعمق تلك الليلة. لقد أسعدت تلك الوجبة قلوب الجميع. وبينما غطَّ الأطفال في النوم، بقي الرجال والنساء ساهرين يتسامرون ويتمازحون، الأمر الذي لم يفعلوه منذ زمن، ولكنْ، كما يقول المثَل: «الله يكفينا شرّ الضحك».

31

البقرة اليهودية
جرائم كبرى وجرائم صغرى

أصوات مركبات، ضجيج وصراخ، تبعها تعليمات غير واضحة بعربية ركيكة صادرة عن مكبِّر صوت متحشرج، أيقظت شمس والنائمين جميعهم في الخَلاء من حولها. مذعورة نهضت عن الأرض مُحاوِلة أن تكتشف أيَّة كارثة جديدة حلَّت بهم في هذه الساعة المبكِّرة من النهار، فقد مرَّ يومان على ذَبْح البقرة، ولذا كان الشعور بالشبع قد ولّى.

للحظات كانت شمس عاجزة عن إدراك إن كان الصراخ الذي أيقظها حقيقياً أو مجرَّد كابوس، إذ أصبحت الكوابيس تُوقِظها منذ حاول المستوطنون اليهود أن يختطفوا ابنة عمِّها عليا ذات الستَّة عشر عاماً، التي كانت في الحقل تقطف اللوز من شجرة عائلتها. صادف أنها كانت وحدها عندما هاجمها ثلاثة مستوطنين، وأخذوا يجرُّونها في محاولة لاختطافها، وكذلك لِبَثِّ الرعب في القرية وخارجها، ولكنها أخذت تصرخ وتضرب بقدَمَيْها وتعضُّ خاطفيها، إلى أن هبَّ والدها وإخوتها الثلاثة وعدد آخر من رجال سَلَمِة لنجدتها. وكما كان مخطَّطاً له من محاولة الاختطاف، امتلأت قلوب الناس بالخوف، خصوصاً النساء والفتيات. ونتيجة لهذه الحادثة ظلَّت العديد من الفتيات عاجزات عن النوم لأيَّام وأسابيع، بينما بدأت أخريات، مثل شمس، بالمعاناة من الكوابيس المتكرِّرة. لم تعرف والدة شمس بالتحديد إن كانت كوابيس ابنتها ناتجة عن هذه الحادثة أم عن الأخبار المروِّعة عن مجزرة دَيْر ياسين

قبل ذلك ببضعة أسابيع. كانت شمس من الفئة الثانية، ولذا فقد كانت تحلم بأنها إحدى الفتيات اللواتي تمَّ عرضهنَّ في موكب الرعب في شوارع القدس.

كان الصياح بعربية ركيكة دائماً يملأ قلب شمس بالخوف، وغالباً ما يجلب الدموع لعينَيْها الناعستَيْن.

«اجمعوا كلّ الرجال، كبار وصغار».

عبر فحيح مكبِّر الصوت، كرَّر الضابط تعليماته لرجال الميليشيا اليهودية الذين جاؤوا معه في عربتَيْن بريطانيَّتَيْن مدرَّعَتَيْن. نفَّذ الرجال المسلَّحون التعليمات فوراً، وسحبوا «الرجال جميعهم، كباراً وصغاراً»، بمَنْ فيهم الأولاد الصغار، وصفُّوهم أمام جدار حجريٍّ مهدَّم.

كانت عبارة «اجمعوا كلّ الرجال، كبار وصغار» أكثر عبارة تخيف الرجال والنساء، الكبار والصغار، وتملأهم رعباً، فقد سمعوها مرَّات عديدة من قبل، وجرَّبوا تبعاتها المريعة.

هذه العبارة يمكن أن تعني معاقبتهم وإذلالهم وضربهم وتركهم تحت الشمس الحارقة لساعات طويلة.

وقد تعني أيضاً جمعهم وأخذهم كأسرى حرب.

أو أخذهم للعمل في معسكرات الأشغال الشاقَّة.

وفي بعض الأحيان، قد تعني الإعدام.

ولكنْ، في أكثر الأحيان، كانت تعني أخذهم لدفن الموتى.

لو لم يكونوا قد طُردوا من سَلَمِة، لكانت هذه العبارة تعني تفتيش بيوتهم بحثاً عن السلاح، وتدمير مخزون طعامهم، والأثاث القليل الذي

يملكونه. وقد تعني، أيضاً، حرق حقول القمح، وقطع أشجار البرتقال، ومصادرة المواشي، وإطلاق النار على الخيول.

أمَّا الآن، وقد خسروا بيوتهم وحقولهم وممتلكاتهم كلَّها، فقد أصبحت الاحتمالات محدودة أكثر.

ما إن أُطلقت العبارة المشؤومة حتَّى تجمَّعت النساء من الأعمار جميعها، وأحطنَ بقائد الميليشيا، وأخذنَ يُجادلنَهُ:

«شو بدكم منَّا هالمَرَّة؟ ما بيكفِّي إنّكم شرَّدتونا من بيوتنا وبلادنا؟ إنتو ما بتخافوا الله؟»، هكذا قالت امرأة، مدافعة لا شعورياً عن ابنها إبراهيم الذي كان أحد الرجال الثلاثة الذين ذبحوا البقرة.

«أنا قلت اجمعوا كلّ الرجال، مش كلّ النساء»، أجاب الكابتن متجاهلاً أُمّ إبراهيم.

«اتركوهم بحالهم، شو بدكم منهم؟»، ردَّت بأعلى صوتها كما يُفترَض أن تفعل أُمٌّ تدافع عن ابنها.

«بدِّي أعرف مين منكم سرق البقرة اليهودية؟».

«بقرة يهودية؟ أيّ بقرة يهودية؟»، أجابتْهُ أُمّ إبراهيم.

«حَجّة، لا تتغابي، أنتم جميعاً تعرفون عمَّا أتحدَّث. أهل بيت شيمن قدَّموا شكوى بأنكم سرقتوا بقرتهم».

«إحنا ما سرقنا بقرة حَدَا»، أصرَّت أُمُّ إبراهيم، ثمَّ أضافت: «تفضَّلْ، فتِّشني»، وهي ترفع ثوبها إلى صدرها، حيث كانت تخبِّئ نقودها بالعادة، ثمَّ أضافت: «بتفكِّر إنه بنقدر نخبِّي بقرة تحت ثوابنا؟».

«البقرة اليهودية اللِّي سرقتوها خبِّيتُوها في معداتكم، هناك خبِّيتوها».

«آه، قصدك هديك البقرة»، مُدرِكة أن الضابط كان يعرف أكثر ممَّا توقَّعت».

«آه، يا حَجّة، هديك البقرة».

«بس البقرة اللِّي دبحناها ما كانت يهودية، كانت بقرة فلسطينية لصاحبها أبو محمَّد».

«أبو محمَّد؟ أيّ أبو محمَّد»، سألها الكابتن بفضول، معتقداً أنها قد كشفت هُوِيَّة السارق دون قصد.

«ورجيني مين أبو محمَّد اللِّي سرق البقرة اليهودية، وادَّعى إنها بقرتُه، وهيك ما في حاجة إني أعاقبهم كلّهم»، قال الكابتن وهو يحدِّق في الرجال المصطفِّين إلى الجدار، «اركعوا على ركبكم»، كان يصرخ فيما يتابع حواره مع أُمِّ إبراهيم: «مين أبو محمَّد؟».

«أبو محمَّد اليازوري».

«أبو محمَّد اليازوري أوقف، وتعال هون»، لكنْ، لم يتقدَّم أحد.

«أبو محمَّد اليازوري، بقولّك وَقِّف وتعال هون، وإلَّا كلّ هدول الرجال رح يتعاقبوا».

«أبو محمَّد اليازوري هرب عالأردن، وترك بقرته وراه»، هكذا صرخت أُمُّ شمس عائشة وهي تقترب من أُمِّ إبراهيم، ثمَّ أضافت: «البقرة اللِّي دبحناها هي بقرة أبو محمَّد، صدِّقني، يا كابتن يوسي، هاي بقرة عربية،

ومش يهودية». لم يكن واضحاً لماذا نادتْهُ بالكابتن يوسي، ولكنها فعلت.

«ومين اللِّي دبح البقرة العربية؟».

أخذ سؤال الضابط الجميع على حين غِرَّة، فساد صمت مُطبِق.

«كمان مَرَّة، مين دبح البقرة؟ البقرة يهودية ولا عربية بيفرقش معي».

ساد الصمت من جديد.

«طيِّب، ولا حَدَا بدُّه يعترف بسرقة البقرة اليهودية ودبحها، إذاً، الحقوني»، قال الكابتن مخاطباً الرجال الراكعين على ركبهم.

في هذه اللحظة، وقف خليل والد شمس على قدمَيْه، وتقدَّم من الضابط وقال: «أنا اللِّي دبحت البقرة».

«مش ممكن رِجَّال واحد يقدر يدبح بقرة لحاله، مين كان معك؟».

خيَّم صمت مرعب قبل أن يقف سامي ويقول: «أنا كنت مع خليل».

«ومين كمان؟».

«أنا»، قال إبراهيم وهو يقف على قدمَيْه.

وهنا انفجرت أُمُّ إبراهيم بالبكاء.

«ومين كمان؟»، سأل الكابتن بصوت منتصر.

«بس هدول، ما في حَدَا تاني»، صاح رجل مُسنٌّ لا يستطيع الوقوف أو المشي.

«طيِّب، إذاً، إنتو التلاتة الحقوني»، هكذا أنهى الكابتن تحقيقه،

لأن المستوطنين الذين قدَّموا الشكوى قالوا إن الذين سرقوا البقرة كانوا ثلاثة.

ما إن جرَّ رجال الميليشيا خليل والد شمس، وإبراهيم ابن العشرين، وسامي ابن الثمانية عشر، واعتقلوهم في سيَّارتَي جيب، حتَّى ركضت مجموعة من النساء، من بينهنَّ عائشة زوجة خليل، وأُمَّهات إبراهيم وسامي وأخواتهم، وأحطنَ بالكابتن «يوسي». كنَّ يجهلنَ نوع العقوبة التي تنتظر الرجال الثلاثة، لذلك حاول بعضهنَّ أن يناقشنَهُ، بينما أخذت أخريات يتوسَّلنَ إليه، أمَّا الزوجات والأُمَّهات، فقد أذهلهنَّ الرعب، وأفقدهنَّ عقولهنَّ. أمَّا شمس، فقد صاحت بأعلى صوتها: «أرجوكَ، يا كابتن، ما تاخد أبوي»، وهي غارقة في شعور عميق بالذنب.

«بدكم يانا نموت من الجوع؟»، صاحت أُمُّ سامي.

«بس احكيلنا وين بدكم تاخدوهم؟ ولإيمتى؟»، قالت أُمُّ إبراهيم، التي كانت قد فقدت زوجها وابنها الأصغر في واحدة من المعارك التي وقعت بين قرية سَلَمِة والمستوطنة اليهودية المجاورة. ركضت خلف سيَّارتَي الجيب، حيث كان ابنها قد حُمِل مُكبَّل اليدَيْن ومعصوب العينَيْن، وهي تصرخ بأعلى صوتها:

«يا ولاد الكلب، يا ولاد الشرموطة

يا عرصات

يا منايك

ارحمونا

شو عملنالكم حتَّى نستاهل هاد كلُّه؟

قولولي شو عملنالكم؟

إنتو اللِّي جيتوا قعدتوا في بلادنا مش إحنا اللِّي سرقنا بلادكم

شو بدكم منَّا أكتر من هيك؟

أخدتوا بلادنا

طردتونا من بيوتنا

سرقتوا مصارينا ودَهَبْنا

انتهكتوا أعراضنا

قتلتوا وسجنتوا رجالنا

ما بيكفِّي إنكم قتلتوا جوزي وابني علي، وهَلَّأ بتاخدوا ابني إبراهيم، بس لإنَّا كنَّا جوعانين وبدنا نطعمي ولادنا!

الله يسخطكم ويسخط بقرتكم اليهودية!

إذا بتعاقبونا على سرقة بقرة، بإيش لازم نعاقبكم على سرقة بلد بحالها؟

ظلَّت أُمُّ إبراهيم تصرخ وتركض خلف الجيب المدرَّع، إلى أن سقطت جثَّة هامدة على الطريق الترابي الضيِّق، حيث اختفى ابنها.

32
أحدهم بالباب

قُرع جرس الباب بينما كانت أُمُّ محمود وعائلتها مجتمعين حول المائدة، يتناولون طعام الغداء. نهضت ومشت متأهِّبة باتِّجاه الباب وهي تهمس: «ششششش، ولا كلمة، خلِّيكم قاعدين، ما حَدَا يتزحزح من مكانه، أنا رح أفتح الباب»، ثمَّ تمتمت لنفسها: «مين اللِّي ممكن ييجي بهيك وقت يوم جُمعة؟». وضعت إصبعها على فمها مشيرة لهم أن يبقوا صامتين، وتردَّدت قليلاً قبل أن تفتح الباب.

منذ التاسع من تمُّوز، عندما استولت الميليشيات اليهودية على مدينة اللِّدّ (المدينة التي التقت فيها وأحبَّت وتزوَّجت عبد قبل خمسة عشر عاماً)، أصبحت أُمُّ محمود مَهووسة بحماية أفراد عائلتها، ذلك أنها كانت الأقلِّ عرضة للخطر في ظلِّ الأهوال التي تعرَّض لها أهل المدينة، وخاصَّة الرجال والصِّبْيَة منهم، فزوجها عبد، مدير مدرسة اللِّدّ، كان متَّهماً بتحريض طلَّابه على المشاركة في المظاهرات ضدَّ الإنكليز والصهاينة، ولذا فقد قضى في السجن أكثر ممَّا قضى مع زوجته وابنه. أمَّا ابنها محمود ذو العشرة أعوام، فكان يُعدُّ، مثله مثل بقيَّة الذكور الفلسطينيِّيْن، تهديداً لأمن الدولة الوليدة. ولكن أكثر ما أقلق أُمّ محمود وشَغَل فكرها كانت المعلومات الكاذبة التي قدَّمتْها لدائرة الشؤون الاجتماعية حول صِلَة قرابتها لبناتها بالتبنِّي.

كان لِلَمَّة العائلة حول مائدة الغداء هذا اليوم مغزى خاصّ، ليس

فقط لكونها احتفاء بإطلاق سراح عبد بعد خمسة أشهر قضاها في السجن، بل لأن القَدَر قد وهبه ثلاث بنات دفعة واحدة، وهو الذي طالما تمنَّى أن يهبه الله بنتاً، إذ إن فترات سجنه الطويلة حرمتْهُ وزوجته من الإنجاب.

«مين هالبنات الحلوين؟»، سأل عبد وهو يدخل البيت مفاجِئاً زوجته وابنه.

«هدول بناتنا، بنات سَلَمِة اللِّي تبنِّيتهم قبل أربع أشهر».

«يا إلهي على هالخبر! يا الله، شو أنا سعيد إنُّه عيلتنا كبرت في غيابي بدل ما تصغر»، ثمَّ ركع على ركبتَيْه، وقبَّل الأرض، «أشكرك، يا ربُّ، أشكرك، يا ربُّ»، كرَّر وقد غمرت وجهه ابتسامة عريضة. بهذا الاستقبال الدافئ لم يكن غريباً أن يصبح عبد اللطيف، صاحب الشخصية الظريفة، الأب الذي افتقدتْهُ شمس وشقيقاتها منذ اعتُقل والدهنَّ خليل، وظلَّ مفقوداً منذ ذلك الحين.

كانت أيَّام الجُمُعة الأيَّام الوحيدة التي امتلكت فيها أُمُّ محمود الوقت لتعدَّ الطعام لأسرتها الصغيرة بدلاً من الأسرة الكبيرة التي كانت قد تبنَّتْها في اللِّدّ. كانت، بمساعدة جارها المسيحي أسطة، وابنها محمود وبناتها الثلاث، قادرة على توفير وجبات يومية للمحتاجين وكبار السنِّ الذين عُثِر عليهم في البيوت المهجورة أو في الحقول، ممَّنْ تُركوا دون رعاية حينما عمَّ الخراب المدينتَيْن التَّوْءَم اللِّدّ والرملة، إذ كانت هذه أوَّل مرَّة تَستخدم فيها دولة إسرائيل المقامة حديثاً طائراتها الحربية لقصف المُدُن الفلسطينية.

«حبيبي محمود، إنت روح مع عمَّك أسطة عالبساتين، وإنتُو، يا بنات، حضروا حالكم لجولتنا اليومية».

كانت أُمُّ محمود تعطي هذه التعليمات لفريقها المكوَّن من خمسة أشخاص كلّ صباح. وبينما كان أسطة ومحمود يذهبان لجمع الحطب والورقيّات الصالحة للأكل، كانت شمس ونظيرة ونوال ترافقان والدتهما في جولة على الأحياء المحيطة، ليجمعنَ الطعام من البيوت المهجورة: «ما تاخدوا إلّا الأكل، يا بنات، ما تلمسوا ولا إشي، بيوت الناس وأشياؤهم مقدَّسة مش لازم تنمسّ، لازم نحميها ونحترمها حتّى في أوقات الحرب». كانت أُمُّ محمود تكرِّر هذه الجملة لبناتها كلّ يوم وهنَّ يجمعنَ الدقيق والأرز والعدس والبصل والزيت والزيتون والثوم والبندورة المجفَّفة والقُطّين والزبيب من تلك البيوت.

«يمَّا يمَّا، تعالي شوفي شو لقيت»، صاحت شمس من غرفة المعيشة في أحد أغنى البيوت التي هجرها أصحابها، كانت تقف وهي تنظر مذهولة إلى الأساور الذهبية المُلقاة فوق خزانة أدراج. كانت أُمُّ محمود تعرف أن عليها ألّا تترك الأساور الذهبية لرجال الميليشيات اليهودية الذين كانوا ينهبون بيوت الناس ليلاً ونهاراً منذ سقطت اللِّدّ، إلّا أنها لم تشأ أن تكون هي أو بناتها شريكات في مثل هذه الجرائم. كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة منذ طُرد خمسة وثلاثون ألف شخص من أهالي اللِّدّ والرملة من بيوتهم بالقوَّة، كما حدث أيضاً لِمَا يزيد عن أربعين ألف لاجئ، هربوا من يافا والقرى المجاورة، وما زالوا ينتظرون العودة إلى بيوتهم. وحده التاريخ سيكشف بعد عقود أن الإشارة التي أعطاها بنْ غوريون بيده عندما سُئل عمَّا يجب فعله بسكان اللِّدّ والرملة واللاجئين المقيمين فيهما وفي محيطهما كانت تعني: «تخلَّصوا منهم». كانت خُطَّة «دالِت» جزءاً لا يُجتزَأ من الاستراتيجية الصهيونية: «اطردوا أكبر عدد ممكن من الفلسطينيِّيْن من بيوتهم»، حتّى من المناطق التي كانت مخصَّصة للدولة العربية بحسب قرار التقسيم.

«ما تصيبوا، ولا إشي، خلُّوا كلّ شي زيّ ما هو، الناس قريب رح ترجع على بيوتها»، قالت أُمُّ محمود وهي تشكُّ في كلماتها، ولكنها لم تكن مستعدَّة، بأيَّة حال من الأحوال، للسماح لنفسها ولا لبناتها بأن يكنَّ جزءاً من عملية النهب الكبرى التي تجري حولهنَّ كلّ يوم وكلّ ساعة.

حين تعود إلى البيت، كانت أُمُّ محمود تُعدُّ الوجبات الساخنة ممَّا جمعوه من ورقيَّات برِّيَّة وبقوليَّات، لتُوزِّعها على الأعداد الهائلة من المحتاجين في مدينتها، ثمَّ تنادي: «محمووووود، أسطاا، تعالوا خُدوا هاي الطناجر، وروحوا وَزْعوا أكل للناس في الحارة الشرقية، وأنا والبنات رح نروح على الحارة الغربية والحارة الشامية».

فيما عدا جامع دهمش، حيث أُعدم ستُّون فلسطينياً على يد قوَّات البالماخ بعد أسبوع فقط من تبنِّي أُمِّ محمود لشمس ونوال ونظيرة، لم تكن شمس تتردَّد في الدخول إلى البيوت، حيث كانت تتحدَّث، وتتبادل النكات مع المسنِّين الباقين فيها، بل وأيضاً تُطعمهم بالملعقة من يدها، وهي تدعو أن تعود عائلاتهم قريباً لتعتني بهم. استمرَّ هذا الحال حتَّى اليوم الذي كانت فيه شمس وأُمُّها بالتبنِّي وأخوها محمود يسيرون في زقاق في أحد الأحياء القريبة وسمعوا صوت شخص يئنُّ.

«شمس، محمود، إنتو سامعين اللِّي أنا سامعتُه؟».

«أيوه، يمَّا، أنا سامعة».

«شو اللِّي عم بصير؟»، تساءلت أُمُّ محمود وهي تدخل إلى غرفة فقيرة، كان بابها مفتوحاً.

«آاااخ، آااخ»، كانت امرأة مُسنَّة سمينة تئنُّ، وقد غطَّت الدبابير وجهها ويدَيْها ورِجْلَيْها.

«يا إلهي!»، صرخت أُمُّ محمود وهي تناول شمس ومحمود قطعاً من القماش كانت ملقاة على الكرسي، ليطردوا بها الدبابير.

«حبيبي، يمَّا، اركض عالشارع، وجيب معك رجال تنين، وإذا ممكن كارَّة خشب، وخدوها على دائرة الشؤون الاجتماعية في الأوقاف».

ومثل أعضاء جيشها الصغير كلّهم، نفَّذ محمود تعليمات أُمِّه بحذافيرها، وتمَّ إنقاذ المرأة المُسنَّة.

وعلى الرَّغْم من كلِّ ما مرَّت به شمس في الأشهر الماضية، كانت هذه واحدة من الحوادث التي تركت فيها أثراً لا يُمحَى، وظلَّ هذا المشهد محفوراً في ذاكرتها لبقيَّة حياتها.

عودة إلى جرس الباب

فتحت أُمُّ محمود الباب بتردُّد، لتجد أمامها رجلَيْن فلسطينيَّيْن في منتصف العُمُر. ومع أنها اطمأنَّت، لأنهما لم يكونا من رجال الميليشيا اليهودية الذين كانت تخشى أن يأتوا في أيَّة لحظة لاعتقال زوجها وابنها، إلَّا أنها تلعثمت قبل أن تخرج الكلمات من فمها بصعوبة: «بشو بقدر أساعدكم؟».

«يا ترى، الأستاذ عبد موجود؟».

«مين أحكيلُه؟».

«احكيلُه في موظَّفين من دائرة الشؤون الاجتماعية في الأوقاف بيحبُّوا يحكوا معه».

«يا ريت ما تقول ولا كلمة زيادة»، كانت هذا كلّ ما قالته أُمُّ

محمود لنفسها، بينما ارتخى حنكها وشحُب وجهها وكاد قلبها يقفز من صدرها، فاللحظة التي كانت تخشاها وصلت إلى عتبة بابها أسرع بكثير ممَّا توقَّعت. كان عبد والأطفال الأربعة يقفون خلف أُمِّ محمود وقد استشعروا جِدِّيَّة الموقف.

«تفضَّلوا تفضَّلوا فوتوا»، قال عبد مرحِّباً بالضيفَيْن، وبطريقته المحبَّبة اللطيفة طلب من شمس أن تأخذ إخوتها ليلعبوا في الحديقة.

«ما تبعت البنات برَّه قبل ما نحكي بالموضوع»، اعترض أحد الموظَّفين.

«أنا مش باعتهم برَّا البيت، هيهم هون في الجنينة»، قال عبد، ثمَّ أضاف: «تفضَّلوا اقعدوا»، وظلَّ محتفظاً بهدوئه. وبينما جرَّت شمس نفسها وإخوتها إلى الحديقة، دخل عبد بالرجلَيْن إلى غرفة المعيشة.

«تغدِّيتوا؟ بتحبُّوا تتغدُّوا معنا؟».

«لأ، أكلنا، شكراً، يا أستاذ».

خفَّفت لهجة عبد اللطيفة من حدَّة التوتُر.

«ما تستحوا»، قال وهو يعرف أن اللباقة مع موظَّفي الأوقاف ستُسهِّل التفاهم معهم. وبما أن القهوة والسكَّر كانا من المواد المُقنَّنة في وقت الحرب، فقد خطر له أن تقديم وجبة العائلة التي قاطعاها لهما سيفيد كثيراً، أو هكذا اعتقد.

رَغْم امتعاض أُمِّ محمود بينها وبين نفسها من هدوء زوجها، إلَّا أن تجاربها السابقة قد علَّمتْها أن لطفه كثيراً ما كان مثمِراً، واليوم بالذات كانت أحوج ما تكون إلى سحره.

«كيف بتحبُّوا قهوتكم؟ حلوة؟ حلوة كتير؟».

«أيوه، يا أستاذ، حلوة كتير».

«حبيبتي، ممكن تعمليلنا قهوة، ولَّا أنادي شمس تعملها؟».

«لأ، أرجوك، خلِّي شمس برَّه الموضوع، أنا بعمللكم القهوة». ذهبت أُمُّ محمود إلى مطبخها الصغير، لتستجمع نفسها، وما إن أصبحت خلف ستارة المطبخ حتَّى أخذت نَفَساً عميقاً، لتُبطئ من دقَّات قلبها. كانت تعرف أن أسلوب زوجها في الالتفاف حول المواضيع قبل الدخول في صلب المشكلات كان يعطي نتائج إيجابية. من نافذة مطبخها الصغيرة راقبت بناتها الثلاث وهنَّ يلعبنَ «الغمَّاية» في الحديقة مُدَّعيات عدم الاكتراث بما يجري، وبيد مرتعشة مسحت الدموع عن خدَّيْها.

كان يصلها صوت عبد المطمئنّ وهو يناقش مع الموظَّفين ظروف ما بعد الحرب، وهذا أتاح لها الوقت الذي احتاجتْهُ لترتيب أفكارها وتحضير الحجج والتفسيرات التي كان عليها أن تقدِّمها للرجلَيْن. استرقت نظرة أخرى إلى بناتها قبل أن تضع أربعة فناجين على صينية نحاسية، وبيدَيْن مرتعشتَيْن قدَّمت فنجانين للرجلَيْن وفنجاناً لزوجها، ثمَّ أخذت واحداً، وألقت بنفسها إلى جانب زوجها على المَقْعَد المزدوج.

دفع حضورها الرجال الثلاثة للدخول في الموضوع مباشرة:

«طيِّب، أكيد صرتِ عارفة إنُّه إحنا جينا بخصوص بنات سَلَمِة التلاتة».

«شو مالهم؟»، سألت أُمُّ محمود وهي تحاول جاهدة أن تمنع دموعها من الانهمار.

خاطب الموظَّف الأكبر سنّاً عبد قائلاً: «أستاذنا المحترم، إحنا عارفين منيح، وبرضو مُمتنِّين إلك ولزوجتك رِفْقَة اللِّي ...».

«قصدك أُمّ محمود»، حاول عبد أن يؤكِّد على الاسم الذي اختارت زوجته أن تستخدمه لنفسها منذ أن تزوَّجا، ولكنْ، لم يكترث الرجلان لكلامه.

«أكيد رِفْقَة كانت نِيَّتها طيبة لمَّا ادَّعت إنُّه البنات التلاتة اللِّي من سَلَمِة قريباتها، وإحنا كمان عارفين إنه زوجتك مش بس اعتنت بالبنات، لكنْ، كمان أنقذت حياتهم لمَّا أخدتهم من جامع دهمش قبل المجزرة بأسبوع واحد. وإحنا كمان مُمتنِّين لكلّ اللِّي بتعمله من الطبيخ للكبار والمحتاجين في المدينة. لكنْ، زيّ ما إنت عارف، يا أستاذنا المحترم، بنات سَلَمِة مسلمات، وما بيصير تربيهم أُمّ يهودية»، كان الموظَّف يتحدَّث وهو محرج، ثمَّ أضاف: «أنا متأسف كتير مدام رِفْقَة، إحنا عارفين إنِّك دايرة بالِك على البنات كأنّك أُمّهم وأكثر، لكنْ، عنَّا تعليمات من مدير الأوقاف إنَّا ناخدهم».

«تُوخدوهم؟ تُوخدوهم وين؟ لأ، مش ممكن، هاد مش كلام عُقَّال»، قالت رِفْقَة التي بدا عليها الاضطراب بوضوح.

تدخَّل عبد قائلاً: «استنُّوا استنُّوا، يا جماعة، صلُّوا على النبي، قبل ما تبلشوا تحكوا عن أخد البنات، خلُّوني أشرحلكم. أوَّلاً وأهمّ إشي أنا زيّ ما إنتو عارفين عربي ومسلم، وابني محمود متلي، وزيّ ما بتعرفوا كمان إنتو ومديركم إنه بحسب الشريعة الإسلامية الأولاد بتبعوا أبوهم ومش إمّهم، بس الأهمّ إنتو وأنا بنعرف إنه ما في حَدَا، وبكرِّر ما في حَدَا، اهتمّ بالمحتاجين والكبار واللاجئين متل مرتي اليهودية».

«ما في داعي تشرحلنا لإنُّه كلّ اللِّي تفضَّلت فيه يا أستاذ عبد، صح ميِّة بالميِّة، لكنْ، عنَّا تعليمات صارمة من مدير الأوقاف نفسه إنُّه نلاقي للبنات أُمّ مسلمة متلهم، وفعلاً أخيراً الله وفَّقنا، ولقيناها. وعشان هيك لازم ناخدهم عشان يتربُّوا عندها كمسلمات».

«لكنْ هاي عائلة مسلمة، شو مالكم يا جماعة؟ الأطفال بتبعوا أبوهم، ولَّا أنا غلطان؟».

«للأسف، يا حضرة المدير، الأمور ما عادت هيك، لإنُّه بحسب التقاليد اليهودية، وكمان بحسب قوانين الدولة الجديدة، الأطفال بتبعوا أُمَّهاتهم».

هذه المعلومات الصادمة أفقدت رِفْقَة وعبد القدرة على الكلام، فواصل الموظَّف قائلاً: «للأسف هاي ما عادت فلسطين الانتدابية ولا فلسطين العربية، هاي صارت إسرائيل».

هنا ثارت ثائرة رِفْقَة وعبد: «بس إنتو الأوقاف الإسلامية اللِّي عم تعترضوا ومش الدولة الجديدة، شو اللِّي صايرلكم؟ إنتو يا دوب قادرين تحلُّوا مشاكلكم، كيف بدكم تتعاملوا مع هاي المشكلة كمان؟».

«والله بنعرف، يا أستاذ، ومش قادرين نوصفلك قدِّيش إحنا محرجين من هالموقف».

«اللِّي بتعملوه جنون، يا عيب الشوم!»، قال عبد، بينما انفجرت رِفْقَة في البكاء.

محرجاً ومتأثِّراً بدموع رِفْقَة، قال الموظَّف لعبد: «ليش ما تروح بُكرا وتحكي مع مدير الأوقاف، أنا متأكّد إنه رح يتعاطف مع قصَّتكم، لكنْ،

إحنا عنَّا تعليمات واضحة إنه ناخد بنات سَلَمِة اليوم، ونسلِّمهم لسيدة مسلمة، اسمها مريم».

«تسلموهم؟ هيك بتتعامل مع تلات بنات صغار زيّ القمر؟ أنا بعرف كلّ وحدة اسمها مريم في البلد، أيّ مريم منهم؟»، قالت رِفْقَة بغضب.

«ما بعرف».

«مش عارف لأيّ مريم، ولا لوين ماخد بناتي التلاتة، لا لا، هذا كفر وإجرام».

«حبيبتي رِفْقَة، بترجَّاك تهدي»، قال عبد، ثمَّ اقترب من زوجته التي كانت على وشك الانهيار، «أنا عارف إنه اللِّي بصير مصيبة، بس بترجَّاكِ ما تخلِّي البنات يشوفوكِ بهاي الحالة. الموضوع صعب علينا كلّنا»، حاول أن يهدِّئها بينما عيناه تغرورقان بالدموع.

ساد صمت قصير قبل أن يقول عبد بصوت مستسلم: «طيِّب، خلِّيني أنادي البنات»، ولكنْ، قبل أن يفعل ذلك نظر أحد الموظَّفين إلى رِفْقَة، وسألها: «إنت وعبد خبَّرتوا البنات إنِّك يهودية؟».

«لأ، ما خبَّرناهم».

«فكرك ابنك محمود خبَّرهم؟».

«ما أظنّ»، قالت، ثمَّ أضافت وهي تصيح بأعلى صوتها: «هذا جنون رسمي، الناس عم بنطردوا من بلادهم، من بيوتهم ومن مدنهم وقراهم ومزارعهم، والرجال عم بنسجنوا أو بيعدموا بدم بارد، والنساء بيغتصبوا، وآلاف اللاجئين الفلسطينيِّيْن بيموتوا من الجوع والعطش، وكلّ اللِّي بيهمَّك إنت والأوقاف تاعتك إنكم تاخدوا بناتي منِّي لإنِّي يهودية؟

يا عيب الشوم! شو هالحكي الفاضي!»، ثمَّ انهارت باكية على الكنبة.

«حبيبتي رِفْقَة طولي بالك، أنا رح أحكي مع مدير الأوقاف بُكرا الصبح بدري، وبوعدك أرجِّعلك ياهم بنفس اليوم، صدِّقيني».

بخطوات ثقيلة وكأنهما تلقَّيا ضربة على رأسَيْهما، ترك عبد ورِفْقَة موظَّفي الأوقاف، وسارا باتِّجاه الحديقة الخلفية، ولكنْ، قبل ذلك سألت رِفْقَة زوجها: «عبد، فكرك بيكون أحسن إذا قلنالهم إنه إحنا التنين شيوعيِّيْن ومُلحدين؟».

«إنتِ انجنِّيتِ، حبيبتي؟ ما بتعرفي إنُّه بالنسبة إلى الأوقاف إنه نكون أب وأُمّ ملحدين أسوأ بكتير من إنُّه نكون أُمّ يهودية وأب مسلم؟».

لإدراكها أن عبد قد استسلم للواقع الأليم، انهارت رِفْقَة على الكنبة، وأخذت تشهق وتئنُّ، فتوجَّه عبد وحده إلى الحديقة، ليؤدِّي المهمَّة الصعبة.

مثل ثلاثة تماثيل حجرية دخلت البنات إلى البيت، وكما وجَّههنَّ والدهنَّ، سرنَ باتِّجاه والدتهنَّ، وجلسنَ حولها على الكنبة، وأخذنَ يعانقنَها بشدَّة.

مرَّة أخرى واجهت شمس وأختاها مصيرهنَّ المتكرِّر: الافتراق عن أحبَّتهنَّ. ولكنْ، منذ سنٍّ مبكِّرة، أدركت بنات سَلَمة الثلاث أن التعاطف الإنساني وحده، وليس الدين أو القومية، قادر على أن يغزو القلوب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

33
أُمٌّ مسلمة

«مريم ... مريييام، ولك، يا مريم، وين إنت؟»، صاح موظَّف الأوقاف، الذي رافق شمس وأُختَيْها من بيت أُمِّهنَّ اليهودية إلى تخشيبة أُمِّهنَّ المسلمة التي وقع عليها اختيار الأوقاف. لم يكن في مدخل البيت المهلهل أو محيطه المهدَّم ما يدلُّ على أن بشراً يعيشون هناك.

«مريم، مريم، جبتلّك التلات بنات اللِّي رح يعيشوا معك».

على الرَّغْم من جولاتها العديدة مع أُمِّ محمود إلَّا أن شمس لم ترَ هذا الجزء من المدينة من قبل. كانت ما تزال تحت تأثير الصدمة، تحاول التعامل مع وضعها الجديد، واستيعاب حقيقة أن والدتها التي أحبَّتْها كانت يهودية. كيف يمكن ذلك مع أن اليهود هم السبب في الكوارث كلِّها التي حلَّت بها وبعائلتها؟

لقد جاء انتزاعها من عائلتها بالتبنِّي في الوقت الذي اعتقدت فيه أن الله قد عوَّضها أخيراً عن خساراتها، وأعطاها أُمَّاً حنونة وأخاً طيِّباً، تمكَّنا في وقت قصير من تعويضها عن فقدانها لأُمِّها وأخيها محمَّد، كما أعطاها عبد، الأب المصري المُحبّ ذا القلب الطيِّب. كان أكثر ما أحزنها فقدان الإحساس بالأمان الذي منحه لها الانتماء إلى عائلة.

برَغْم الحَيْرَة التي غمرتْها، إلَّا أن شمس لاحظت أن موظَّف الأوقاف دخل إلى بيت مريم دون أن يقرع الباب، وهو أمر لم يكن مألوفاً. كرَّر

الموظَّف قوله: «هاي البنات التلاتة اللِّي حكينا عنهم»، ولكنْ، من جديد لم يكن هناك أيُّ ردٍّ. مرَّت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يصيح بأعلى صوته: «مريم، وين إنت؟ ليش ما بتردِّي؟».

وبعد أن يئس من الحصول على ردٍّ، أخذ يمشي حول البيت بحثاً عن مريم: «على فكرة، لازم تعرفوا إنه مريم خرسا وطرشا، لكنْ، مع الوقت رح تتعلَّموا كيف تتفاهموا معها».

كانت الفتيات الثلاث مصعوقات من كلِّ ما يحدث. أخذنَ يمشينَ بين الكراكيب في ساحة الخردوات وهنَّ يمسكنَ بأيدي بعضهنَّ، كما كنَّ يفعلنَ وهنَّ يعشنَ وحدهنَّ تحت الأشجار، وبعدها عندما نُقلنَ، ليعشنَ مع مئات اللاجئين الآخرين في جامع دهمش.

بشعور غامر بعدم الأمان تبعت شمس وأُختاها الموظَّف، الذي بدا واضحاً أنه كان في هذا المكان من قبل. كان أكثر ما أدهش الفتيات المذهولات وجود عدد كبير من الحيوانات المتنوِّعة داخل البيت، وبحسب خبرتهنَّ المحدودة كان مكان الحيوانات خارج البيوت، وليس داخلها، على الأقلِّ، كان الأمر كذلك في سَلَمِة، فبقَدْر ما أحبَّت العائلة الجرو عنتر، إلَّا أن الوالدَيْن لم يسمحا له أبداً بالدخول إلى البيت، أمَّا هنا، في بيت مريم، فقد بدا أن الحيوانات تعدُّ البيت بيتها.

كانت مريم، الرؤوفة والمُحبَّة، تحضر كلّ حيوان تُرك دون رعاية إلى حظيرتها، التي تحوَّلت رويداً رويداً إلى حديقة حيوانات تحت رعايتها.

«يمكن الأوقاف فكَّرونا حيوانات عشان هيك جابونا هون»، همست نظيرة.

«مبيِّن هيك»، أجابت شمس، وصمتت قليلاً، ثمَّ أضافت:

«ما تقلقي حبيبتي، شدّة وبتزول، رح تمِرُق متل كلّ شي مَرَق قبلها، صدّقيني».

ومع أن نظيرة لم تستطع أن ترى ضوءاً في نهاية هذه المأساة الجديدة، إلّا أن تجاربها السابقة جعلتْها تثق بشمس ثقة عمياء. ومن جديد مارست شمس دور الأُمِّ الحامية، ففي محاولة لتخفيف القلق المتزايد حول أُمِّهنَّ الجديدة وبيتها الغريب، حاولت أن تشغل أُختَيْها في عَدِّ الحيوانات جميعها التي رأينَها حتَّى الآن.

«أنا شايفة أكتر من دزِّينة جاج سمان، ونص دزِّينة أو أكتر بِسَس كسلانة، وأرانب في كلّ مكان، وعنزة طالعة على كرسي، وبتمدّ رقبتها عشان تاكل غصن أخضر طري مرمي فوق الخزانة، وخروفين مبيِّن عليهم مبسوطين جوَّا البيت بعيد عن الحَرِّ والبرد، هدول اللِّي عَدَّيتهم لهَلَّأ، بس أنا متأكّدة إنه في غيرهم برَّا البيت»، قالت نوال.

كانت الفتيات يحاولنَ العثور على طريق لعبور ساحة الخردة عندما وقعت أعينهنَّ على أُمِّهنَّ الجديدة. ومع أن مريم كانت في أوائل الأربعين، إلّا أن الظروف جعلتْها تبدو عجوزاً أشبه بالساحرة. كانت لديها الملامح جميعها التي تُدهش الأطفال، ولكنْ، أيضاً، تخيفهم: شَعْر رمادي أجعد طويل، لم يلمسه المشط منذ زمن، وطبقات فوق طبقات من الملابس القذرة التي غطَّت جسدها النحيل الذي يشبه هيكلاً عظمياً دون عضلات، تُسند ظهرها المنحني. كانت تحمل بين ذراعَيْها بحنان جَدْياً رضيعاً، ومثل أُمٍّ وطفلها كانت تُرضعه من زجاجة حليب. «نانا، دادا»، سمعت البنات صوت مريم العالي وتمتماتها غير المفهومة. عندما لمحت ضيفاتها لم تُعِرهنَّ أيَّ اهتمام، واستمرَّت في أداء عملها، وعندما انتهت من إرضاع الجَدي الصغير، وضعتْهُ باهتمام

على كومة من الخِرَق، وهنا لمحتْهُ أُمُّه التي كانت تأكل الأوراق الخضراء، وركضت إليه، وبدأت تلعقه، وتلعق مريم أيضاً.

لم تُبدِ مريم أيَّ اهتمام بالفتيات الثلاث. بدأت الآن بنقل عدد من الأغراض الكبيرة والصغيرة من إحدى زوايا الحظيرة إلى زاوية أخرى. جعل الكمُّ الهائل من الأغراض المكانَ يبدو كغرفة مخزن أكثر ممَّا هو بيت مستعدّ لاستقبال فتيات ثلاث. ومثل أفراد قبيلة مفقودة نظرت شمس ونظيرة ونوال إلى بعضهنَّ بيأس، لا يعرفنَ ماذا يقُلنَ أو يفعلنَ.

أراد موظَّف الأوقاف أن يُنهيَ مهمَّته بتسليم البنات المسلمات الثلاث إلى أُمِّهنَّ المسلمة، فطلب منهنَّ أن يتبعنَهُ: «مريم، هدول البنات التلاتة اللِّي حكينا عنهم، بدِّك تديري بالِك عليهم، والأوقاف رح تعطيكِ أجرة شهرية، ماشي؟»، قال، ثمَّ وقف منتظراً جواب مريم.

«تاتا»، كانت هذه شبه الكلمة التي تمتمت بها مريم موافقة على تلقِّي المقابل، ثمَّ أشارت إلى زاوية في الحظيرة، يُفترَض أن تنام فيها البنات.

«بدِّك ياهم يناموا هناك؟».

«آه»، أجابت مريم موافقة.

استدارت الفتيات، وحملقنَ في الزاوية بدهشة.

«ما بدِّي أضل هون، أنا خايفة من هاد المكان ومرعوبة من هاي المَرَة»، قالت نظيرة، فجاءت نوال، والتصقت بشمس.

«ما تقولي هيك»، اعترض الموظَّف دفاعاً عن قرار الأوقاف، ثمَّ أضاف: «مسكينة، والله، إنُّه قلبها طيِّب وحنونة، صحيح إنها ما بتعرف تتصرَّف مع الناس، لكنْ، قلبها دهب».

«دهب؟ أيّ دهب؟»، قالت نظيرة.

«ليش هي عايشة لحالها؟ ما عندها أهل؟»، سألت شمس.

«طبعاً إلها عيلة، لكنْ، متل ما صار معكم، عيلتها انطردت من البيت، لمَّا هي كانت عم ترعى غنماتها في الخَلاَ». صمت الموظَّف قليلاً، ثمَّ أضاف: «أُمّها طبعاً أصرّت إنها ما تطلع بدون بنتها الوحيدة، لكن الضابط اليهودي هدَّدها إنُّه يقتل جوزها وولادها التنين إذا ما بتتحرَّك فوراً. أخدوا العيلة بالقوّة، وحطُّوهم مع اللاجئين اللِّي راحوا باتِّجاه الشرق عالأردن، لكنْ، بعد أسبوع أو تنين رجع أخوها الصغير هاشم عشان ياخدها، لكنها رفضت تطلع. حضنت عنزتها وتنتين من بِسسها وكم جاجة، وتمتمت بإنها لا يمكن تتحرَّك بدون حيواناتها، وإنها رح تضلّ مع حيواناتها اللِّي اعتبرتهم عيلتها، وفعلاً ضلّت معهم، وإحنا وعدنا أخوها اللِّي أجا يطلب منَّا نساعده، بإنُّه ندير بالنا عليها لحدّ ما عيلتها ترجع أو هي توافق على إنها تروح عندهم. وهَلَّأ صرتوا إنتو عيلتها».

«الله لا يقدِّر»، قالت نظيرة.

«عشان هيك هي خَرسَا؟ قصدي عشان خسرت عيلتها؟».

«لأ، حبيبتي، هي انولدت خرسا وطرشا، مسكينة الكلّ كان يضحك عليها، وعشان هيك صارت تحبّ الحيوانات كتير، وعلاقتها فيهم صارت قوية».

«يمكن لإنُّه الحيوانات هُمَّه الوحيدين اللِّي ما كانوش يضحكوا عليها»، أضافت نوال بخجل.

مستمتعاً بفضول نوال بشأن مريم، أجاب الموظّف: «أحسنتِ، يا نوال، هاد صحيح تماماً»، أخذ نَفَساً عميقاً، ثمَّ أضاف: «يمكن هي صَحْ في النهاية، لإنُّه الحيوانات ممكن تكون أكتر إنسانية من أكترنا».

«أكيد، شوف إنتو شو عملتوا فينا»، هكذا فكَّرت شمس قبل أن يتابع الموظَّف: «وعشان هيك ضلّت مريم تتجوَّل في المدينة وتدوِّر على الحيوانات اللِّي صحابها تركوها. هديك اليوم كانت رح تنطخ وهي بتحاول تحمي خيول الجيران، كانت تحطّلهم أكل لمَّا أجا تلاتة من الميليشيا، وأخدوا الخيول معهم. ما بقدر أوصف قدِّيش كانت غضبانة هداك اليوم، إجت عنَّا تصرِّخ وتبكي وتشكي إنُّه ولا حدا غيرها عم يدير بالُه على الحيوانات في المدينة. طبعاً كتير من الحيوانات كانت عم بتموت من الجوع والعطش، وكنت بدِّي أقولها إنُّه إحنا يا دوب قادرين نعتني بالبشر، فكيف بدنا نعتني بالحيوانات، بس طبعاً ما تجرّأت أقولها هاد الكلام». في هذه اللحظة تذكَّرت شمس كيف كانت أُمُّ محمود تطلب منها ومن أُختَيْها أن يضعنَ الماء والطعام للحيوانات المتروكة.

«هَلَّأ فهمت ليش هي بتخلِّي الحيوانات جوَّا البيت، بس لسَّه ما فهمت كلّ هاي الفوضى اللِّي مخلية البيت متل ساحة خردة»، قالت شمس.

سعيداً لنجاحه بالحصول على بعض التعاطف من الفتيات تجاه مريم، بدأ الموظَّف يشرح سبب هذه الفوضى كلِّها: «مريم جامعة قمامة».

«إيش يعني؟».

«بتعرفوش إيش يعني؟».

«لأ».

«يعني هي شخص بيجمع الخردة، وبيقدرش يتخلّص منها أو يرميها».

لم تستطع شمس أن تفهم أو تتعاطف مع شخص يجمع الخردة، ذلك أن أُمَّها عايشة وكذلك أُمّها اليهودية كانتا تهتمَّان بالحفاظ على بيتَيْهما المتواضعَيْن نظيفَيْن ومرتَّبَيْن، ولكنها لاحقاً فهمت لماذا كانت مريم تجمع أكواماً فوق أكوام من الأغراض المتنوِّعة.

نظرت شمس حولها، وشعرت كأنها وأُختَيْها قد سقطنَ من الجنَة اليهودية إلى جهنَّم المسلمة. مُدرِكاً الخطيئة التي ارتكبها في حقِّ الفتيات، نظر موظَّف الأوقاف في عينَي شمس، وسألها: «في إشي بقدر أعمللكم ياه قبل ما أروح؟».

لم تعرف شمس ماذا تقول، ولكن نظيرة قالت برجاء: «خدنا عالبيت، الله يخلِّيك، الله يخلِّيك، ما بدنا نضل هون».

«هادا طلب صعب، أو بالأصحّ مستحيل، انسوا الموضوع، يا بنات، ما بيصير تربِّيكم أُمّ يهودية، هادا مخالف للشريعة، ممنوع، حرام».

لشعوره بالعجز أمام الفتيات الباكيات، حاول الموظَّف أن يغادر المكان: «طيِّب، يا بنات، أنا رح أترككم هَلَّأ، ومتل ما اتَّفقنا مع أبوكم بتروحوا الصبح عالمدرسة».

«على نفس المدرسة، صح؟».

«أيوه، على نفس المدرسة. أنا خبَّرت مدير المدرسة والمعلمات إنُّه تغيِّرت إِمّكم وعيلتكم وبيتكم. بخاطركم، وأكيد بتعرفوا كيف تيجوا على مكتبي إذا احتجتوني».

بالسؤال عن المدرسة كانت شمس قد بدأت بالتخطيط لتنفيذ ما همس به والدها عبد في أُذُنها عندما أُخذت هي وأُختاها من والدتهنَّ رِفْقَة: «شمس، حبيبتي، الله يخلِّيكِ تبطلي بُكا، وما تصعبيش الأمور على إمِّك وأخوكِ، وأنا بوعدك إني أرجِّعكم قريب، قريب كتير، وإذا اضطرّني الأمر رح أخطفكم من أُمّكم تبعت الأوقاف، أهمّ إشي إنكم تصمِّموا تروحوا على نفس المدرسة، وتتأكّدوا إنكم تمرُّوا من قدَّام دكّان أمين كلّ فترة، وأنا رح أعطي تفاصيل الخطَّة لأسطة بمجرَّد ما أعرف أرتِّب الأمور».

احتفظت شمس بهذا كلِّه لنفسها خشية أن تكشف أُختاها عن خُطَّة الهرب.

وضعت شمس رأسها على كومة الخِرَق التي سدَّت مسدَّ وسادة، غير قادرة على النوم أو حتَّى على إغلاق عينَيْها. استلقت نظيرة ونوال بجانبها، بينما كانت قطّتان وثلاث دجاجات ترقدان في الجانب الآخر. كشريط سينمائي مرَّت أمامها صور من الفصول المريرة التي عاشتْها: طردها وأسرتها من بيتهم في سَلَمِة، تحقيق البقرة اليهودية، ضياع أُمِّها وأخيها، المصير المجهول لأبيها المعتقل، لجوؤهم إلى المسجد، وقوفها في الساحة والبحث عن والدها، الظهور غير المتوقَّع لأُمِّها اليهودية، ثمَّ انتزاعها منها. فكَّرتْ طويلاً بأُمِّها اليهودية وبمريم المسلمة، وبفكرة الحلال الحرام.

وفي ظلمة الليل الحالكة، وظلمة الوضع الذي فرض عليها وعلى أُختَيْها، استعادت شمس الكلمات التي همس بها والدها عبد في أُذُنها.

وفجأة رأت لمعان برق في السماء، وسمعت حفيف ورق، هل هو

حُلْم أم حقيقة؟ سألت نفسها. خارج الجدار المتصدِّع رأت شرائح من الأوراق الملوَّنة لطائرات ورقية ترفرف عالياً، وفي صفاء سماء الصباح الزرقاء ظهرت ملامح صبيٍّ أنيق وأيادٍ ماهرة تصنع طائرات ورقية جميلة من الأوراق الممزَّقة. كانت تلك الأيدي نفسها تلمس يدَيْها بحنان، ممَّا أثار فيها إحساساً خافتاً بالإثارة.

34
خُطَّة الهرب

ليلة طويلة قضتْها شمس دون أن يغمض لها جفن، ومع بزوغ الفجر استعادت وكرَّرت في ذهنها بدقَّة تفاصيل خُطّة الهرب كلّها التي كان قد أرسلها لها والدها عبد قبل أن تشاركها مع نظيرة ونوال: «اسمعوني منيح، خدوا معكم كلّ كتبكم وأغراضكم عالمدرسة، لإنُّه عالأغلب إنه ما نرجع هون اليوم».

«شو قصدك إنُّه يمكن ما نرجع هون اليوم؟».

«اعملي متل ما بقولَّك بالحرف الواحد»، قطعت شمس الكلام على نظيرة، فأطاعتْها أُختاها. ولخشيتها من أن يحدث شيء يُخفِق خُطَّة الهرب، حرصت على ألَّا تكشف إلَّا القليل لنظيرة المُولَعة بالجدل والأسئلة الزائدة، ولنوال التي أفقدتْها الأحداث ثقتها بنفسها وكلّ مَنْ وما حولها، باستثناء أُختها شمس.

رَغْم مرور شهرَيْن على إقامة شمس وأُختَيْها تحت سقف واحد مع مريم، إلَّا أنهنَّ كنَّ يعشنَ في عالمَيْن مختلفَيْن. فبينما انشغلت شمس وأُختاها بشؤون المدرسة، كانت حياة مريم تدور حول حيواناتها التي ملأت المكان. ولأن مريم كانت بالعادة تخرج من البيت مع شروق الشمس، فإن الهرب من البيت لم يتطلَّب التسلُّل أو التحايل. خلال دقائق فقط كانت الفتيات قد جمعنَ أشياءهنَّ القليلة، وغادرنَ البيت، ولكنْ، قبل أن يخرجنَ بلحظات ظهر القطُّ الأسود «بُسبُس» وأخذ يركض

خلف نوال ويموء ويتمسَّح بساقها، فحملتْهُ وعانقتْهُ، وقبَّلتْهُ، ثمَّ وضعتْهُ على الأرض، ولحقت بأُختَيْها.

في الطريق إلى المدرسة، أخرجت شمس من جيبها ورقة مطويَّة، وأخذت تقرأ وتراجع التعليمات الواردة فيها ربَّما للمرَّة العاشرة. كانت على أتمِّ الاستعداد لفعل كلِّ ما بوسعها من أجل أن يلتمَّ شملها مرَّة أخرى بعائلتها، وخصوصاً والدتها رِفْقَة، لذلك فقد حرصت طوال الشهرَيْن الماضيَيْن على المرور من أمام دكَّان أمين، إن لم يكن كلّ يوم، فيوماً بعد يوم. كانت تردِّد دائماً في ذهنها الكلمات التي همس بها عبد في أُذُنها يوم الفراق: «صدّقيني، حبيبتي، أنا بوعدك إني أعمل المستحيل عشان أرجِّعكم، بس أوعي تحكي لَحَدَا، هاد سرّ بيني وبينِك، ما تبوحي فيه لَحَدَا تاني بالعالم».

ولكن تحقيق هذا السرِّ، أو بالأصح الحُلْم، كان يتطلَّب تخطيطاً وتنفيذاً مُحكمَيْن. وحتَّى لا يقع عبد في مشاكل بسبب «خطف» بناته، فقد تطلَّب تنفيذ خُطَّته تنسيقاً دقيقاً مع أسطة وصاحب الدكَّان أمين وشمس طبعاً: «أيّ خطأ أو تأخير رح يسبِّب كارثة إلنا كلنا»، كانت هذه هي الجملة التي ظلَّ عبد يكرِّرها لمساعديه. وهي الجملة ذاتها التي افتتح بها الرسالة التي سلَّمها لأسطة، الذي سلَّمها بدوره لأمين، الذي أعطاها لشمس.

طوال شهرَيْن كان عبد وأسطة وأمين يخطِّطون بصمت. كانوا يراقبون ما يجري، فتوصَّلوا إلى معرفة مَنْ هي الأُمّ المسلمة، عرفوا موقع بيتها، وتحرُّكاتها اليومية في الحقول وفي أنحاء المدينة، وطريق شمس وأُختَيْها إلى المدرسة، وساعة ذهابهنَّ إليها وعودتهنَّ منها. كذلك عرفوا في أيِّ يوم من الأسبوع كانت شمس تذهب إلى مكاتب الأوقاف لتستلم

حصَّتها المتواضعة من الطعام والملابس والمصروف. كان عبد يراقب شمس عن بُعد وهي تدخل إلى دكَّان أمين مُدَّعية أنها ستشتري غرضاً أو غرضَيْن، في حين أنها كانت تنتظر وصول الرسالة والتعليمات الواردة فيها.

«كل اللِّي عليك تعمله إنَّك تخلِّي البنات يستنُّوا في الدكَّان لَحَدّ ما يوصل باص الساعة تنتين ونص، وتأكَّد إنَّك تعطي شمس أجرة الباص، وإنَّك تساعد البنات يركبوا في الباص الصحّ، واحكي لشمس إنها تعدّ خمس محطَّات، وبعدين تنزل من الباص في المحطَّة الكبرى، وأنا بكون أستناهم هناك. الله يوفّقنا جميعاً»، هذا ما قاله عبد لأمين صاحب الدكَّان قبل أن يناوله الرسالة وبعض النقود من أجل أجرة الباص، والأهمّ مُغلَّفاً يحوي المبلغ الذي طلبه أمين مقابل خدماته. كان هذا طبيعياً، لأن تهريب الناس من منطقة إلى أخرى أصبح مصدر الدَّخْل الوحيد للعرب الباقين في المدينة.

عبد ورِفْقَة

لم يرغب عبد في أن يرفع من توقُّعات زوجته رِفْقَة أو أن يمنحها أملاً زائفاً بعودة بناتها، بل عمل جاهداً على أن يحميَها من الصدمات العاطفية التي ما زالت تعاني منها، لذلك لم يُشركها في خُطَّته. ولكنَّ تنفيذ المرحلة الثانية من خُطَّة الهرب كان يتطلّب موافقتها وتعاونها، لذلك فقد استغلَّ وجوده معها وحدهما، وأطلعها على الخُطَّة كاملة: «حتَّى نرجِّع البنات يعيشوا معنا لا بدّ إنُّه نغيِّر البيت، ونرحل من المدينة».

وقع الخبر كالصاعقة على رِفْقَة وهي تحضِّر طعام الغداء. تجمَّدت

في مكانها وهي تحمل الطنجرة، ثمَّ استدارت وسألت: «استنَّى استنَّى استنَّى شوي، خلِّيني أفهم. يعني أفهم من كلامك إنَّك رحت وحكيت مع مدير الأوقاف؟ بفهم من الحكي إنه وافق يرجِّعلنا بناتنا على شرط إنُّه نترك البلد؟».

«لأ لأ، يا رِفْقَة، ما فهمتِ عليّ، ولَّا يمكن أنا ما فسَّرت منيح. صحيح إني التقيت بمدير الأوقاف أكتر من مرَّة، لكنْ، عالفاضي، هوّه مصمِّم إنُّه البنات لازم يتربُّوا مع أُمّ مسلمة. حاولت أتفاهم معه وأقولُّه إنُّه مريم نفسها بدها أُمّ تدير بالها عليها، والأهمّ من هاد وهداك إنهم رموا بناتنا في ساحة خردة، أو بالأصحّ في حظيرة حيوانات، لكنْ، كإني بحكي مع الحيط».

«طيِّب؟».

«عشان هيك أنا قرَّرت إنُّه الطريقة الوحيدة هي إنه نخطف بناتنا، ونروح نعيش في مكان تاني».

«شو قصدك نخطف بناتنا؟ ووين هاد المكان التاني؟»، ظلَّت رِفْقَة تكرِّر السؤال محاولة أن تستوعب التطوُّرات الجديدة التي فاجأها بها عبد في الوقت الذي كانت ما تزال تحاول جاهدة أن تتعافى من صدمة تشتيت عائلتها.

«رِفْقَة، أنا فكَّرت كتير في هاد الموضوع، صدّقيني أنا ما نمت ولا ليلة متل الناس من يوم ما أخدوا بناتنا منَّا».

كانت رِفْقَة تدرك ذلك جيِّداً، لأنها هي ذاتها كانت تقضي الليالي الطوال تتقلَّب في السرير إلى جانب عبد.

«بعرف إنُّه الخُطَّة صعبة، وفيها كتير مخاطرة، لكنْ، واضح إنها الطريقة الوحيدة اللِّي قدَّامنا هي إنُّه ناخد البنات، ونروح نعيش في يافا، لإنُّه طول ما إحنا عايشين في اللِّدّ ما عنَّا أيّ فرصة في استرجاعهم. لكنْ، إذا أخدناهم واختفينا، الأوقاف مش رح يقدروا يلاقونا».

«وشو بدنا نعمل إذا بلَّغوا الشرطة؟».

«أيّ شرطة؟ يعني فكرك ممكن الأوقاف الإسلامية تروح تشكينا للبوليس أو للميليشيا اليهودية؟ وشو بدهم يقولولهم؟ إحنا حرمنا أُمّ من أطفالها لإنها يهودية؟».

برَغْم توجُّسها، بدأت رِفْقَة ترى أن جنون زوجها قد يعيد إليها بناتها: «زَي ما إنت عارف، يا عبد، أنا بعمل أيّ إشي، أيّ إشي، عشان أرجِّع بناتي، ممكن أروح لنهاية العالم، حتَّى عالقمر، عشان خاطرهم».

«أوَّلاً هُمَّه بناتنا مش بس بناتِك إنتِ لحالِك»، قال عبد مازحاً، ثمَّ تابع: «تانياً فِشْ حاجة إنِّك تروحي لنهاية العالم، ولا تطلعي عالقمر، أكيد خمسة وعشرين كيلو للغرب رح تكون كافية. مع إنُّه العيشة معك ومع ولادنا بعيد عن هالجحيم أحسن إشي ممكن الواحد يعمله في هالأيَّام»، قال ذلك بطريقته وحركاته الفكاهية، ثمَّ اقترب من رِفْقَة، وعانقها بحرارة وحنان، فأخذت تبكي بحُرْقَة.

«بتمنَّى نقدر نروح نعيش عالقمر، لإنُّه الحياة في هاي البلاد صارت لا تُحتمَل للناس اللِّي متلنا، وأنا خايفة إنُّه الأسوأ لسَّه جاي. على كلّ حال اِنْسَانَا من القمر هَلَّأ، واحكيلي أنا شو مطلوب منِّي»، كعادتها كانت رِفْقَة متأهِّبة للعمل لاستعادة شمس وأُختَيْها.

«المطلوب منِّك حبيبتي، تروحي على يافا، وتستأجريلنا بيت هناك.

بتمنَّى لو بقدر أوفِّر عليك المشوار والتعب، وأروح أنا عنِّك، لكنْ، متل ما إنت عارفة رح أحتاج تصريحين مشان أوصل، والأهمّ إنه رجل متلي اسمه عبد ما عنده فرصة يقدر يستأجر بيت في يافا هالأيَّام». صمت قليلاً، ثمَّ أضاف: «مسكينة يافا، أكبر مدينة بفلسطين، وشوفي شو صار فيها».

«طيِّب عبد، بَطِّلْ بُكا هَلَّأ، وخبّرني في أيّ حيّ من أحياء يافا لازم نستأجر بيت».

«أكيد ما بدنا نعيش في الغيتو العربي، صح؟».

«ما بعرف، مش شايف إنت إنُّه أحسن نعيش في العجمي مع العرب من إنُّه نعيش بين المهاجرين البلغار الجدد اللِّي ما بنفهم عليهم، ولا بيفهموا علينا».

«بس قريب رح يتعلَّموا عبري».

«قريب؟ قدِّيش قريب يعني؟ وشو بالنسبة إلى محمود والبنات؟».

«مش عارف شو أحكيلك، يا رِفْقَة، عندي شعور إنُّه مش ضايل مكان في هالبلاد إلنا».

«معلش، يا عبد، خلِّينا هَلَّأ ننسى اللِّي صار ليافا، ونركِّز شوي على البنات، أنا رح أروح هناك، وأشوف شو الوضع، بس شو بالنسبة إلى شغلَك؟».

«آه، هاد أهمّ وأحلى خبر كنت مخبِّيلِك ياه، أجتْني موافقة على النقل للمدرسة العامريّة في يافا».

«عن جَد؟ صحيح؟ هاد خبر عظيم. معناتُه رح أروح، بس اوعدني تدير بالَك على ابني محمود، وتطعميه لمَّا يرجع من المدرسة».

«بوعدك إني أطعمي ابنك جزر عالفطور، وجزر عالغدا، وجزر عالعشا، ولمَّا ترجعي بتلاقيه صار أرنب مربرب، لإنُّه هاي البلد بدها رجال أرانب مش رجال أشاوس». في هذه اللحظة انتبه عبد إلى أن أيّاً منهما لم يلمس طعامه بعد: «تعالي نتغدَّا قبل ما تروحي».

«لازم أروح فوراً»، قالت رِفْقَة بانفعال وهي تجلس لتتناول طعامها.

«استنِّي حبيبتي، ليش تروحي اليوم، معنا وقت، ممكن تروحي على يافا بُكرا الصبح بَكِّير».

«لازم أروح وأستطلع وضع البيوت اليوم». كان الفعل أسرع من الكلام، هكذا كانت رِفْقَة دائماً. تركت المائدة، ووضعت طبقها في الحوض، ثمَّ أسرعت باتِّجاه غرفة النوم، وخلال دقائق كانت تقف عند المدخل وفي يدها حقيبة صغيرة.

«بخاطرك عبد، رح أخبرك بمجرَّد ما أعرف شو الوضع»، قالت قبل أن تأخذ طريقها باتِّجاه بيت يام، المدينة اليهودية الواقعة جنوب يافا، حيث تعيش أُمُّها وأُختها.

«دِيْري بالِك على حالك، حبيبتي، واوعديني إنِّك ما تخاطري»، قال عبد بصوت مرتعش، لأنه كان يعرف أن الطريق بين اللِّدّ وبيت يام كانت خطرة. اقترب منها، وعانقها بحرارة، ثمَّ وقف على جانب الطريق يراقبها بينما كانت تبتعد وتختفي في الطريق المغطَّى بأشجار الكينا على الجانبَيْن.

عودة إلى شمس

بقلب مرتعش، أمسكت شمس يدَي نظيرة ونوال وهنَّ يغادرنَ ساحة المدرسة. بدا لها مشوار العشر دقائق بين المدرسة ودكَّان أمين كأنه المسيرة الأطول في التاريخ. كانت كلّ خطوة خطتْها على هذا الطريق تملأ عروقها بالمزيد والمزيد من الأدرينالين.

«مشان الله نظيرة بطلي حكي، وركزي معي شوي»، صاحت شمس على أُختها، وهو أمر لم تكن تفعله مع أُختَيْها أبداً.

«أنا ما حكيت ولا كلمة، كلّ اللّي قلتُه إني رح أموت إذا خطّتك بتفشل».

«هاي جملة كاملة مش بس كلمة»، أجابت شمس غاضبة.

ركَّزت عينَيْها على الطريق خشية أن ترى شخصاً يعرفها. وباقترابهنَّ من دكَّان أمين، أعطت أُختَيْها التعليمات النهائية:

«لمَّا ندخل عالدكَّان ما توقفوا متل الأصنام أو زَيّ بنات المدرسة المعاقبين في الزاوية، ضلُّوا تحرَّكوا وكأنكم بدكم تشتروا إشي، صاحب الدكَّان بيعرف ليش إحنا هون، ورح يساعدنا نركب الباص. ما بدنا حَدَا ينتبه إنُّه إحنا عم نستنَّى الباص، فهمتوا؟»، ثمَّ تلفَّتت حولها بحذر وهي تدخل مع أُختَيْها إلى دكَّان أمين المتواضع. تجاهل أمين، الذي كان يجلس خلف طاولة خشبية قديمة، وجود الفتيات الثلاث. ومع أنها كانت تعرف أنه يتصرَّف حسب الخُطَّة، إلَّا أنها خشيت أن يكون شارد الذهن، ولا ينتبه عند وصول الباص. وبينما كانت نظيرة ونوال تتجوَّلان في الدكَّان، وتنظران إلى الأغراض القليلة الموجودة على الرفوف، كانت شمس تتساءل إن كان ما تعيشه حقيقة أم حُلْماً. بدا لها أن عودتها إلى

أُمِّها رِفْقَة أقرب إلى الحُلْم منها إلى الحقيقة. كان أكثر ما أَقْلَقَهَا وأَشْعَرَهَا بالذنب أنها كانت تفكِّر بأُمِّ محمود أكثر ممَّا كانت تفكِّر بأُمِّها المفقودة عائشة. هل يئست حقَّاً من العثور على عائلتها أم أنها كانت تنتظرهم أن يعثروا عليها؟ لم تعرف شمس لماذا شرد ذهنها في الوقت الذي كان عليها فيه أن تركِّز على ما كان يهمس به في أُذُنها صاحب الدكَّان: «جهزوا حالكم، الباص رح يوصل بعد دقايق. رح يُوقف هناك بالضبط»، كان يشير من مكانه داخل الدكَّان باتِّجاه موقف الباص، «هاي الأجرة، بتدفعوا للشوفير أوَّل ما تركبوا. في الباص رح تلقوا أسطة، اعملوا حالكم مش شايفينه».

«أسطة؟ عن جَد؟»، تساءلت نظيرة بانفعال.

«صحيح، جاركم أسطة رح يكون في الباص، اعملوا حالكم مش شايفينه، يعني تجاهلوه، وما تحكوا معه. ما تقعدوا قدَّامه، بتقعدوا وراه بصفّ أو صفّين عشان تضلّوا شايفينه. عدُّوا خمس محطَّات، وهناك رح تشوفوه بينزل من الباص، بتلحقوه، وإلَّا بتضيعوا». لم يدرك صاحب الدكَّان تأثير كلماته عن الضياع على القلوب الصغيرة الخافقة أمامه.

«الباص إجا، يَلَّا، اطلعوا فوراً»، قال أمين وهو يعود إلى داخل دكَّانه بعد أن أخرج شمس وأُختَيْها. ومثل إوزَّتَيْن صغيرتَيْن تبعت نظيرة ونوال أُختهما شمس إلى موقف الباص، ثمَّ صَعِدَتَا إليه معها. لم تستطع شمس ولا أُختاها أن يمنعنَ أنفسهنَّ من الابتسام حين لمحنَ أسطة جالساً على مَقْعَد إلى جانب الممرِّ في الصفِّ الثاني.

ورَغْم أن أسطة رسم على وجهه تكشيرة، إلَّا أن عينَيْه لمعتا وخفق قلبه سعادة حين رآهنَّ في الباص: «يا إلهي، والله اشتقتلهم»، كان يفكِّر بينه

وبين نفسه. حاول أن يتجاهل وجودهنَّ، لأن الظروف قد علَّمتْهُ أن الأمور قد تسوء في اللحظة الأخيرة. وبينما سيطر على قلقه كانت الفتيات قد تجاوزنَهُ، وجلسنَ خلفه بثلاثة صفوف. كانت عيونهنَّ مثبَّتة على رأسه المنبسط، فيما بدأت شمس في العَدِّ: «خمس محطَّات، بعديها استعدُّوا عشان ننزل في المحطَّة الكبرى». ومثل محطَّات المسيح في طريق الآلام، كانت كلُّ محطَّة تزيد من قلق شمس ومن خفقان قلبها: «شو ممكن يصير إذا حَدَا بَلَّغْ مدير الأوقاف إنُّه التلات بنات مفقودات؟ أو إذا حَدَا من الموظَّفين طلع عالباص في وحدة من المحطَّات؟»، كانت الهلوسات رفيقة شمس خلال رحلة الباص التي استمرَّت عشرين دقيقة.

لم تستطع شمس أن تمنع دموعها من التدفُّق عندما لمحت عبد من نافذة مَقْعَدها. لحقت البنات أسطة حين نزل من الباص، ومثل السهام انطلقنَ عبر الشارع لِلِقاء عبد الذي كان يقف إلى جانب سيَّارة بلايموث سوداء، وتعلَّقنَ به مثل ثلاثة قرود على أغصان شجرة. عانقهنَّ واحدة بعد الأخرى والدموع تنهمر سخيَّة من عينَيْه، ثمَّ رجاهنَّ أن يجلسنَ في المَقْعَد الخلفي في السيَّارة التي كان قد استأجرها لهذه المهمَّة.

ورَغْم أنه كان قد قال بوضوح إنه سيكون وحده بانتظارهنَّ في المحطَّة، إلَّا أن أوَّل سؤال وجَّهنَهُ له كان: «وين إِمِّي؟».

«رِفْقَة عم تستناكم في بيتنا الجديد في يافا».

لاحظت شمس أن هذه هي المرَّة الأولى التي يدعو فيها عبد زوجته باسمها اليهودي، وتساءلت إن كانت هذه طريقته غير المباشرة لإبلاغ السائق اليهودي الذي كان قد دفع له لتهريبهم إلى يافا أن أُمَّهنَّ كانت يهودية.

35

صبحي
البحث عن ماضٍ وعن مستقبل

تسارعت الأحداث منذ أن ضرب صبحي العميل فوَّاز، وتركه معلَّقاً بين الحياة والموت. عاد إلى البيت مُنهكاً، حاملاً بين يدَيْه المرتعشتَيْن المِزَق المتبقِّية من بدلته الإنكليزية. فكَّر بشمس، وكلَّمها بصوت عالٍ: «حبيبتي شمس، يا ترى رح أشوفك مرَّة تانية في حياتي، ولَّا، أعتبر إنُّه ضياع البدلة فال عاطل؟».

تأمَّل مِزَق البدلة، ثمَّ وضعها بحرص على سريره المنفرد. سقط على السرير بجسده المُثقَل بالتعب، واستلقى على ظهره، وراح يحدِّق في السقف، ثمَّ أغلق عينَيْه.

غمره الخوف من كلِّ شيء وعلى كلِّ شيء، الخوف على حياته، والخوف من انتقام فوَّاز، والخوف من أن يظهر رجال بوليس القِشلة مرَّة أخرى على بابه، ويسحبوه من سريره، ويُلقوا به في السجن لاعتدائه على أحد رجالهم. لم يستطع أن يتخيَّل نفسه واقفاً من جديد أمام الكابتن عوباديا مدافعاً عمَّا تبقَّى من بدلته. كان قد وصل إلى الشعور باليأس المطلق من كسب أيٍّ قضية أمام هذه المحاكم الزائفة، والأهمّ اليأس من العثور على شمس، لذا شعر بحاجة ملحَّة لأن يغادر سريره وغرفته الصغيرة، ويخرج من هذا البيت المزدحم، من هذا الحيِّ المسحوق، وهذه المدينة المهزومة. تملَّكتْهُ الرغبة في تحرير نفسه من سلسلة الحصارات التي بدت مثل الدمية الروسية «ماتريوشكا» بسجونها

المختلفة الأحجام. تملَّكتْهُ الرغبة في الصعود على ظهر إحدى السفن الضخمة التي كان يراها يومياً في الميناء، حيث كان يبدِّد حياته في انتظار زبون نادر. سأل نفسه عن جدوى التظاهر بأنه يمتلك حياة أو عملاً في الميناء، بينما كان كلُّ ما يفعله هو وبقيَّة الرجال أن يشربوا حتَّى الثُّمَالَة أرخص أنواع العَرَق، وأن ينتشوا بأسوأ أنواع الحشيش. لم يستطع ذهنه المشوَّش أن يعيَ إن كانت هذه الرغبة العارمة في الصعود إلى واحدة من تلك السفن الضخمة من أجل البحث عن ماضٍ أم عن مستقبل.

لولا حظر التجوُّل المفروض على الغيتو العربي حتَّى السادسة صباحاً، لكان صبحي الآن على سطح سفينة، يُحدِّق في البحر الواسع الواعد بآفاق جديدة. ولكنْ، كيف يخرج المرء من هذا الوضع الخانق وهو يحتاج إلى تصريح لمغادرة الغيتو، وتصريح آخر لمغادرة مدينة أُعلنَت منطقة عسكرية مغلقة؟ مع ذلك، ففي أرض العصابات هذه لم تكن الحدود مُحكَمَة الإغلاق، فقد كان يحكمها المهرِّبون، وكان تهريب البشر ما يزال ممكناً، وحتَّى الفلَّاحين الذين كانوا قد طُردوا من قراهم كانوا ما يزالون قادرين على التسلُّل، ليعملوا في أرضهم، ويحصدوا محاصيل حقولهم.

أعاقت خطط صبحي للصعود على السفينة العديد من الأحداث التي وقعت في ذلك الشهر: لقد أُطلق سراح عمِّه حبيب من السجن، وتمَّ تهريب والدته وشقيقتَيْه من نابلس إلى بيَّارَتهم الواقعة في شرق يافا، حيث كان يقيم والده وأخوه الأصغر أمير، في محاولة لمنع سلطة أراضي إسرائيل من مصادرة البيَّارَة، وهي محاولة تبيَّن لاحقاً أنها غير مجدية.

رَغْم أن القرار كان صعباً، إلَّا أن صبحي لم يستطع أن يمنع نفسه من

القبول فوراً بعرض عمِّه حبيب بأن يرافقه للعمل لدى مقاول يهودي في طبريا. مستفيداً من علاقاته القديمة والجديدة، استطاع حبيب، بوسائله الملتوية، أن يحصل لنفسه ولابن أخيه المفضَّل على التصاريح اللازمة لمغادرة يافا، والذهاب للعمل في طبريا.

«حبيب عمره ما رح يبطِّل عَوَج»، اعترض إسماعيل عندما جاءه صبحي في البَيَّارَة، ليخبره ووالدته عن نِيَّته في مرافقة عمِّه. كان العثور على عمل مع مقاول يهودي فرصة ذهبية شبيهة بفرصة العمل في تجارة البرتقال في يافا قبل 1948. وفَّرت عودة حبيب لصبحي الدعم النفسي والمادِّي اللذَيْن احتاجهما لمواجهة تداعيات ضربه للعميل، ولكن عودة والدته صعَّبت عليه المغادرة، خصوصاً وأنها لم تكن قد عرفت بعد عن وفاة ابنها الأكبر جمال.

«وين الأولاد؟»، سألت خديجة، والدة صبحي، بمجرَّد أن عانقت زوجها بقوَّة، ثمَّ احتضنت ابنها أمير، وبدأت بالبكاء.

«جمال وحبيب أخدوهم أسرى حرب، وصبحي لقي شغل في المينا، وهَلَّأ ساكن في العجمي».

«جمال في السجن؟ وين؟ ومن إيمتى؟»، انهالت خديجة على إسماعيل بسلسلة من الأسئلة المتلاحقة، كان قد جهَّز الإجابات عنها مُسبَّقاً.

«خديجة حبيبتي، أكيد إنت والبنات ميتات من الجوع والتعب من رحلة يومين على الحمير، خدي اشربي»، ناول إسماعيل زوجته وابنتَيه كؤوساً من الشاي بالنعناع الطازج، ثمَّ أضاف: «يَلَّا حبيبتي خديجة، كلي لقمة وبنحكي عن كلّ إشي بُكرا». كان إسماعيل يحاول أن يؤخِّر

قَدْر الإمكان إبلاغ خديجة بوفاة ابنهما الأكبر جمال، ولكنها استمرَّت في السؤال: «أنا مش فاهمة، إنت قلت إنه صبحي ساكن في العجمي؟ ليش في العجمي؟».

«حبيبتي طولي بالك، رح نحكي في كل إشي بُكرا»، ثمَّ اقترب منها، وعانقها بلطف، جعلها تنفجر بالدموع، «عجبتِك قلَّاية البندورة؟ أمير قعد يشتغل فيها طول النهار عشان نحتفل بجَمْعتنا. تعالوا يا بنات اقعدوا جنبي، أنا مشتاقلكم كتير».

«جَمْعتنا؟»، هزَّت خديجة رأسها، وتنهَّدت، «أي جَمْعَة هاي، إذا ولد في السجن، والتاني عايش لحاله في غرفة في العجمي، وأبوك وإِمَّك ووحدة من بناتنا وولادها ضلُّوا في نابلس؟».

«ما تقلقي حبيبتي، أكيد رح نلاقي طريقة نجيبهم كلهم لمَّا ندبِّر شويَّة مصاري عشان ندفع أجرة نقلهم لهون»، فضَّل إسماعيل أن يتحدَّث عن والدَيْه المتروكَيْن في نابلس على أن يخبر زوجته بوفاة ابنها الأكبر جمال.

لم ينم أحد في تلك الليلة، كانوا جميعاً يخشون الصباح المليء بأخبار حزينة.

«يا ربِّي، لأ، لأ، لأ، كيف؟ ليش؟»، ظلَّت خديجة تصيح، ثمَّ انهارت على الأرض.

كان الصمت والدموع كلّ ما تبادلتْهُ الأسرة في ذلك اليوم.

«بس اشرحولي كيف، كيف ما بعتلِّي خبر موت ابني؟»، ظلَّت خديجة تعاتب زوجها، وكان أكثر ما أَحْزَنَهَا أنها ظلَّت لمدَّة طويلة تجهل مصير ابنها الأكبر.

«والله العظيم إني حاولت المستحيل عشان أقدر أبعتلك، صدّقيني، يا حبيبتي، الأمور ما كانت سهلة هون، أنا نفسي ما كنت أعرف إنه جمال راح قبل ما أروح أشوف صبحي في بيت إِمِّك».

كلَّما حاول إسماعيل أن يوضِّح شيئاً لزوجته كان يكشف دون قصد عن مأساة جديدة. في هذه الحالة كشف عن موت أُمِّ زوجته فريدة، وخسارة بيت العائلة في البلدة القديمة.

لم يكن لدى والد مكسور القلب كلمات لتخفيف ألم أُمٍّ فقدت ابنها.

«وإِمِّي، وبيتها، و، و...».

«أيوه، حبيبتي، و، و، و...، هيك الوضع من يوم ما تركنا بيتنا في المنشيّة».

«بس أنا ما قلتلَّك إنهم صغار، وما بيصير ينتركوا لحالهم في البيت؟ ما قلت إنُّه ولا واحد فيهم بعرف يستعمل بارودة؟»، ثمَّ انهارت باكية من جديد.

«صحيح، يا حبيبتي، والله إنِّك قلتِ ونبَّهتِ، بس مين كان يصدِّق كلّ الكوابيس اللِّي صابتنا وصابت مدينتنا!».

كلُّ ما استطاع إسماعيل فعله هو محاولة امتصاص غضب زوجته وحزنها.

لكونها لم تعش التغيُّرات الدرامية التي حدثت في مدينتها، احتاجت خديجة إلى الكثير من الوقت لتستوعب وتحزن وتتعايش مع ما حدث لأسرتها ولحَيِّها خلال الأشهر الثمانية عشر التي قضتْها عند أقاربها في نابلس. كانت ما تزال تندب خساراتها، وتحاول أن تتقبَّل اقتلاع أسرتها

وتشتُّتها، وفوق هذا كلِّه كان عليها أن تتقبَّل الآن فكرة ذهاب صبحي مع عمِّه حبيب إلى طبريا.

نظراً لتعدُّد أشكال الحرمان واليأس والفقر، لم يكن أيُّ عربي في وضع يمكِّنه من رفض فرصة عمل مهما كانت، ولهذا لم يتمكَّن أحد من إقناع صبحي بتغيير رأيه، ولا حتَّى والدته.

كانت خديجة تُعاني من صعوبة التنقُّل للعيش بين البَيَّارَة وغرفة صبحي في العجمي، لذا، أصرَّ صبحي على أن تنتقل هي وأُختاه للعيش في غرفته الصغيرة قبل أن يغادر مع عمِّه حبيب، إذ أدرك، كالكثيرين من حوله، بأنها كانت مسألة وقت قبل أن تقرِّر سلطة أراضي إسرائيل مصادرة الأراضي العربية شرقي يافا جميعها، وطَرْد أصحابها من بَيَّارَاتهم، وكذلك لأنه كان يعرف في قرارة نفسه أنه سيدير ظهره لهذا المكان المدمَّر والمدمِّر، ولا يعود إليه أبداً.

لم يكن واضحاً مَنْ ذرف كمَّاً أكبر من الدموع، صبحي أم والدته التي كانت تقف مع بقيَّة أفراد العائلة على بوَّابة البَيَّارَة وتراقبه وهو يختفي في ضباب صباح مبكِّر من صباحات كانون الأوَّل.

36

طَرْقَات خجولة على الباب

(يافا 1950)

لم تكن الطَّرْقَات المتتالية على بوَّابة البَيَّارَة تعني إلَّا شيئاً واحداً: وقوع مصيبة ما.

«مين اللِّي جايينا على هالمسا؟»، تساءل إسماعيل، والد صبحي.

لم يكن الوقت متأخِّراً، نظر إلى ساعته، كانت 6:45، ما يعني أنه خلال ربع ساعة سيحين موعد منع التجوُّل، وتصبح الشوارع خاوية، ولن يجرؤ عربي على المغامرة بالخروج من بيته. الطَّرْقَات الخفيفة على الباب (والتي لا تشبه أبداً طَرْقَات قوَّات الهاغاناه) جعلت إسماعيل يعتقد أن الذي بالباب قد يكون أحد جيرانهم، إذ كثيراً ما كان الجيران القليلون الذين ما زالوا يعيشون في بَيَّارَاتهم يطلبون مساعدة بعضهم، ويتبادلون بعض الأشياء، مثل رغيف خبز أو حَفْنَة من الشاي أو القهوة أو كأساً من الحليب لطفل جائع.

كان إسماعيل في خوف دائم من العقوبة، لأنه كان متورِّطاً في تهريب الناس من وإلى يافا، ولكنْ، ماذا تبقَّى أمامه وأمام غيره لتحصيل قُوْتِهم في هذه الظروف غير ذلك؟ بتوجُّس أشار بيده إلى زوجته وبناته لكي يختبئنَ في الغرفة الخلفية، وذهب ليفتح الباب متوقِّعاً الأسوأ.

وجد أمامه رجلاً طويل القامة قويَّ البنية في مثل عُمُره تقريباً، رجلاً يبدو مُسنَّاً رَغْم أنه بالكاد في الأربعين. كانت تكسو وجهه لحية شعثاء، وقد غطَّى رأسه وجزءاً من وجهه: «بسرعة، افتح الباب، هاد أنا، خليل».

«يا إلهي! كنت عارف إنه هاد إنت لمَّا سمعت صوتك وشفت لمعة عينيك، بسرعة بسرعة، فُوت فُوت»، همس إسماعيل وهو يفتح البوَّابة فقط بما يتَّسع لجسد خليل النحيل، ونظر حوله ليتأكَّد من أن أحداً من الجيران لم يرَ أنه يُخبِّئ عنده متسلِّلاً، ثمَّ أغلق الباب. وقف الرجلان لبضع ثوانٍ قبل أن يتبادلا النظرات، ويتعانقا بشدَّة، ويبكيا.

«يا إلهي، يا خليل، شو اللِّي صاير فيك، يا رجل؟ شوف حالتك صاير متل الهيكل العظمي! شو اللِّي صار معك؟»

«السؤال مش شو اللِّي صار معي، السؤال شو اللِّي ما صار معي من لمَّا شفتك آخر مرَّة».

الكثير حدث لخليل منذ التحقيق في مصير البقرة اليهودية، فبعد أن أُطلق سراحه وطُرد إلى الأردن، لم يترك حجراً على حجر وهو يبحث عن أفراد عائلته. ذهب إلى كلِّ مكان تحت الشمس يسأل عن زوجته عايشة وابنه محمَّد وبناته الثلاث، ولكنْ، دون جدوى. بحث في كلِّ مكان لجأ إليه أهالي سَلَمِة، من قرية نعلين إلى قرية بيرزيت، ومن بيرزيت مشى إلى رام الله، وعندما أخفقت محاولاته جميعها ذهب إلى غَزَّة التي كانت قد تحوَّلت إلى أكبر مخيَّم للاجئين في المنطقة. وبعد أن أخفق في العثور عليهم في بحر اللاجئين قطع الطريق كلَّه إلى العريش على حدود مصر، وبعدها، عندما أخفقت محاولاته جميعها، قرَّر أن يتسلَّل عائداً إلى المربَّع الأوَّل، يافا.

«إسماعيل، أنا قصدتك لإنُّه افتكرت إنه ممكن تكون شفت أو سمعت إشي عن بناتي التلاتة، بتعرف إشي عنهم؟ أجوا عندك؟ شفتهم؟ عندك أيّ فكرة وين ممكن يكونوا؟».

سبَّب سؤال خليل المتدفِّق بأشكال مختلفة التوتُّر لإسماعيل، وجعله يفكِّر بينه وبين نفسه: «ليش بدهم ييجوا عندي مع إنُّه ما بتذكَّر إنه عمرهم أجوا عالبَيَّارَة؟ وليش بناته بدهم يطلبوا مساعدتي في يافا مع إنُّه كل أهل سَلَمِة لجؤوا لِلِّدّ والرملة والأردن؟»، لكنه طبعاً لم يفصح عمَّا يدور في خاطره للأب اليائس والصديق القديم.

«أنا متأسف، يا خليل، بناتك ما أجوش عندي، ولا شفتهم، ولا سمعت أيّ إشي عنهم».

«أنا رح أنجن، يا إسماعيل، أنا فقدت كلّ عيلتي».

«شو قصدك فقدت كلّ عيلتك؟ كمان مرتك وابنك؟»، وفي تلك اللحظة، فكَّر إسماعيل بخسارته لابنه جمال.

«بعيد الشر، أنا مش قصدي فقدتهم يعني فقدتهم، أنا قصدي إني ما بعرف وين هُمَّه».

«وكيف، يا رجل، صار هيك؟».

«أوَّل مرَّة اعتقلوني أنا وشبِّين عشان دبحنا بقرة يهودية».

«بقرة يهودية؟ أكيد بتمزح».

«والله العظيم إني بحكي جَد، وبعد ما أطلقوا سراحي ورجعت لقيت مرتي وأولادي بستنُّوني تحت الشجر، أجت الميليشيات اليهودية وطحتنا، وقتها ضاعت عايشة وابني محمَّد. ولمَّا رجعت أنا والبنات نستنَّاهم تحت الشجر أجوا علينا الميليشيات، واعتقلوني مرَّة تانية، بس هالمرَّة رموني في السجن خمسطعشر شهر، وبعدها طَرُّوني من البلاد، وهيك افترقت عن شمس ونظيرة ونوال، وفقدتهم هُمَّه كمان». صمت

خليل قليلاً، ثمَّ تابع: «وهَلَّأ بمساعدة تنين من اللِّدّ قدرت أتسلَّل من نعلين لِلِّدّ، لإنُّه في ناس قالولي إنُّه رح ألاقي بناتي هناك. خبُّوني في سدّة بيت مهجور، وراحوا داروا في كلّ اللِّدّ يسألوا عن البنات، وبعد تلات أيَّام رجعولي بشويَّة أكل وقصص غريبة، كلّ قصَّة أغرب من التانية، يا إسماعيل»، صمت قليلاً، ثمَّ أخذ نَفَساً عميقاً، وأضاف: «قالولي إنه مَرَة يهودية وجوزها المصري خطفوا بناتي».

«يا رجل، شو مالك؟ قبل شوي بتقولِّي بقرة يهودية، وهَلَّأ بتقولِّي مَرَة يهودية، إيش مالك، إنت فقدت عقلك؟»، قال إسماعيل، ثمَّ حدَّق في ملامح صديقه وعينَيْه المحمرَّتَيْن، وقال لنفسه: «مسكين خليل، والله العظيم كنت رح أفقد عقلي وأصير أهلوس أنا كمان لو خسرت كلّ عيلتي متله».

محاولاً أن يعوِّض صديقه عن اتِّهامه له بالجنون، قال له: «أنا بعرف إنُّه كلّ شي حوالينا صار يهودي، مدنَّا وبيوتنا ومحلَّاتنا ومستشفياتنا وبلدنا كلّها، بس ما عرفت إنه البقرة الهولندية برضو صارت يهودية».

لإعطاء صديقه قليلاً من الراحة، توقَّف إسماعيل قليلاً عن الحديث، ثمَّ قال: «خلِّيني أنادي خديجة والبنات حتَّى نشوف إذا رح يتعرَّفوا عليك. على كلّ حال، اقعد ارتاح، أكيد إنت ميِّت من الجوع، خلِّيني أجيبلك إشي تاكله».

«كلّ اللِّي بدِّي ياه كاسة مَي كبيرة، ما بدي إشي تاني».

«ماشي، رح أجيبلك مَي كمان».

بعد تناول طعام العشاء مع بقيَّة العائلة، أخذ الرجلان إبريق شاي بالنعناع الأخضر وكأسَيْن، وخرجا للجلوس في العَتَمَة تحت أشجار البرتقال.

«يا إلهي، شو اشتقت لهالشجرات»، قال خليل وهو يجلس مستنداً إلى جذع شجرة برتقال. ساد الصمت قليلاً قبل أن يقول إسماعيل: «إنت قلت رِجَّال مصري ومَرَة يهودية؟».

تسلَّل الأمل إلى قلب خليل، فسأل: «إنت سمعت عن هيك تنين؟».

«لأ لأ، عمري ما سمعت عنهم، مع إنُّه في الماضي، في الأيَّام اللِّي راحت، كان في كتير زيجات مختلطة في يافا، متل زيجة الخواجا أندراوس، بس عمري ما سمعت عن هدول التنين. وكيف بدِّي أعرف عنهم إذا كانوا بعيشوا في اللِّدّ قبل ما يخطفوا بناتك؟ تزعلش منِّي، يا خليل، بس أنا مش فاهم قصَّة الخطف اللِّي بتقول عنها، ليش يخطفوا بناتك؟».

«وأنا متلك استغربت، وما صدَّقتش القصَّة في الأوَّل، بس بعدين عرفت إنهم تبنُّوهم».

«آه، تبنُّوهم؟ طيِّب، يا خليل، ليش ما قلت هيك من أوَّل، هاد إشي مختلف، يا رجل، عن الخطف. طبعاً يا صاحبي في ناس كتير تبنّوا أطفال أو أخدوهم على بيوتهم لحدّ ما ييجوا أهلهم يسألوا عنهم. هَلَّأ صار لكلامك معنى، وحياة الله إني في الأوَّل فكَّرتك انجنِّيت».

«بس أنا فعلاً انجنِّيت».

تجاهل إسماعيل تعليق خليل، ثمَّ أضاف: «مع إنُّه فيه في يافا هَلَّأ فلَّاحين أكتر من اليافاويَّة، إلَّا إنُّه خديجة والبنات اللِّي بيقضوا وقتهم في غرفة صبحي في العجمي صاروا يعرفوا أكتر الناس هناك. المشكلة إنه لازم خديجة تزور كلّ العائلات اللِّي عندهم بنات بأسماء بناتك.

المدارس هَلَّأ مسكرة، بس بوعدك أوَّل ما ترجع تفتح رح أروح بنفسي وأسأل عن بناتك. أنا بس خايف إني ما أقدر أتعرَّف على شمس إذا بشوفها».

«وأنا خايف إنُّه أنا نفسي ما أعرفها إذا شفتْها. صارلي قريب تلت سنين ما شفتها، وزي ما انت عارف البنات بتغيَّروا بسرعة بهاد العمر».

«بس إنت متأكِّد إنه هدول الزوجين أجوا يسكنوا في يافا؟ أنا شخصيّاً بشك في الموضوع، عالأقل مش رح يكونوا في الغيتو العربي».

صمت خليل قليلاً، ثمَّ قال: «بتعرف، يا إسماعيل، أكبر هاجس عندي إنُّه بناتي يكونوا عايشات في بلدة يهودية أو حيّ يهودي، أو مع عيلة يهودية، بهالحالة أكيد مش رح يخلُّوهم يحافظوا على أسماءهم العربية. الله أعلم، يمكن صارت أسماؤهم روث ودفنة وشلوميت!».

«أنا شايف إنُّه أفكارك صارت أسود من هالليل. يَلَّا الوقت تأخَّر»، نظر إسماعيل إلى ساعته،ليجد أنها قاربت الواحدة بعد منتصف الليل، «خلِّينا نروح ننام، بعدين بنشوف شو بدنا نعمل، وإن شا الله، متل ما بيقولوا، الصباح رباح».

37
جيران جُدُد
(يافا 1951)

«خديجة، إِلك عندي خبر بيطيِّر العقل».

«صحيح؟ مِن تمُّك لباب السما، يا رب، والله والله، يا هنرييت، ما سمعت خبر بيشرح القلب من سنين»، قالت أُمّ صبحي.

«مش لقيتلك عروس زيِّ القمر؟».

«عروس إِلي؟»، أجابت أُمُّ صبحي ضاحكة، ثمَّ قالت:»صدّقيني،يا هنرييت، الصُّبحية وفنجان هالقهوة معك بيسووا الدنيا عندي، ومش بس هيك، رفقتك بتخفِّف الهمّ عن القلب».

«أي، يا الله، يا جارة، إنت فاهمة قصدي. لقيتلك عروس حلوة ونغشة لابنك أمير»، قالت هنرييت لجارتها المقرَّبة خديجة.

باستثناء خديجة، لم تكن هنرييت تحبُّ أو تختلط مع أيٍّ من جيرانها الذين حمَّلتْهم مسؤولية تدنيِّ مستوى حيِّ العجمي. كانت تستلطف خديجة دون غيرها، رَغْم أنها من طبقة اجتماعية أدنى وحيّ أقل شأناً. خلال العامَيْن السابقَيْن، أي منذ جاءت خديجة وابنتاها ليُقمنَ في غرفة صبحي في العجمي، رحَّبت هنرييت، التي أحزنها غياب الميكانيكي الشاطر صبحي، بأُمِّه وأُختَيْه بحرارة. بعد أن فقدت أفراد أسرتها جميعهم، ومعظم جيرانها، وجدت في خديجة الرفقة المسلِّية لقهوة الصباح، أو ما يُسمَّى الصُّبحية. كان الشعور متبادلاً، فخديجة أيضاً كانت في مساس

الحاجة لقضاء بعض الوقت بعيداً عن بيتها المزدحم بالعائلات الثلاث التي تُشاركها المنزل الصغير، والأهمُّ من هذا وذاك أن شخصية هنرييت المرحة العابثة كانت كثيراً ما تُضحكها، وهو أمر أصبح نادراً في هذا الزمن الأسود.

كلّ صباح كانت الجارتان تجلسان على شرفة هنرييت لساعة أو ساعتَيْن، متقابلتَيْن أحياناً، ومتجاورتَيْن أحياناً أخرى. كانتا تُتبعان فنجان قهوتهنَّ الأوَّل بفنجان ثانٍ أو ثالث، وتتبادلان الحديث وهما تراقبان الجيران الذين يدورون حول أنفسهم كالتائهين، أو يذهبون ويجيئون بلا هدف. ورَغْم أنهما تنتميان إلى طبقتَيْن مختلفتَيْن (إن كان هذا التصنيف ما يزال قائماً)، إلّا أن موقفهما من الفلّاحين قد قرَّبهما من بعضهما.

«أسوأ إشي حصل إلنا ولمدينتنا هوّه وصول حثالة الناس من القرى اللِّي حوالينا. كنت أفكِّر إنه أوطى ناس هُمَّه الحوارنة، لكنْ، طلع إنُّه الفلَّاحين أسوأ بكتير»، كانت هنرييت كثيراً ما تشتكي لخديجة التي كانت أكثر منها تعاطفاً مع الفلَّاحين، ربَّما تقديراً لعائلات الفلَّاحين الطيِّبة والمُحبِّة التي كانت تشاركها البيت، أو ربَّما بسبب العديد من الفلَّاحين المخلصين الذين طالما عملوا مع زوجها في بَيَّارَتهم.

«شو هالحكي الفاضي، يا هنرييت؟ هاي مش غلطة الفلَّاحين المساكين، الحقيقة المرَّة هي إنُّه كلنا تسخمطنا».

«بس أنا لحَدّ هَلَّأ ما حَدَا سخمطني»، قالت هنرييت، ورقعت ضحكة عالية.

«ولك إيش هالزعرنة، يا هنرييت؟ بس الشي اللِّي أنا مش فاهمته كيف مع كلّ هالجمال وهالغنى ما لقيتيلكيش رجال يسخمطك؟».

«للأسف كلّ الرجال المسيحيِّينْ الأغنيا والمتعلّمين هاجروا، ومتل ما إنت شايفة ما ضلّ إلّا الناس الهردبشت، بدّك ياني أتجوَّز واحد من هدول؟»، قالت هنرييت وهي ترفع يدها مشيرة بإصبعها إلى رجل رَثٍّ أحدب كان يمرُّ من تحت شرفتها، «بس ما تخافي عليّ، أنا مدبّرة حالي لحالي»، ثمَّ أطلقت المزيد من القهقهات وهي تقول: «مش المثَل بيقول الرغبة أُمّ الاختراع؟».

«مش هيك بيقول المثَل، يا هنرييت، المثَل بيقول الحاجة أُمّ الاختراع».

«طيِّب، يا خديجة، انسيكِ منّي هَلَّأ، وخلِّينا نرجع لموضوعنا. إنت ما عندك فضول تعرفي مين العروس الحلوة اللّي لقيتها لابنك أمير؟».

«والله، يا هنرييت، لازم الأوقاف يعينوكِ مأزونة، لإنُّه إذا بتضلّي هيك مش رح يضلّ لا شَبّ ولا بنت عزّابية في هالبلد».

«كلامك صحيح، رح أضلّ أنا العانس الوحيدة في البلد. إنتِ عارفة، يا ستّ خديجة، إنّه الأوقاف مش ممكن تعيِّن مَرَة مسيحية مأزونة».

«الأوقاف برضو مش ممكن يعينوا مَرَة مسلمة مأزونة، فكيف بدهم يعينوا مَرَة مسيحية؟ على كلّ حال، مين العروس اللّي لقيتيها لأمير؟».

«بنت حلوة من قرايبي»، ردَّت هنرييت مازحة.

«الله لا يقدِّر، مسيحية؟».

«ولك بمزح معك، عم بنتقم من الأوقاف لإنهم مش راضيين يعينوني مأزونة. وهيني بقولّك رح ييجي وقت قريب، سواء رضينا ولا ما رضينا، رح ينجبروا فيه المسحيِّينْ والمسلمين يتجوَّزوا من بعض، ولَّا كلّنا بنصير عوانس، والأضرب من هيك آخرتنا كلّنا نتجوَّز يهود».

«يعني قصدك تقوليلي إنُّه من آلاف الفلسطينية اللِّي عايشين في يافا ما قدرتيش تلاقي عروس مسلمة لابني؟».

«بتحبِّي ألاقيلك عروس فلَّاحة؟ إذا بيرضيكِ بقدر ألاقيلك عشرة من الصبح».

«لأ لأ، الله لا يقدِّر».

«يَلَّا، يا خديجة، ما أنا قلتلك إني بمزح. العروس اللِّي لقيتلك ياها مش مسيحية ولا فلَّاحة. هي بنت جيران ماري، واسم أبوها عبد».

«ومين ماري؟»، تساءلت خديجة.

«ولاااو، أنا مستغربة إنّك ما بتعرفي بنت عمِّي ماري اللِّي ساكنة في الجبليَّة».

«وليش لازم أعرف بنت عمِّك ماري أو حيّ الجبليّة؟ شكلِك نسيتِ إني انولدت وتربِّيت وعشت كلّ حياتي في المنشيّة، اللِّي ...، واللِّي ...، وهلأ تسوِّت بالأرض».

«طيِّب، يا خديجة، معلش بلاش نضلنا نندب حظّنا ونبكي على الماضي، أنا عم بحكيلك عن مناسبة سعيدة، وبقولّك لقيتلك عروس لابنك، وإنت عم تحكيلي عن الدمار والسخام، بعدين معك؟ ما بنفع نضل نلطم. تطلَّعي عليّ، أنا الوحيدة اللِّي ضايلة هون من كلّ عيلتي، فبلاش ننافس بعضنا في الحزن. كلّ اللِّي بعرفه إنه الحياة لازم تستمرّ»، قالت هنرييت بألم، ثمَّ أضافت: «عالأقلّ الجنس لازم يستمرّ، عشان هيك بسألك بدِّك تعرفي عن العروس اللِّي لقيتلك ياها ولَّا لأ؟».

«طبعاً طبعاً بدِّي أعرف. احكيلي مين هي؟ وبنت مين؟ وأهم إشي

قدِّيش عمرها، لإنُّه زي ما بتعرفي أمير يا دوب صار عمره خمسطعشر سنة»، قالت خديجة بلا حماس وقد شرد تفكيرها إلى بيتها المهدَّم في المنشيّة، ووفاة ابنها جمال، واختفاء ابنها صبحي، الذي لم تكن قد رأتْهُ أو سمعت عنه شيئاً منذ أن غادر يافا قبل عامَيْن. رَغْم أن عمَّه حبيب كان قد نصحه بأن يتخلَّى عن فكرته العقيمة بالذهاب إلى الأردن بحثاً عن شمس في وسط بحر من اللاجئين، إلَّا أن صبحي اختفى في ليلة، ليس فيها ضوء قمر.

لم يفقد حبيب يوماً الأمل بعودة صبحي إلى طبريا أو يافا، لذا ظلَّ يكذب على خديجة، فمرَّة يقول لها إنه مشغول بعمله، ومرَّة أخرى إنه لم يستطع الحصول على تصريح يمكِّنه من التنقُّل بين طبريا ويافا، وإن عليه أن يختار بين عمله وعائلته.

وفي تلك الأيَّام التي كان الحزن فيها رفيقها الدائم، لم يكن أمام خديجة إلَّا أن تصدِّق حبيب، وتنتظر.

«خلص خلص، يا خديجة، أنا حاسِّة إنِّك مش مهتمِّة بموضوع العروس».

«لأ لأ، تفهمنيش غلط، طبعاً أنا مهتمِّة، بس زيّ ما إنتِ عارفة الفرح دايماً بجيب معه الحزن».

«أقولِّك، خديجة، انسي الموضوع. فكَّرت إنُّه كلامي رح يسعدك، بس مبينّ إنُّه خلَّاكِ تحزني».

«كنت دايماً أحلم إني أرقص في عرس جمال، هاد اللِّي كنت ...»، خرجت الكلمات بصوت خافت من شفتَي خديجة المرتعشتَيْن قبل أن تنفجر بالبكاء، وترتمي في حضن هنرييت.

«يا الله، يا خديجة، أنا آسفة».

«أنا اللّي آسفة، حبيبتي هنرييت، بس إنتِ بتعرفي إنُّه الوقت ممكن يشفي كلّ الجراح إلَّا لوعة الأُمّ اللّي فقدت ابنها، هاد الوجع ما بيشفيه إلَّا الموت».

صباح اليوم التالي

«يَلَّا، يا هنرييت، أنا اليوم كلّي آذان، وجاهزة أسمعلك، احكيلي كلّ إشي بتعرفيه عن عروسة أمير. رحت مبارح عالبَيَّارَة، وشاورت إسماعيل، وطبعاً أمير، وبقدر أقولّك إنهم التنين متحمّسين كتير للموضوع، خصوصاً إنه أمير نادر ما يشوف بنات، لإنُّه ما بقي إلَّا كم عيلة عربية حوالين البَيَّارَة «.

«أنا براهنك إذا ابنك ضَل عايش في البَيَّارَة آخرتُه يتجوَّز ذيبة في هالخرابة. طبعاً مش ضايل ناس كتير في سكْنة أبو الريش، خصوصي بنات. على كلّ حال، الحمد لله إنه مزاجك اليوم أحسن، واللهِ، قلقت عليكِ مبارح كتير. يعني شو بقدر أقولّك، البنت صغيرة وحلوة وأمُّورة وبنت عيلة، بس يمكن تكون لسَّه صغيرة عالزواج، بس أنا متأكّدة إنه أمير بقدر يستنَّاله سنة أو سنتين، ويمكن أكتر شوي، بس صدقيني بنت زيّ القمر بتستاهل إنه يستنّاها، بنت مؤدبة ومربّية منيح، لدرجة ما بتصدقيش إنها مسلمة»، قالت هنرييت وهي تعابث جارتها، ثمَّ أخذت تقهقه.

«يقطع لسانك، يا هنرييت، أنا متأكّدة إنّك في الآخر إنت نفسك رح تتجوَّزي مسلم».

«أهمّ إشي بالنسبة إلي يكون معي رِجّال في هالسرير اليتيم، مين ما كان يكون، مسيحي، مسلم، يهودي، ما بتفرق».

«طيِّب، خلص، اسكتي، واحكيلي بنت مين هالعروس».

«بدِّك الحقيقة ما بعرف، بس متل ما حكيتلك عيلتها ساكنة قريب من بيت ماري في حيّ الجبليّة، اللِّي بعده حلو ومرتَّب».

«والله ما كنتش أفكِّر إنه لسَّه في عرب في الجبليّة، فكَّرت إنُّه كلنا مكدَّسين فوق بعض في العجمي».

«لأ، إنت غلطانة، صحيح إنُّه كتير من بيوت العرب اللِّي هاجروا من الجبليّة سكنوها يهود، لكنْ، في أكَم عيلة عربية قدروا يدبّروا حالهم ويضلُّوا في بيوتهم، ومن بينهم بنت عمِّي ماري والخواجا ميخائيل إذا بتعرفيه».

«قلتلِّك إنيِّ ما بعرف لا خواجات ولا حَدَا من الروس الكبار غيرِك إنتِ، يا هنرييت».

«آه، صدقتِ، ما أنا صرت وحدة كتير مهمَّة في حارة العجمي اللِّي صارت كلّها لَمَم. على كلّ حال إذا إنت معنيَّة بعروسة أمير، أنا بُكرا بروح أشوف بنت عمِّي ماري، وبرتِّب معها نروح أنا وإنتِ نشوف عيلة العروس هاليومين الجايين».

«لازم تتأكّدي إنُّه نشوف العروس مش بس عيلتها، بدِّي أتأكّد إنها حلوة، ومش ضروري تكون بتجنِّن».

«بعرف، فاهمة عليكِ، في الأيَّام اللِّي راحت، لمَّا يافا كانت يافا، وكان فيها عائلات أكابر وغنية، كان أهمّ إشي الحسب والنسب، بس

هَلَّأ لمَّا صاروا كلّ أهل يافا شحَّادين صار أهمّ إشي إنها تكون البنت لطيفة ومربّية».

«وكمان تكون حلوة».

«طيِّب، فهمتْ، أنا متأكّدة إنِّك رح تحبِّيها قَد ما أنا حبِّيتها».

«أهمّ إشي إنها تِعجِب أمير، وإنُّه يستلطفها».

نقد العروس

«أهلاً وسهلاً، خلِّيهم ييجوا عفنجان قهوة، مع إنُّه أنا وإِمّها شايفين إنها لسَّه صغيرة عالزواج»، قال والد العروس بعد إلحاح هنرييت، التي كانت قد زارتْهم ثلاث مرَّات خلال الأسبوع: مرَّة مع ابنة عمِّها ماري، ومرَّتَيْن وحدها، «كمان لازم نشاور بنتنا قبل أو بعد ما ييجوا، وعالأغلب بعد لأنُّه ما بدنا ياها تحسّ بالخجل، وإنها مرفوضة».

«ما تقلق، بنتَك بتجنِّن، والعريس صغير، بس مع هيك ليش ما تخطِّطولها عالبدري، إنتِ سيد العارفين إنه عدد شباب يافا اللِّي عليهم العين صار قليل، بتقدر تعدّهم على أصابع إيديك. تطلَّع عليّ، فكرك أنا لسَّه عندي فرصة أتجوَّز رِجَّال يافاوي محترم، ولَّا خلص عَنَّسِتْ وراحتْ عليّ؟»، قالت هنرييت، وقهقهت بصوت مُدوٍّ كعادتها.

خجل أبو العروس من صراحة هنرييت قليلاً، فابتسم، ثمَّ قال: «واللهِ، ما عارف شو أحكيلك، ماشي الحال، خلِّيهم يتفضَّلوا يزورونا».

«فنجان قهوة؟ طيِّب، وبعد هيك نقولهم متأسفين البنت صغيرة كتير؟ ليش ما نختصر الموضوع، ونقول إنُّه البنت صغيرة ولسَّه مش في

سنّ زواج؟ ليش ما تبعت تقولهم يرجعوا بعد سنتين أو تلاتة أو حتَّى أربعة؟»، قالت رِفْقَة وهي تعبِّر عن رفضها للفكرة ولباقة زوجها عبد.

«ع مهلك عليّ، حبيبتي، كلُّه فنجان قهوة. خلِّيني أروح أعملِّك غلَّاية»، بطريقته المرحة استطاع عبد، كالعادة، أن يمتصَّ توتُّر زوجته المتزايد، «إذا أهلها الحقيقيِّيْن ما بيَّنوا، وما أظنّ إنهم يبينوا بعد كلّ هالسنين، البنت لازم في يوم من الأيَّام تتجوَّز»، قال ردَّاً على اعتراض رِفْقَة الواضح على موضوع الخطبة بأكمله.

«بعرف، طبيعي إنُّه في يوم من الأيَّام شمس والبنات ومحمود رح يتجوَّزوا متل كلّ الناس، لكنْ، أنا مش شايفة ليش إنتِ مستعجل تجوِّزها من هَلَّأ».

«يا الله، يا رِفْقَة، إنتِ بتعرفي إني أنا مش مستعجل أجوِّز شمس ولا حَدَا من الأولاد، لا هَلَّأ ولا بعدين، بس كمان مش أصول إنُّه نرفض نستقبل الجماعة على فنجان قهوة، حتَّى لو بدنا نقولهم لأ. تفضَّلي، يا رِفْقَة، خديلك كمان فنجان قهوة، وروقي»، قال وهو يشعر أن رِفْقَة ما زالت غير مقتنعة بزيارة أهل العريس.

«وهاي المحنة متل غيرها رح تعدِّي»، كان هذا دائماً شعار عبد في الحياة، ولكنْ، الآن أكثر من أيِّ وقت مضى.

الزيارة

«تفضَّلوا، تفضَّلوا، يا ميت أهلاً وسهلاً، تفضَّلوا تفضَّلوا ارتاحوا، أهلاً وسهلاً»، ظلَّ عبد يكرِّر جملتَيْه الترحيبيَّتَيْن، إلى أن جلس الضيوف،

تقودهم هنريت، في غرفة الجلوس المتواضعة. كان أمير هو الوحيد الذي أبدى اهتماماً وحماسة بهذه الزيارة، ربَّما لصغر سنِّه، أو ربَّما بسبب هرموناته الفائرة. وكما يحدث في مثل هذه المناسبات، ساد الجلسة شعور بالحرج. اختار الجميع، وخصوصاً الرجال، أن يتحدَّثوا في مواضيع شتَّى، باستثناء الموضوع الذي اجتمعوا من أجله. تحدَّث عبد وإسماعيل عن الأوضاع المزرية في البلاد، وخصوصاً ما حدث ليافا واللِّدّ والرملة، وشعور العرب المتزايد بالاغتراب:

«شي محزن، الواحد بيمشي في شوارع يافا وما بيسمع ولا كلمة عربي، مسكينة عروس البحر ما ضلّ فيها ولا جريدة، راحت أيَّام العزّ لمَّا كان في يافا لحالها تلات جرايد يومية»، قال إسماعيل.

«كلامك صحيح، الواحد ما بيسمع حَدًا بيحكي بالعربي، بس الغريب أكتر إنُّه ما بيسمع عبري كمان، يمكن آن الأوان إنُّه كلّنا نتعلَّم الييدش».

«بلغاري قصدَك»، صحَّحت رِفْقَة زوجها.

«أيوه، قصدي بلغاري».

«إحنا انتهى أمرنا، يا جماعة، ومدينتنا انتهت، وانتهى كلّ شعبنا»، ردَّ إسماعيل، بينما كانت النساء الثلاث وأمير ينتظرون بقلق انتهاء هذه المقدِّمة الطويلة.

«هي هيبي، يا جماعة، دخيلكم وَقفوا هالسيرة، مبيِّن إنكم نسيتوا المناسبة السعيدة اللِّي جمعتنا مع بعض»، اعترضت هنريت، بينما أشرق وجه أمير. بدا أنهما الوحيدان اللذان أرادا لهذه المقدِّمة أن تنتهي. عمَّت الضحكات والابتسامات المتوتِّرة الجلسة لفترة قصيرة، إلى أن ساد

صمت مُطبِق. نظر الجميع باتِّجاه إسماعيل منتظرين أن يقول شيئاً حول موضوع الزيارة. عدَّل من جلسته وتنحنح، ورسم على وجهه ابتسامة متوتِّرة، ثمَّ قال: «بسم الله. أنا وزوجتي خديجة، زَيّ ما أكيد توقَّعتوا، جايين نطلب إيد بنتكم ...».

«شمس»، قالت هنرييت التي أدركت أن إسماعيل نسي اسم العروس.

«أيوه شمس»، كرَّر، ثمَّ أضاف: «نعم، إحنا جايين نطلب إيد بنتكم الكريمة شمس لابنَّا أمير». نظر إسماعيل إلى ابنه الذي كانت قد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الطفولي، «إحنا عارفين إنه بنتكم لسَّه صغيرة، بس أكيد متل ما خبَّرتكم هنرييت، إحنا مستعدّين نستنَّى سنة أو سنتين».

«الله يمسِّيكم بالخير جميعاً. شرَّفتونا بزيارتكم في بيتنا المتواضع، وبنشكركم على هالزيارة الكريمة»، أجاب عبد وهو يختار كلماته بعناية، ليُرضيَ ضيوفه، ولكنْ، الأهمّ، ليُرضيَ زوجته رِفْقَة، «كلامكم صحيح ميِّة بالميِّة، بنتنا لسَّه صغيرة كتير، وأنا وإِمّها بدنا ياها تكمِّل تعليمها أوَّلاً، عشان هيك إحنا ما خبَّرناها عن زيارتكم الكريمة اليوم».

أجفل إسماعيل وخديجة من كلمات عبد، ونظرا إلى بعضهما، لا يعرفان ماذا يقولان، ثمَّ تدخَّلت خديجة بسرعة خشية أن تُطلق هنرييت واحدة من نكاتها الفجَّة، وقالت بحذر: «بس والله، إحنا جينا اليوم عشان نشوف العروس، يا ترى ما بنقدر نشوفها اليوم؟». كان واضحاً أنها شعرت بالضيق، وأيضاً بالإهانة من قول عبد إنهم لم يُخبروا ابنتهم، فلا هي ولا ابنها أمير على استعداد لانتظار سنة أو سنتَيْن من أجل عروس، لم يرياها.

«أنا آسف، ما قصدت إنكم مش رح تشوفوا بنتنا اليوم، طبعاً رح تشوفوا ولادنا كلّهم، بس بدكم توعدوني إنّكم ما تقولوا إشي قدَّامهم عن سبب زيارتكم. بس اسألوها هي وخواتها أسئلة عادية عن المدرسة أو أيّ إشي تاني بدكم ياه، وكأنكم في زيارة عائلية عادية»، قال عبد، ثمَّ ذهب ليستدعي شمس وأُختَيْها.

بعد دقائق دخلت شمس إلى الغرفة وخلفها نظيرة ونوال. وقفت البنات الثلاث مرتبكات لا يعرفنَ ماذا يفعلنَ.

«تعالوا، حبيباتي، اقعدوا جنبي»، قالت رِفْقَة التي لاحظت خجل بناتها، وأفسحت لهنَّ مكاناً بجوارها.

مرَّت لحظات من الصمت الحرج قبل أن يميِّز الضيوف أيهنَّ شمس، ثمَّ استجمع إسماعيل شجاعته، ليقطع الصمت:

«شو اسمك، يا صبية؟»، قال وهو ينظر إلى شمس.

«شمس»، ردَّت بصوت مرتعش وبنظرة متفحِّصة، وتلقَّت نظرة مثلها من إسماعيل.

«وشو اسم أبوكِ؟». ضحكت خديجة وهنرييت وأمير لغرابة السؤال، فكيف يسأل عن اسم أبيها وهو موجود بجانبه. بدا واضحاً أن هذا السؤال أربك عبد ورِفْقَة، تماماً كما أربك شمس. عالقة بين الشكِّ والأمل، أجابت شمس:

«اسمي شمس خليل أبو سعد».

مذهولاً من أن الفتاة قد أعطتْهُ اسمها الكامل، أراد إسماعيل أن يتأكَّد من حقيقة ما سمعه: «شو قلتيلي اسم أبوكِ؟».

«خليل».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«واسم عيلتك».

«أبو سعد».

«إنتِ من سَلَمِة؟».

«أيوه». سعيدة بأن أحداً قد عرفها، ولكنْ، خائفة في الوقت ذاته من عواقب هذه الأسئلة كلِّها، التصقت شمس برِفْقَة، ونظرت إليها وكأنها تطلب المساعدة.

«شمس، إنتِ عارفة مين أنا؟ ما عرفتِيني؟».

«لأ»، فهي، في الحقيقة، لم تعرف مَنْ هو.

«أنا إسماعيل، أنا أبو جمال، بتتذكَّري؟ أبوكِ كان يشتغل معي في البَيَّارَة».

تجمَّدت شمس في مكانها عاجزة عن أن تقول أو تفعل أيَّ شيء، وكذلك كان حال الموجودين كلِّهم في تلك الغرفة. وعندما أدركت شمس أهمِّيَّة تلك اللحظة، عانقت أُمَّها بقوَّة وهي ترتعش، ثمَّ وضعت رأسها في حضن رِفْقَة، وبدأت تبكي. هل هي مستعدَّة لفصل درامي آخر في حياتها؟ لم تكن متأكِّدة من ذلك.

أدرك الجميع جِدِّيَّة هذه اللحظة، باستثناء هنريت العابثة: «استنُّوا استنُّوا شوي، أنا مش فاهمة إشي، مش شمس بنتكم؟»، نظرت إلى رِفْقَة التي كان فكُّها يرتعش، بينما عيناها الدامعتان تُحدِّقان في إسماعيل.

«أرجوكِ، هنريت، اسكتي شوي، وما تقاطعينا»، قال عبد الذي شحُب وجهه.

«شمس، إنتِ عندك فكرة وين أبوكِ هَلَّأ؟»، سأل إسماعيل وهو يحاول أن يفهم ما الذي أتى بشمس وأُختَيْها إلى بيت عبد ورِفْقَة.

«ما بعرف، يمكن في عَمَّان. آخر مرَّة شفناه كانت في اللِّدّ لمَّا اعتقلوه مرَّة تانية بعد ما اعتقلوه أوَّل مرَّة، لإنُّه دبح بقرة يهودية».

«بقرة يهودية؟»، كرَّر إسماعيل وهو مشوَّش الذهن، بينما تذكَّر حواره مع خليل والد شمس، «وإِمِّك وأخوك محمَّد؟».

«هُمَّه كمان ضاعوا».

«ضاعوا وين؟»، سأل إسماعيل، رَغْم أنه كان قد سمع القصَّة من خليل.

«في الطريق للأردن»، أجابت محاولة أن تكبح دموعها.

«بتعرفي إنُّه أبوكِ إجا يدوِّر عليكم قبل نحو سنة؟»، قال إسماعيل بينما كان كلٌّ من الغرفة لا يصدِّقون آذانهم.

«عن جَد؟»، قالت شمس.

«صحيح اللِّي بتقوله؟».

«إنت متأكِّد من اللِّي بتقوله؟».

كان إسماعيل يفكِّر بالجهود كلِّها التي بذلها هو زوجته خديجة للعثور على شمس وأُختَيْها. نظر إلى زوجته، وابتسم، ثمَّ استدار بعينَيْه باتِّجاه شمس: «بتحبِّي تشوفي أبوك؟».

«أشوف أبوي؟ طبعاً»، قالت شمس وهي تنظر إلى عبد ورِفْقَة باحثة عن تفسير.

«طيِّب طيِّب، رجاء وقفوا هون»، قال عبد بلهجة قاطعة لأوَّل مرَّة في حياته، «شمس حبيبتي خدي خواتك، وروحوا على غرفتكم، أو أقولّك خلِّيكِ هون مع إمِّك، وأنا رح أطلع مع إسماعيل برَّا عشان بدِّي أحكي معه». وقف الرجلان، وخرجا إلى شرفة صغيرة. حرص عبد على أن يغلق الباب خلفه، تاركاً النساء المذهولات وأمير في الغرفة. أمَّا أمير، فقد فتح الباب، وخرج خائب الأمل ممَّا آلت إليه الأمور.

مدرِكة العواقب الهامَّة لِمَا حدث، ليس فقط على بناتها، ولكنْ، أيضاً على أسرتها كاملة، استأذنت رِفْقَة من خديجة وهنرييت: «اسمحولي، أنا لازم أحكي مع بناتي لحالنا»، قالت وقد استحوذ عليها شعور الأُمِّ بضرورة حماية بناتها. نهضت عن الكنبة، وكذلك فعلت بناتها المذهولات: «شمس، نظيرة، نوال، تعالوا معي يمَّا، بدِّي أحكي معاكم».

نصائح أُمٍّ

«حبيباتي، شو هالأخبار العظيمة! على قَدّ ما أنا حزينة، على قَدّ ما أنا سعيدة عشانكم، أخيراً، الله فرجها عليكم»، كانت دموع الفرح والحزن تنهمر من عينَي رِفْقَة وعيون بناتها، وقد غمرهنَّ جميعاً الإحساس بالقلق والإثارة.

«يمَّا، صحيح إنه بقدروا يجيبوا أبونا من عَمَّان ليافا؟ أنا كنت أفكِّر إنُّه اليهود بيخلُّوش حَدَا يرجع».

«مزبوط، يا حبيبتي، بس أكيد بقدروا يهرّبوه». وقبل أن تتساءل شمس مَنْ هم الذي يستطيعون تهريبه، أوضحت رِفْقَة:

«لمَّا كانت الحدود بين إسرائيل والدول اللِّي حواليها لسَّه مش متَّفق عليها ومش محروسة كان سهل على الناس إنهم يروحوا وييجوا، لكنْ،

هَلَّأ بعد حوالي تلات سنين ونص على وجود دولة إسرائيل صار حرس الحدود يطخّ على أيِّ حَدَا بيحاول يرجع».

«لأ لأ»، قالت نوال قلقة على حياة والدها.

«لأ لأ حبيبتي ما تخافي، أبوكِ رح يكون بخير، ما سمعتِ عمِّك إسماعيل بيقول إنه إجا السنة الماضية يدوِّر عليكم، أكيد هوّه رح يدير بالُه، ومش رح يغامر. بعدين هدول المهرّبين بيعرفوا كلّ الطُّرُق ووين يروحوا ووين ييجوا»، قالت رِفْقَة وقد ندمت لأنها أثارت قلق بناتها، ثمَّ أضافت: «المهرّبين بيعرفوا كلّ الطُّرُق، وبيعرفوا الأرض عن غيب أكتر من الجنود اليهود، صدّقوني إنهم رح يجيبوا أبوكم من بَيَّارَة للتانية تحت الشجر. يَلَّا، يا بنات، خلُّونا نرجع مشان نحتفل بهالمناسبة السعيدة مع بعض. أخيراً رح تجتمعوا بأبوكم، بعد قدِّيش؟ تلات سنين ونص؟».

«تلات سنين وسبع أشهر وتلاتة وعشرين يوم»، قالت شمس، ثمَّ اقتربت من والدتها المذهولة، وعانقتْها بشدَّة، وكذلك فعلت نظيرة ونوال.

حين عاد الجميع إلى غرفة المعيشة، اكتشفوا أن أمير وهنرييت قد اختفيا. ولكنْ، بينما شعر أمير المراهق بأن القَدَر كان أقوى من رغباته، شعرت هنرييت أنها قد أنجزت، من دون قصد، مهمَّة كبرى. ربَّما لم يكن ذلك مسلِّياً بقَدْر ما أرادت، إلَّا أنها، وهي التي أصرَّت على البقاء في بيتها بينما صَعِدَت أسرتها كلُّها على سفينة متَّجهة إلى بيروت، فهمت ماذا يعني للعروس أن تجتمع بأسرتها من جديد، أوَّلاً مع والدها، ومن ثمَّ مع أُمِّها وأخيها الأصغر، اللذَيْن استنتجت أنهما يعيشان في عَمَّان الآن.

«مبروك، ألف مبروك، حبيباتي»، اقترب عبد بسرعة من نسائه الأربع، وضمَّهنَّ إلى صدره، وغمرهنَّ بالقبلات، «شايفين، الله كبير. عن

قريب، إن شاء الله، رح تجتمعوا بأبوكم بعد ما ييجي وياخدكم عشان تشوفوا إمّكم وأخوكم في عَمَّان».

«إيمتى؟»، قالت نظيرة التي كانت قد ظلَّت هادئة طوال هذا الوقت.

«إنت مستعجلة تتركينا، يا شيطانة؟»، كانت تلك نكتة عبد التي جلبت الدموع إلى عيون الجميع، وعينَيْه هو أيضاً.

امتلأت عينا نظيرة بالحَيْرَة لِلَحظة، وكانت على وشك أن تردَّ على ملاحظة عبد، ولكنها قرَّرت أن تبتلع كلماتها في اللحظة الأخيرة، فقد كانت هي بالتحديد تخشى الذهاب إلى عَمَّان. كانت تشعر بالأمان مع رِفْقَة وعبد، لذلك فإن خشيتها من المجهول الذي سيأخذها والدها خليل إليه كادت تجعلها تعبِّر عن رغبتها بعدم المغادرة. خائفة من الكشف عن مشاعرها الحقيقة، اقتربت من عبد، والتصقت به بجسمها الصغير.

«إن شاء اللهِ خلال هاد الأسبوع»، أجاب إسماعيل محاوِلاً أن يخفِّف من وطأة الجوِّ المشحون بمشاعر متضاربة.

التزم الجميع بالصمت المُطبِق، إذ لم تبدُ أيّ كلمة أو نكتة أو جملة مناسبة لهذا الموقف.

أدرك الجميع أن لا أحد منهم يمتلك القدرة على التفكير في ما سيحدث بعد أن تجتمع البنات بوالدهنَّ في بَيَّارَة إسماعيل، لذا لم ينطق أحد بكلمة، إلى أن استأذن إسماعيل: «بخاطركم، إلى اللقاء قريباً، إن شاء الله».

38
معروف صغير لصديق قديم

شعاع من الضوء الأبيض الساطع شقَّ طريقه إلى عَتَمَة غرفة المولِّدات بمجرَّد أن فُتح الباب الحديدي الثقيل مُصدِراً صريراً قوياً. فاجأ الوهج والصوت خليل الذي كان يجلس متربِّعاً على حصيرة قشٍّ بجوار الجدار الرمادي المرتفع. فوق رأسه على الجدار عُلِّقت الأدوات الصدئة التي كان يستعملها في ما مضى لريٍّ وتقنيب أشجار بَيَّارَة البرتقال التي وجدها بالأمس نصف ميّتة.

وسط ضوء الصباح الشفيف ظهر خيال شمس وخلفه خيال نظيرة ونوال. قفز خليل واقفاً، وانطلق كالبرق باتِّجاه الباب: «يا الله!»، صرخ بأعلى صوته، وفرك عينَيْه عدَّة مرَّات، وصفع وجهه مرَّتَيْن غير مصدِّق، قبل أن يستطيع أن ينطق بأسماء بناته، «شمس، نظيرة، نوال، هاد إنتو عن جَد، ولا أنا بحلم؟». لم يعرف خليل إن كانت لحيته الطويلة أم جسده الأشبه بهيكل عظمي أم الخطوط السوداء تحت عينَيْه هي التي أخافت نوال، وجعلتْها تتراجع خطوة أو خطوتَيْن إلى الخلف، قبل أن تعود وتقترب من جديد. في لحظات كانت الفتيات الثلاث قد التصقنَ بجسد والدهنَّ. مثل قطط صغيرة جائعة، أخذت شمس وأختاها في الأنين والبكاء، ثمَّ تدحرجنَ على ظهورهنَّ، وبدأنَ يضحكن بصخب، ذلك كلُّه في آنٍ واحد.

«وين إمِّي؟ لقيتها؟ لقيت محمَّد؟»، كانت هذه أوَّل الكلمات

المفهومة التي استطاعت شمس أن تنطق بها. ولأن أباها لم يشأ أن يخيِّب أملها، ولكنْ، أيضاً، لأنه أراد أن يحتفظ ببهجة هذه اللحظة، ردَّ قائلاً: «معلش حبيبتي شمس، خلِّينا هَلَّأ نفرح بهاللحظة الحلوة اللِّي من زمان بستناها. شو رأيكم نطلع من العتمة عالفضا برَّا، وبإذن الله مع بعض رح نلاقي إِمّكم وأخوكم عن قريب. أنا عمري ما توقَّعت أرجع ألاقيكم، بس هيكم معي وبين إيدي»، ومن جديد أحاط بناته بذراعَيْه، وضمَّهنَّ بقوَّة. ورَغْم حزن شمس من تأكيد والدها بأن أُمَّها وأخاها ما زالا مفقودَيْن، إلَّا أنها كانت تعرف ذلك من إسماعيل عندما جاء يطلب يدها، وأخبرها عن زيارة خليل ليافا قبل عام.

انتظر إسماعيل وخديجة بقلق ظهور خليل وبناته، إلَّا أنهما، وبرَغْم فضولهما الشديد حول اللقاء، أتاحا لخليل بعض الخصوصية معهنَّ احتراماً للحَدَث الجَلَل. وما إن انتهوا من العناق حتَّى كانوا جميعاً يجلسون حول الطبليّة التي وضعت عليها خديجة بعض أطباق الطعام والحلويات التي استطاعت أن تتدبَّرها.

كانت شمس حريصة على ألَّا تقلِّل من فرحة هذه اللحظة بالحديث عن أحبَّتها المفقودين، لذلك فضَّلت أن تحتفيَ بلَمِّ شملها مع والدها: «آه، يابا، لو تعرف قدِّيش اشتقنالك! أنا مش قادرة أصدِّق إنُّه إحنا نمنا في نفس المدينة، لكنْ، بعاد عن بعض الليلة الماضية».

لم تشأ أن تعترف لنفسها، والأهمُّ أن تُشعِر والدها خليل، كم كانت ممزَّقة وحزينة لتركها رِفْقَة وعبد وأخيها محمود، عائلتها بالتبنِّي، فاقتربت من خليل، وعانقتْهُ، ووضعت رأسها على كتفه، وقالت: «كلّ الحقّ على عمِّي إسماعيل، كان لازم يجيبنا هون الليلة الماضية».

فردَّ إسماعيل مازحاً: «صارلكم بعاد عن أبوكم سنين، فقلت لحالي كم ساعة زيادة مش رح تفرق».

«هدول الأكَم ساعة كانوا الأطول والأصعب من كلّ السنين»، قال خليل. هنا شعر إسماعيل أنه بحاجة للدفاع عن نفسه: «إنتو عارفين إنه كان موعد منع التجوُّل لمَّا خليل وعلي المهرِّب ظهروا من تحت شجر البرتقان، ومع إني كنت متوقِّع وصولهم من تمانية وأربعين ساعة، إلَّا إني نقزت لمَّا سمعت همس وصوت خطوات من بين الشجر. مين عارف، كان ممكن يكونوا من الميليشيا اليهودية اللِّي صارلهم مدَّة بيهدِّدوا يصادروا كلّ البَيَّارات في المنطقة».

«طيِّب ليش يا عمِّي ما اتَّصلت فينا بالتلفون؟».

«لإنُّه مكالمة تلفون بهالوقت المتأخِّر من النهار بتبلغكم عن وصول متسلِّل كانت رح تجيب المخابرات الإسرائيلية لأبوكم بدل ما تجيبكم إنتو عنده».

«المهمّ إنُّه إحنا كلّنا مجتمعين بفضلك، يا أخي إسماعيل، أنا وبناتي التلاتة رح نضلّ مديونين إلك طول العمر».

«صحيح، يا عمِّي إسماعيل، شكراً إِلَك»، قالت نظيرة وهي تنهض من مكانها إلى جانب والدها، وتذهب لتعانق إسماعيل، وتبعتْها شمس ونوال.

«طيِّب، طيِّب، يا بنات»، قال إسماعيل مُحرَجاً، لا يعرف كيف يبادلهنَّ هذا الحبَّ كلَّه. نظر إلى خليل، وقال: «طيِّب، يا خليل، أنا وخديجة بدنا نروح عالسوق نشتري أغراض لعزومة رِفْقَة وعبد بُكرا،

وبهالوقت إنتو استمتعوا ببعض، أنا متأكّد إنه إنت والبنات عندكم كتير حكي تحكوه لحدّ ما نرجع الساعة خمسة أو ستِّة».

وما إن اختلى خليل ببناته حتَّى بدأوا يتلعثمون بجمل غير مفهومة بدت بلا معنى، ولكنْ، حين هدأت عواطفهم المتأجِّجة أصبحوا قادرين على تبادُل كلام مفهوم، ومن ثمَّ انطلق سيل الحكايات فيما بينهم، ولم يتوقَّف حتَّى ساعات الليل المتأخِّرة.

لأوَّل مرَّة منذ سنوات نامت شمس وأختاها إلى جانب والدهنَّ، بعيداً عن رِفْقَة. ومثل قطط صغيرة تجمَّعنَ في حضنه، أمَّا رِفْقَة وعبد ومحمود، فكانوا مثل السمك خارج الماء، يتقلَّبون طوال الليل في أسِرَّتهم. فجَّر مشهد الأسِرَّة الفارغة الدموع من عيون رِفْقَة ومحمود، بينما قضى عبد تلك الليلة وهو يشعر بغُصَّة في حلقه. لم يستطيعوا النوم في تلك الليلة، فنهضوا ثلاثتهم مع بزوغ الشمس، وخرجوا من البيت، تسبقهم ظلالهم الطويلة تحت أشعَّة شمس الصباح المبكِّر، وهم يمشون متعثِّرين على الطريق الترابي الضيِّق الذي أخذهم من بيتهم في حيّ الجبليّة إلى بيَّارَة إسماعيل. تحت تأثير الأحداث والمصادفات المتسارعة، كانوا، مثلهم مثل خليل، عاجزين عن الكلام عندما التقوا به لأوَّل مرَّة بعد طول انتظار. مُثقَلاً بالشعور بالذنب بسبب أفكاره الشرِّيرة تجاه المرأة اليهودية والرجل المصري اللذَيْن «خطفا» بناته، لم تكن أمام خليل إلَّا وسيلة واحدة للتعبير عن امتنانه حين خانتْهُ الكلمات: بعد أن صافح عبد ومحمود، ركع على ركبتَيه، وانحنى وقبَّل قَدَمَي رِفْقَة قائلاً: «مش غريب إنُّه النبي قال «الجنّة تحت أقدام الأُمَّهات»، وظلَّ يعيد هذه الكلمات، إلى أن أعانتْهُ رِفْقَة وعبد على الوقوف على قدمَيه، «لا أنا ولا بناتي ولا ربّنا رح ننسى اللِّي عملتوه، إلكم الجنّة، بإذن الله».

ابتسمت رِفْقَة التي أدركت أن خليل لا يعرف أن فكرة الجنّة والنار ليست موجودة في الديانة اليهودية، وقالت: «بما إنُّه كلّنا عايشين في جهنَّم هاي الأيَّام، بتمنَّى إنُّه يكون في جنّة بعد هالحياة».

ورَغْم أن النهار كان في أوَّله، إلَّا أن الجميع كانوا يتراكضون هنا وهناك للمساعدة في التحضيرات للعشاء الأخير الذي سيجمع العائلات الثلاث معاً. ولسوء حظِّ الجميع ستكون هذه الوجبة في ذات الليلة التي سيحضر فيها المهرِّبون ليأخذوا خليل وبناته إلى حدود الأردن. برَغْم الصخب والحركة، فقد سادت في ذلك النهار المشاعر المتضاربة والحَيْرَة وتقلُّبات الأمزجة. اختلطت دموع الفرح بدموع الأسى، كما اختلطت الأخبار السعيدة بالأخبار الحزينة. عَلَتْ بعض الوجوه ابتسامات متردِّدة، بينما كَسَت التجاعيد والكآبة وجوهاً أخرى.

وما إن أُعدَّت مائدة العشاء حتَّى سارعت شمس لتجلس بجانب رِفْقَة، بينما أحاطت نظيرة ونوال بوالدهنَّ.

«معقول هاد يكون آخر عشا إلي مع رِفْقَة؟»، تساءلت شمس، بينما اغرورقت عيناها بالدموع. حاولت أن تُخفيَ دموعها، فوقفت، وابتعدت خطوات عن الجميع، ثمَّ عادت بعد لحظات، وجلست إلى جانب رِفْقَة مرَّة أخرى، وعانقتْها بقوَّة.

كانت رِفْقَة ما تزال تأمل في الاحتفاظ ببناتها لفترة أطول، لذلك سألت عن مصير والدتهنَّ، مُلمِّحة إلى أنه قد يكون من الأفضل أن تحتفظ بهنَّ إلى أن يتمَّ العثور عليها. أرعبت هذه الفكرة خليل، فحسم الأمر واضعاً حدَّاً لهذه المرحلة من حياة بناته:

«عندي أمل إني أرجع قريب مع عايشة ومحمَّد، وهيك بتلتقوا إنت

والبنات مرَّة تانية. أنا كتير ممنون على كلّ اللِّي عملتيه لبناتي، ومتأكِّد إنُّه عايشة رح تكون ممنونة أكتر على محبّتكم ورعايتكم إلهم».

برَغْم كلمات خليل المطمئنَّة، كان الجميع يُدركون أنها مجرَّد كلمات مجاملة، فالمستقبل لم يكن يعِد بعودتهم، فكلُّهم سمعوا تصريح بن غوريون بعد نحو شهرَيْن من قيام ميليشياته بطرد الفلسطينيِّيْن من بيوتهم: «لن يُسمَح لأيٍّ لاجئ بالعودة»، ولهذا فقد كانت رِفْقَة تخشى الأسوأ: المستقبل المجهول الذي ينتظر بناتها، في أحسن الأحوال في خيمة في مخيَّم للاجئين في الأردن أو قطاع غَزَّة.

«مين بدُّه يدير بالُه على بناتي إذا أمّهم مرضت أو ماتت»، فكَّرت رِفْقَة، ولكنها احتفظت بالفكرة لنفسها.

ظلَّ محمود ابن الثالثة عشرة يحوم حول العائلتَيْن محاوِلاً أن يعرف مصير محمَّد، الأخ الذي لم يلتقِ به أبداً، ولكنه حمل عبء القيام بدوره، وملأ الفراغ الذي تركه طوال السنوات الثلاث الأخيرة. لم يستطع محمود أن يستوعب تداعيات صدفة، أدَّت إلى فقدانه أخواته الثلاث في لحظة واحدة. لم يتحمَّل قلبه الصغير فكرة العودة إلى البيت وحده، مع مَنْ سيلعب؟ مَنْ سيناكف؟ مع مَنْ سيتقاتل؟ أمَّا شمس، فقد امتزجت سعادتها بلقاء والدها بالحزن لعدم العثور على والدتها، ولكنْ، أيضاً بالحزن الأكبر لفراق محمود وعبد، وخصوصاً رِفْقَة. فجأة أدركت شمس كم كانت تحبُّ رِفْقَة، لم تستطع أن ترى حياتها القادمة من دونها: «معقول إني بحب رِفْقَة أكتر من إمِّي؟»، أرْعَبَتْها الفكرة، ولكنها لم تمنعها من التساؤل بينها وبين نفسها: «معقول إني خلال تلات سنين نسيت قدِّيش كنت أحب إمِّي؟ ولَّا أنا كنت متعوّدة على حبّها، وبعتبرُه تحصيل حاصل؟»، تشوَّش ذهنها بهذه الأفكار. في ظلِّ طوفان المشاعر الذي

غمرها، كان غريباً، أو ربَّما ليس غريباً إلى هذا الحَدِّ، أن تتلقَّى شمس خبر اختفاء صبحي، الذي ذكره والده بشكل عابر، بمشاعر متبلِّدة، مكَّنتْها من أن تكرِّس ذهنها للتعامل مع المشاعر المتضاربة الكثيرة الأخرى.

عندما رأت نوال والدَيْها خليل وعبد جالسَيْن جنباً إلى جنب، تمنَّت لو أن والدتَيْها وأخوَيْها كانوا هنا أيضاً. تساءلت إن كانت هناك طريقة سحرية، تجمع العائلتَيْن معاً في الوقت نفسه، والمكان نفسه: «ليش لازم نخسر عيلة عشان نكسب التانية؟»، فكَّرت، وراودتْها فكرة أن يذهب والدها خليل وحده إلى عَمَّان، ليبحث عن والدتها، بينما تبقى هي وأُختاها لفترة أطول مع رِفْقَة وعبد ومحمود: «وبلكي رحنا كلّنا على عَمَّان، وما لقيناش إِمِّي ومحمود؟»، هذه الفكرة جعلت جسدها يرتعش. مُدرِكة الوضع الصعب الذي ترك مصير والدها بيدَي المهرِّبين، وحزينة أيضاً لترك عائلتها بالتبنِّي، تساءلت نوال: «يابا، إحنا بدنا نضل في يافا، ولَّا بدنا نروح عالأردن ندوِّر على إِمِّي ومحمَّد»، ذكرت محمَّد وكأنها تذكَّرتْهُ في اللحظة الأخيرة.

«لأ حبيبتي، أنا فكَّرت إنِّك عارفة الخطَّة، إحنا رايحين على عَمَّان الليلة، عشان ندوِّر على إِمِّك وأخوكِ، وكمان عشان نعيش هناك. بتمنَّى لو بقدر أضل في يافا، بس زَيّ ما إنتِ عارفة ما عندي بطاقة هوية حمرا متلك».

«هوية حمرا؟ إيش حمرا؟ ما فهمت شو يعني؟»، سألت نوال بفضول.

«الفلسطينيِّيْن القلال اللِّي ضلُّوا انحصوا وتسجَّلوا وتسلَّموا هويات حمرا».

«ليش حمرا؟»، أصرَّت نوال.

«أكيد مش لإنهم شيوعيِّيْن متلي أنا ورِفْقَة، لكنْ، لإنُّه بالنسبة إلهم الأحمر إشارة خطر»، قال عبد.

«قصدهم يقولوا دِيْروا بالكم من الفلسطينيِّيْن اللِّي سرقتوا بيوتهم وأرضهم وأرواحهم»، قال إسماعيل.

«حبيبتي نوال، أنا آسف على هالشرح الكتير والكلام الكبير، الوضع معقَّد كتير وشرحه وتفسيره مش سهل، بس باختصار إحنا لازم نغادر خلال ساعات، لإنُّه أكيد الحاكم العسكري الإسرائيلي مش رح يوافق يعطيني لَمّ شمل حتَّى ألتمّ مع عيلتي وأضل مع بناتي، أكيد بيفضِّل يتخلَّص من أربع فلسطينية بدل ما يعطي بطاقة حمرا لفلسطيني زيادة يبقى في يافا».

«أصلاً كيف بدَّك تدوِّر على إمِّي ومحمَّد، إذا رح يعطوك إقامة تسمح لك تضل في يافا بس بتمنعك تغادرها؟»، سألت شمس التي اتَّضح أنها الوحيدة التي كانت تتابع وتفهم تعقيدات الموقف.

«متل ما إنت شايفة يا شمس الموضوع مش سهل»، قال خليل الذي أرهقه الحوار العقيم، لإدراكه بأن خياره الوحيد هو أن يأخذ بناته الثلاث، ويغادر مع حلول الظلام.

من جديد، راودت رِفْقَة فكرة أن تُبقِي بناتها معها لفترة أطول، إلَّا أنها تردَّدت في قول ذلك صراحة. شعرت بالحاجة إلى أن تنفرد ببناتها قليلاً، فقالت: «شمس، نظيرة، نوال، خلِّينا نتمشَّى شوي في البَيَّارَة، ما رح نتأخَّر، لإنُّه أكيد عبد ومحمود بيحبُّوا يمضُّوا معكم وقت قبل ما تروحوا»، وما إن أنهت الجملة حتَّى اغرورقت عيناها بالدموع، ولأوَّل

مرَّة منذ أسبوع انفجرت بالبكاء: «معقول ما أرجع أشوف بناتي أبداً بعد هيك؟».

طلب محمود أن ينضمَّ إلى أمِّه وأخواته في مشوار الوداع.

«تتأخَّروش، المهرّبين رح يوصلوا خلال ساعة أو ساعتين، والبنات لازم يحضروا أغراضهم»، قال عبد، الذي شعر هو أيضاً بالحاجة للانضمام إلى عائلته في مشوارهم الأخير، ولكنه، وهو الرجل المهذَّب، بقي مع خليل وإسماعيل.

«أيّ أغراض؟»، ضحك خليل، «ما هُمَّه رح يروحوا مشي، أو في أحسن الأحوال على حمير معظم الرحلة، لازم يكونوا خفاف خفّ الريشة. كلّ اللِّي بيقدروا ياخدوه معهم شويّة أكل ومَي»، قال خليل الذي كان قد قطع بلاداً وهو يبحث عن أسرته.

«صحيح طبعاً، خلُّوني أروح أحضِّر شويَّة سندويشات وتمر ومَي للطريق»، قالت خديجة، ودخلت إلى البيت مُسرعة، ومن هناك نادت زوجها. أرادت أن تعرف إن كان خليل قد دفع له النقود، ليس فقط أجرة تهريبه وبناته، ولكنْ، أيضاً أجرة الخدمات الإضافية للعثور عليهنَّ. «أيوه أيوه ما تقلقي، رتَّبت الموضوع براسي. رح أخبرك كلّ إشي لمَّا يروحوا»، قال إسماعيل باختصار، ثمَّ عاد ليجلس مع الرجلَيْن.

«رتَّب الموضوع براسه؟ شو قصده؟ كان بيقدر يقولِّي ببساطة قدِّيش أعطاه»، فكَّرت خديجة في نفسها، ولكنها قرَّرت في النهاية أن تترك الأمر للصديقَيْن، فرَغْم مَسَاس حاجة زوجها للنقود، إلَّا أنها تعرف أن خليل كان رجلاً كريماً ومحترماً طوال حياته، لذا عادت لتركِّز على حشو الساندويشات بما هو متوفِّر.

عندما عادت رِفْقَة وأطفالها من مشوار الوداع المرهق عاطفياً، كانت الساعات العصيبة الأخيرة لوجودهم معاً على وشك أن تنتهي. استجمع إسماعيل شجاعته، ليتقدَّم بطلب من صديقه خليل في اللحظة الأخيرة. كانت هذه هي اللحظة المناسبة للحصول على ثمن مناسب من خليل، ولأنه كان يدرك حساسية طلبه، انتظر اللحظة المناسبة، واستأذن، وطلب أن ينفرد بخليل: «خليل، بنقدر نحكي مع بعض أنا وإنت على انفراد؟».

«أكيد»، أجاب خليل، وتبع إسماعيل إلى داخل البيت.

«خليل»، قال إسماعيل، ثمَّ صمت قليلاً وهو يستجمع شجاعته التي كادت تخونه، وأخذ نَفَساً عميقاً: «بدِّي أطلب منك معروف»، قال وهو يركِّز على كلمة معروف.

«منِّي أنا؟».

«أيوه، يا صديقي، منَّك إنت. أنا بدِّي أطلب إيد شمس لابني».

«إيد شمس؟».

«أيوه، لابني أمير».

«لأمير؟»، كان التكرار طريقة خليل في استيعاب الطلب غير المتوقَّع والمفاجِئ.

«أيوه، لأمير»، كرَّر إسماعيل وهو ينظر في عينَي خليل.

على الرَّغْم من الغُصَّة التي شعر بها خليل من فكرة افتراقه عن واحدة من بناته بعد هذه المعاناة كلِّها، إلَّا أنه شعر بأنه مَدين لصديقه، لذا لم

يكن في وضع يسمح له برفض طلبه، فرَغْم أنهما أصبحا متساويَيْن في الفقر، إلَّا أن خليل لم يستطع أن يقول لا لمعلِّمه السابق. شعر إسماعيل بتردُّد خليل، فضغط عليه أكثر قائلاً: «ولو، يا خليل، أنا رجَّعتلك بناتك التلاتة، بتقدرش إنت تعطيني وحدة منهم بالمقابل؟».

مُدرِكاً ما يعنيه التفريق بين الأخوات الثلاث، استعان خليل ببناته: «شمس، نظيرة، نوال، تعالوا لهون دقيقة». شعرت شمس وأختاها بجدِّيَّة الموقف، بمجرَّد أن سمعنَ صوت والدهنَّ المرتعش، فوقفنَ أمامه بترقُّب. تبادل الرجلان النظرات قبل أن يقطع خليل الصمت المتوتِّر: «حبيبتي شمس، إنت بتعرفي إنه إسماعيل بالنسبة إليّ أعزّ من أخ، وهوّه ومرته أكتر من أهل بالنسبة إلي وإلكم»، تردَّد قليلاً قبل أن يضيف: «عمِّك إسماعيل طلب إيدك منِّي لابنه».

«أمير»، أكمل إسماعيل.

«أنا ما بقدر إلَّا أوافق، بس بدِّي موافقتك إنتِ كمان، يا شمس».

لم تعرف شمس ماذا تقول أو تفعل، فاقتربت تلْقَائِيَّاً من أُختَيْها وضمَّتهما بشدَّة. كانت في حالة من الذهول، ولم يبدُ واضحاً إن كانت ما تزال تستمع إلى الرجلَيْن وهما يتحدَّثان باحثَيْن عن الكلمات.

«إنتِ بتعرفي حبيبتي شمس إنِّك كنتِ دايماً متل بناتي، ورح تكوني بين عيلتك. لكنْ، لإنِّك إنتِ وأمير لسَّاتكم صغار كتير عالزواج، من الأفضل تخطبوا كم سنة قبل ما تتزوَّجوا».

بينما كان الجميع ينظرون إلى شمس بانتظار قرارها، كانت تائهة في أفكارها: «يا ربّ، شو عملت عشان أستاهل كلّ هاد؟ بعد ما أخيراً لقيت أبوي صار لازم أخسر نظيرة ونوال، وبعد ما أخيراً تقبَّلت اختفاء صبحي، رح أتجوَّز أخوه الصغير!». اجتاحت شمس رغبة جامحة

بالسؤال عن صبحي، ولكنها لم تفعل .. لم يستطع أحد أن يتحدَّث أو يناقش شمس التي وقفت غير قادرة على الحركة، وعاجزة تماماً عن الكلام والتعبير.

أدرك إسماعيل ضرورة حضور رِفْقَة ومشاركتها في النقاش، إذ كان يعرف جيِّداً أنه إن كان هناك مَنْ يستطيع أن يقنع شمس في هذه اللحظة المصيرية من حياتها، فهي، بالتأكيد، أُمُّها رِفْقَة.

«أيوه، إيش في؟»، قالت رِفْقَة وهي تدخل متأهِّبة مع إسماعيل. عانقت بناتها الثلاث، ثمَّ أمسكت بذراع شمس، وخرجت بها إلى جولة أخرى في البَيَّارَة.

«حبيبتي شمس، أنا عارفة قدِّيش صعب عليكِ تتعاملي مع كلّ اللِّي عم بصير معك وحواليك، وكمان إنِّك ترجعي تفترقي عن أبوكِ وعن نظيرة ونوال، الله أعلم لإيمتى»، في اللحظة الأخيرة، أوقفت نفسها عن قول كلمة «إلى الأبد»، «بس إنتِ بتعرفي حبيبتي إنُّه في هالحياة إحنا بنخسر إشي وبنكسب إشي. فكّري في أبوكِ وكيف قدر يسترجعكم إنتو التلاتة، وهَلَّأ جاهز إنُّه يخلِّيكِ تتزوَّجي وتعيشي حياتِك. فكّري بإسماعيل وخديجة اللِّي طول الوقت كانوا بدهم ياكي تكوني وحدة من عيلتهم، بس الأهمّ فكري فينا». أشرق وجه رِفْقَة عندما قالت ذلك، ثمَّ أكملت: «فكّري فيكِ وفيِّي، وكيف بدنا نضل قراب على بعض في هالعالم القاسي، أرجوكِ، شمس، ليش ما تقبلي وتضلِّي قريبة منِّي؟».

فكَّرت شمس طويلاً في كلِّ ما فعلته رِفْقَة لها ولأُختَيْها، وأيضاً بالمستقبل المجهول والخَطِر الذي كان والدها سيأخذهنَّ إليه. وبعد تردُّد وانفعال حسمت أمرها، وقرَّرت أن تبقى في يافا، وتتزوَّج أمير شقيق صبحي.

39

كانون الثاني 2018

(يافا)

في الثالث والعشرين من كانون الثاني 2018 التقيتُ بشمس في بيتها في حيٍّ العجمي في يافا. أمضيتُ معها يومَيْن كاملَيْن، تحدَّثنا فيهما مطوَّلاً عن حياتها، وبشكل خاصٍّ عن الأحداث التي شهدتْها خلال نكبة العام 1948. أكثر ما استوقفني في شمس ذات الخمسة والثمانين عاماً كان سكينتها ورقَّتها، وأكثر من ذلك كلِّه قدرتها على التسامح والغفران.

بوجه بشوش كانت تتحدَّث مع بناتها وأحفادها الذين أحاطوا بها. كانت تحتضن الجميع، بمَنْ فيهم أنا التي لم تعرفني من قبل.

أذهلني التناقض بين قسوة الحكايات التي روتْها لي والرقَّة التي انسابت من صوتها. منها عرفتُ الأحداث التالية:

تزوَّج شمس وأمير، وعاشا معاً حياة هانئة، رُزِقَا بستِّ بنات، أطلقت شمس على الكُبريَيْن اسمَي نظيرة ونوال. سنة 2013 توفيِّ أمير «الله يرحم روحه، كان رجل لطيف وخلوق، وعاملني متل الأميرة، وما شفتش منه إلَّا كلّ خير».

لم ترَ شمس والدتها منذ أن افترقتا، فقد مرضت عائشة وماتت في غَزَّة وهي تبحث عن بناتها. بعد زواجها من أمير لم ترَ شمس والدها خليل، فقد توفيِّ سنة 1969 في عَمَّان.

كما لم تلتق بأخيها محمَّد، فقد تركتْهُ أُمُّه عند أقارب لها في عَمَّان، وذهبت إلى غَزَّة بحثاً عنها وعن أُختَيْها. في العام 1952، وبعد أشهر من وصوله إلى الأردن، عثر خليل على ابنه محمَّد في عَمَّان، حيث قضى حياته كلَّها، إلى أن توفيِّ في سنة 2003 في عمر السبعين.

بعد عام على حرب سنة 1967، حين احتلَّت إسرائيل ما تبقَّى من فلسطين، حصلت نظيرة ونوال على تصاريح، مكَّنتْهما من زيارة إسرائيل، وبالتنسيق مع أمير دون علم شمس جاءتا إليها في زيارة مفاجئة. حضرتا للغداء مع أبنائهما. في البداية لم تتعرَّف شمس عليهما، إذ كان أمير قد أبلغها أن بعض رجال الأعمال سيحضرون مع عائلاتهم للغداء.

توفيِّ إسماعيل بالسكتة القلبية سنة 1963 عندما صادرت سلطة الأراضي الإسرائيلية بَيَّارَتَهُ، وقطعت أشجار البرتقال كلَّها فيها. بعد نوبة من الصراخ والبكاء سقط على الأرض، فحمله أمير إلى مستشفى في يافا، حيث فارق الحياة.

وجد حبيب نفسه عاجزاً عن الحياة والحركة والعثور على عمل في إسرائيل، فذهب ليعيش في مخيَّم نهر البارد شَمال لبنان. لم يتزوَّج أبداً، ولم يُنشِئ عائلة، ومثل العديد من اللاجئين الفلسطينيِّيْن انضمَّ إلى منظَّمة التحرير الفلسطينية، وفي العام 1982 استُشهد وهو في الخامسة والخمسين في المعركة ضدَّ إسرائيل التي اجتاحت لبنان، وظلّت قوَّاتها فيها حتَّى أيَّار 2000.

توفيِّ عبد وفاة طبيعية في العام 1972.

مثل العديدين، هاجر محمود إلى تشيلي.

بعد وفاة زوجها عبد وهجرة ابنها محمود، انتقلت رِفْقَة لتعيش في بيت يام، البلدة اليهودية جنوب يافا.

استمرَّت علاقة رِفْقَة وشمس الحميمة حتَّى آخر يوم من حياة رِفْقَة. كانت بنات شمس يعشقنَ «ستِّي رِفْقَة»، وكنَّ يزرنَها دائماً، إمَّا وحدهنَّ أو برفقة شمس، في شُقَّتها الصغيرة في بيت يام، كما كانت كثيراً ما تأتي هي لزيارتهنَّ، وتتناول الغداء معهنَّ في أيَّام الجُمُعة. في سنة 1988 مرضتْ، فعاد ابنها محمود من تشيلي، ليكون مع أُمِّه الراقدة في مستشفى في يافا، حيث تُوفِّيت بعد أسبوع. كانت شمس تعدُّ الملفوف، طبق رِفْقَة المفضَّل، عندما دقَّ جرس الهاتف، ليُخبرها محمود: «إِمِّي ماتت»، وهو ينشج بالبكاء.

أتت شقيقة رِفْقَة من بيت يام، لتأخذ جثمان أُختها، وتدفنها في المقبرة اليهودية، ولكن محمود اعترض مؤكِّداً أن أُمَّه قد أسلمت، وأوصت بأن تُدفَن إلى جانب زوجها عبد في المقبرة الإسلامية في يافا، وأمام إصرار محمود استسلمت شقيقة رِفْقَة.

«طيِّب، وهَلَّأ احكيلي عن قصَّة حبِّك مع صبحي»، استجمعتُ شجاعتي، وهمستُ في أُذُنها عندما كنتُ على وشك المغادرة.

«إيبي، هاي كانت وَلْدَنة»، ضحكت بخجل، واحمرَّ وجهها.

«عمرك شفتيه بعد هيك؟».

«لأ»، قالت وهي تبتسم.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، ذهبتُ لألتقيَ بصبحي في غرفته المتواضعة في جبل المرِّيخ في عَمَّان. كان هو، أيضاً، مُحاطاً بأحفاده الكثيرين. أظهر صبحي ابن الثمانية والثمانين رغبة أكبر في الحديث عن بدلته الإنكليزية من الحديث عن شمس. عندما سألتُهُ عن البدلة، نهض عن كرسيِّه، وجرَّ جسده النحيل باتِّجاه خزانة، وفتح بابها على

سعته، ثمَّ رفع يده إلى أعلاها، وأخرج خرقة رمادية مخطَّطة بالأحمر، وبيدَيْه المرتعشتَيْن ناولني إيَّاها، ثمَّ عاد إلى كرسيِّه، وأخذ نَفَساً عميقاً قبل أن يقول: «هاد كلّ اللِّي بقيلي من فلسطين».

صمتٌّ قليلاً، لأُعطيَهُ وأعطيَ نفسي لحظة، لنبلعَ الغُصَّة في حلقَيْنا، ثمَّ تحسَّستُ بيدَيَّ بقايا بدلته الإنكليزية. وعندما تماسكتُ قليلاً، نظرتُ في عينَيْه، وسألتُهُ: «وشو بالنسبة إلى شمس؟».

ساد الصمت بينما راح صبحي ينظر من النافذة. عكس الضوء الذي سقط على وجهه تلك الهشاشة والاستسلام اللذَيْن لا بدَّ وأنهما رافقاه طوال هذه السنوات. انتظرتُ بخشوع بينما تركَّزت نظراتي على البقع الداكنة التي تركها العُمُر على يدَيْه.

«صحيح إني ما رجعت شفت شمس بحياتي، لكنْ، هادا ما بيعني إني ما كنت أفكِّر فيها طول هاي السنين». بارتباك، وبرقَّة خفيَّة أضاف: «كلّ اللِّي بقدر أقوله إني سعيد إنها ضلِّت في العيلة». صمت صبحي قليلاً قبل أن يقول: «كلّ واحد ونصيبه في هالدنيا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

فهرس الرواية

الفصل الأوَّل: صبحي

قصَّة بدلة (يافا، تمُّوز 1947) 9

1. أشطر ميكانيكي في يافا 11
2. بدلة الميعاد 22
3. بَيَّارَات يافا 29
4. البدلة: أن تكون أو لا تكون 35
5. يافا أُمُّ الغريب 45
6. ثلاث ورقات خضراء وورقة حمراء 49
7. الخواجا صبحي 58
8. كبرياء إنگليزي 65
9. ستوديو صابونجيان 72
10. مقهى التيوس 79
11. مقهى المثقَّفين 84
12. من عالم الصبا إلى عالم الرجولة 91
13. في الكرخانة 98
14. موسم النبي روبين 103
15. مدينة الخيام 107
16. صباح الجُمُعة: احتفالات الكسوة من يافا إلى النبي روبين. 111
17. سماء مزركشة بطائرات الحُبِّ الورقيَّة 116
18. حُبّ حياتي 124

الفصل الثاني: العودة إلى يافا 133

19. الله يكفينا شرّ الضحك 135

20. برتقال الموت 142
21. سرقة قطار 147
22. استعراض الرعب في القدس 151

الفصل الثالث: السادة الجُدُد 163
23. ضياع 165
24. السادة الجُدُد 171
25. تحقيقات البدلة المُتنازَع عليها 182
26. في ميناء يافا 189
27. بلد مُتنازَع عليه 193
28. أشطر ميكانيكي في اللامدينة 200

الفصل الرابع: شمس 209
29. أمٌّ بالتبنِّي 211
30. بقرة يهودية 221
31. البقرة اليهودية: جرائم كبرى وجرائم صغرى 227
32. أحدهم بالباب 234
33. أُمٌّ مسلمة 245
34. خُطَّة الهرب 254
35. صبحي: البحث عن ماضٍ وعن مستقبل 264
36. طَرْقَات خجولة على الباب 270
37. جيران جُدُد 276
38. معروف صغير لصديق قديم 293
39. كانون الثاني 2018 305

telegram @soramnqraa

يافا - فلسطين 1947، يتمكَّن صبحي الفتى "الفلتة" في الميكانيك، ذو الـ 15 عاماً، من إصلاح نظام الريّ في بيّارات برتقال الخواجة ميخائيل؛ الذي كان وعدَهُ ببدلة إنكليزية "*صوف من مانشيستر، بيفصلّك ياها أحسن خيّاط في البلد، بتختاره إنتَ بنفسك*"، كجائزة له. تصبح هذه البدلة حُلْماً لصبحي، ليرتديَها في حفل زفافه من شمس ذات الـ 13 عاماً، وهذا الحُلْم يصبح صلباً ومَلمُوساً قبل تحقُّقه حتَّى. بل يصبح من القوَّة إلى الحَدِّ الذي تتمكَّن العامري من تحويله إلى مختبر لليقينيات الكبرى المرتبطة بفلسطين، حيث تحتضر أُمَّة، بينما تُولَد أُمَّة أخرى محاطة برعاية العالَم الذي يشعر بالذنب.

يذهب صبحي للحرب دفاعاً عن بلده وعن بدلته الإنكليزية التي تبدأ بالتلاشي، بينما تجد شمسُ بقرةً في مخيَّم اللجوء في اللدّ، وتتنازل عن حُبِّها للحيوانات أمام بطون اللاجئين الجائعة، وبعد يومَيْن نكتشف أن البقرة يهودية!

بأسلوبها السهل الممتنع (ومع أني بتُّ أكره هذا التعبير، ولكني لا أجد غيره في هذا المقام) تعيد سعاد العامري، في هذه الرواية، تأصيل القصَّة الفلسطينية بناء على قصَّة حُبٍّ حقيقية بين طفلَيْن، تتعثَّر أيَّام حياتهما بلحظة تاريخية حاسمة، مملوءة بأحداث حقيقية، نقرؤها كما لو كنَّا نقرأ حكاية شعبية متواترة عن الأجداد. الأجداد الذين مثل الجَدِّ عليّ لشدَّة خبرتهم بالماضي أصبحوا الأقدر على قراءة المستقبل، كما فلسطين الآن هي الأقدر على امتحان وجودنا.

الناشر

ISBN 979-12-80738-53-0

المتوسط